

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي  
جامعة الحاج لخضر - باتنة-

قسم اللغة العربية و آدابها

كلية الآداب  
و العلوم الإنسانية

أثر النزعات المذهبية و الروحية في الشعر  
المغربي (من القرن الثاني إلى القرن الرابع)

دراسة في بنية الأفكار والمواقف والأساليب الشعرية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم

إشراف الأستاذ الدكتور:  
معمر حجي

إعداد الطالب:  
عبد الله خنشالي

السنة الجامعية:

1429 - 1430 هـ / 2008 - 2009 م

لجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية  
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الحاج لخضر - باتنة-

قسم اللغة العربية و آدابها

كلية الآداب

و العلوم الإنسانية

أثر النزعات المذهبية و الروحية في الشعر المغربي  
(من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري)

دراسة في بنية الأفكار والمواقف والأساليب الشعرية

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الأدب العربي القديم

إشراف الأستاذ الدكتور:

معمر حجيج

إعداد الطالب:

عبد الله خنشالي

لجنة المناقشة :

1- أ.د. محمد زرمان	جامعة	باتنة	رئيسا
2- أ.د. معمر حجيج	جامعة	باتنة	مشرفا ومقررا
3- د. محمد منصوري	جامعة	باتنة	عضوا مناقشا
4- د. امحمد فورار	جامعة	بسكرة	" "
5- د. امحمد عزوي	جامعة	سطيف	" "
6- د. المكي العلمي	جامعة	أم البواقي	" "
7- د. فاتح حمبلي	جامعة	أم البواقي	" "

السنة الجامعية:

1429 - 1430هـ / 2008 - 2009م

## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة:

البحث في الأدب المغربي القديم واجب على كل أبناء المغرب العربي الكبير، توجبه عليهم عواطف الانتماء لهذه الأرض الطيبة التي ساهمت بجهود أبنائها المخلصين بقسط وافر في تشييد صرح الحضارة الإسلامية خاصة والإنسانية عامة عبر مختلف الأحقاب والأعصر. غير أن تلك الإسهامات على اختلاف مجالاتها غالباً ما يسكت عنها إن قصداً أو سهواً، والقصد قد يراد به الانتقاص من قيمة تلك الإسهامات، انطلاقاً من فكرة التعلق بكل ما هو مشرقى باعتباره الأصل، كالذي قيل عن كتاب ابن عبد ربه الأندلسي من قبل "بضاعتنا رُدّت إلينا".

إن فكرة زهد القدماء في كل ما هو مغربي قديمة قد مست حتى بعض المغاربة أنفسهم، وما عزوف ابن عبد ربه عن تضمين كتابه ذي الطابع الموسوعي عن إيراد بعض النصوص لأعلام المغرب والأندلس إلا صورة حية عن اطراد تلك الفكرة.

لقد استمرت تلك الفكرة إلى قريب من العقد السادس من القرن العشرين، يؤكد ذلك الحضور الباهت أو المحتشم للنص المغربي القديم في المناهج التعليمية بمختلف أطوارها في بلادنا. وقد تداركت ذلك وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - مشكورة- بإدراجه كمقياس في منهاج طلبة الآداب سنة ثالثة، ثم حول إلى السنة الثانية منذ ثلاث سموات.

وهو تدارك مكن الطالب الجامعي من أخذ فكرة ولو موجزة عن هذا الأدب، لتبقى ندرة مصادره ومراجعته عقبة في طريق الراغبين من الطلاب في الإحاطة بهذا الجزء المهم من الأدب العربي .

ورغم ندرة مصادر هذا الأدب فقد شرع - والله الحمد - عدد من الباحثين في مختلف الأقطار المغاربية منذ القرن الماضي في عملية إخراجها من دائرة النسيان والتعريف به وتمكين الأجيال منه، فأصدروا عددا من الدراسات تعد على جانب من الأهمية. أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، ففي المغرب الأقصى نجد: النبوغ المغربي لعبد الله كنون ، والأدب المغربي ظواهره وقضاياها لعباس الجراري . والشعر المغربي في العصر المريني. لعبد السلام شقور. وفي الجزائر نذكر: تاريخ الجزائر الثقافي لأبي القاسم سعد الله. وتعريف الخلف برجال السلف، للشيخ محمد الحفناوي ، و دراسات في الأدب المغربي القديم لعبد الله حمادي . وتاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار. وفي تونس نذكر: الحركة الأدبية بإفريقية في عهد بني الأغلب، للعبيدي محمد مختار. والأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ،لمحمد اليعلاوي. إلى جانب تحقيق ونشر عدد من المخطوطات . هذه الدراسات والتحقيقات تميزت في أغلبها بالطابع العلمي الأكاديمي مما يجعلها أكثر إفادة.

لا يزال الأدب المغربي في حاجة إلى مزيد من جهد الباحثين؛ تحقيقا وتصنيفا وشرحا ودراسة، تمكينا للقراء والدارسين منه .

وآمل أن يكون بحثي هذا الموسوم ب"أثر النزعات المذهبية والروحية في الشعر المغربي" من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري مساهمة مني في إضاءة جانب من جوانبه المتمثل في مدى التأثير المذهبي على الشعر، خصوصا وأن المغرب قد عايش حركات

مذهبية قوية أفرزت عددا من الدول والإمارات، متزامنة متسالمة حيناً، كالرستميين والأدارسة والمدراربيين وحتى الأغالبة ، أو متصادمة متقاتلة يقوم بعضها على أنقاض بعض أحيانا أخرى، كالفاطميين الذين أقاموا دولتهم على أنقاض من كان قبلهم من الدول والإمارات. وكالذي كان بين الحماديين والمرابطين ثم الموحدين وغيرهم .

ذلكم أحد أهم الأسباب التي جعلتني أختار البحث في نطاق الأدب المغربي.

أما عن الأسباب جعلتني أختار الجانب الديني المذهبي فلعل أهمها ما لاحظته خلال

تدريسي لمقياس الأدب المغربي للطلبة في الجامعة من تميز الشعر الديني عن بقية

الموضوعات الشعرية الأخرى. سواء من حيث الوفرة أو من حيث الاتساق والنضج الفني .

وباعتبار المغرب قد احتضن لفترات طويلة جل المذاهب الدينية التي أسفرت عن إمارات

ودول، استطلت بمذهب ما، من تلك المذاهب. وكان الشعر لسان حال تلك الإمارات والدول ،

والفن الأكثر تحفيذا على البوح بالعواطف والأهواء والأفكار . كما أنه الفن الأقدر على

استجلاء شخصية المجتمع؛ أميرا وقائدا،

وأديبا شاعرا وناسكا، وصلو كما. فهل تركت تلك المذاهب بصماتها على شخص المتمذهب في

أفكاره ومواقفه وفنونه ؟ ، أم أن المذهب بمثابة القناع لا أثر له على الشخص والمجتمع ؟ تلکم

هي الإشكالية التي جاء البحث ليحيط عنها ، ويبين مدى ما بين المذاهب من تأثير أو عدمه على

الفن الشعري، وما هي وجوه الاتفاق والاختلاف في شعر تلك الطوائف الدينية. ثم أي تلك

المذاهب أكثر حملا للشعراء على الإبداع ؟ وأي شعر تلك الطوائف أوفر فنية وجمالا؟

وقد رأيت أن يكون البناء الهيكلي للبحث متكونا من ثلاثة أبواب، كل باب يتألف من ثلاثة

فصول.

الباب الأول : المرجعيات الفكرية والعقائدية للمذاهب الإسلامية .

الفصل الأول منه يعرف بالمغرب من حيث الأرض والسكان.

الفصل الثاني يتناول نشأة المذاهب والفرق والنزعات الإسلامية.

الفصل الثالث تطرقت فيه إلى مظاهر التواصل بين المغرب والمشرق.

الباب الثاني: أغراض الشعر المغربي وملامح تميزها ، ويحاول حصر أهم الموضوعات

التي استوعبت تجارب شعراء المغرب في ظل تلك المذاهب، مع محاولة تحديد نقاط الاتفاق

والاختلاف بين تلك المذاهب في الجوانب لموضوعية والفنية.

الفصل الأول في أغراض الشعر السني وملامح تميزها.

الفصل الثاني في لأغراض الشعر الخارجي وملامح تميزها.

الفصل الثاني في أغراض الشعر الشيعي وملامح تميزها.

الباب الثالث يبحث في شعر النزعات الروحية من زهد وتصوف، ويحاول الوصول إلى سر

اطرادهما في الشعر المغربي.

والفصل الأول منه خاص بالبحث في شعر الزهد وموضوعاته.

الفصل الثاني يبحث في شعر التصوف وموضوعاته .

الفصل الثالث يبحث في نزعة المجون والزندقة، وموضوعاتها.

ونظرا لكون البحث متعدد الجوانب ؛ من تاريخي إلى ديني إلى فني ولغوي فقد اعتمدت

الجمع والتوفيق بين عدد من المناهج ، كالتاريخي والفني، والتحليلي الاستقرائي، وحتى

التأثري. وهو ما سماه بعض الباحثين بالمنهج التكاملي ، بمعنى تداخل عدد من المناهج في دراسة نصية ما.

ولا أخفي أن صعوبات كثيرة جابهتني في إنجاز هذا البحث. لعل أشدها تأثيرا عليّ ندرة الصادر والمراجع الأساسية، وهي التي كانت وراء تأخر البحث إلى حد ما. وكذا ندرة الدراسات التي يمكن الاستئارة بها. ولم تجدني رحلات البحث عن المصادر في كثير من المكتبات العتيقة داخل الوطن وخارجه إلا بالنزر القليل. الأمر الذي جعلني أعتد النص الشعري كأساس في بناء البحث. ومما صعب عملية البحث أن جل النصوص الشعرية المنبثقة عن مرحلة البحث لم يجمع منها إلا القليل ، فهي موزعة بعضها في كتب التاريخ والجغرافية، وبعضها في كتب الدين والعقائد، وبعضها في كتب السير والتراجم وبعضها المنتخبات. إن الموضوع على جانب من الأهمية سواء من حيث المرحلة الزمنية أو من حيث القضية المتناولة ؛ فمن حيث الزمن فالمرحلة تعد مرحلة تأسيسية بالنسبة إلى الشعر المغربي. تكشف للدارس الحثيات والظروف التي تمخض عنها فن الشعر.

كما تبين وتيرة تطور الشعر في هذا الإقليم .

وبالنسبة إلى القضية التي المطروحة في البحث فهي جديدة لم يسبق أن بحثت لا في المغرب العربي ولا في مشرقه - في حدود علمي المتواضع. هذا من ناحية ومن ناحية ثانية فهي تتناول قضية جوهرية دقيقة تمثلت في محاولة استكشاف العلائق القائمة بين الشعر والنزعات المذهبية والروحية. فالموضوع إن صح الوصف ولوج في عمق الشعر، وخروج به مما لصق به منذ عهود خلت "الشعر كلام موزون مقفى".

فإن وفقت في تجسيد الفكرة يكن إضافة متميزة إلى رصيد الأدب المغربي ، وإن أخفق يكن

مني إلماعاً إلى قضية جد هامة لاشك واجدة من يكملها في يوم ما. وعند ذلك أردد قول

الشاعر :

لا تلم كفي إذا السيف نبا صح العزم مني والدهر أباي

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم بجزيل الشكر والتقدير للأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور معمر حجيج على توجيهاته القيمة و رعايته البحث مذ كان فكرة إلى أن صار إنجازاً. نسأل الله أن يحظى بإعجاب وتقدير الأسرة الجامعية أساتذة وإداريين وطلبة. وشكري الجزيل إلى كل أساتذة قسم اللغة العربية وآدابها كل باسمه . والله الحمد من قبل ومن بعد.



## الباب الأول

### المرجعيات الفكرية والعقائدية للمذاهب الإسلامية

الفصل الأول : التعريف بالمغرب ، الأرض والسكان.

الفصل الثاني: نشأة المذاهب والفرق في المشرق.

الفصل الثالث: مظاهر التواصل وانتقال المذاهب والنزعات

من المشرق إلى المغرب.

---

**الفصل الأول:**

**التعريف بالمغرب**

**أولاً: الأرض**

**ثانياً: السكان**

**أولاً : الأرض**

يقع إقليم المغرب في شمال القارة الإفريقية في المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالا إلى عمق الصحراء الإفريقية جنوبا .

وحده الفرد بل بأنه " المنطقة المربعة الشكل من الأراضي المرتفعة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط في الشمال، والصحراء الكبرى في الجنوب، وخليجي سرت شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وطرابلس وبرقة وواحة سيوه و كذلك كل الصحراء الكبرى في الجنوب. " <sup>1</sup>

وسمي بالمغرب نسبة إلى ناحية مغرب الشمس. والتسمية أول الأمر كانت تعني كل الأقاليم التي تقع غرب الشام؛ - مقر الخلافة الأموية - بما في ذلك مصر والتسمية حديثة، يقال أنها أشرت عن الإمام علي - كرم الله وجهه - أيام الفتنة. فقد ورد في خطابه لأنصاره " تجهزوا للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب " <sup>2</sup>

ويبدو أن اطراد تسمية " المغرب " على الإقليم الذي يشمل حاليا كلا من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا لم يكن قبل القرن الثالث الهجري. أما قبل ذلك فقد عرفت المنطقة بأسماء عديدة منها :

- الأفري، وهي تسمية أطلقها القرطاجنيون .

- ليبيا، تسمي المؤرخ الإغريقي [ هيرودوت ].

- إفريقية، تسمية أطلقها الرومان ثم صيروها ثلاثة أقسام أو ولايات :

1 - إفريقية البر وفنصلي، وهي الواقعة شرقا والتابعة للقرطاجنيين .

<sup>1</sup> - الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الغرب الإسلامي، ص 38.

<sup>2</sup> - موسى لقبال : تاريخ المغرب الإسلامي ، دار هومة ، الجزائر ، ط 4 - 2001 ص 18.

2 - نوميديا وهي في الأصل وصف أطلق على السكان " نوما دس " أي البدو الرحل وهي المنطقة الوسطى للإقليم .

3 - موريتانيا، وهي المنطقة الغربية من الإقليم .

و لشساعة الإقليم فقد قسم بعد الفتح الإسلامي - كذلك - إلى ثلاثة أقسام : المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى .

وإقليم المغرب متنوع في تضاريسه ومناخه، كثيرة خيراته، لذلك عمره الإنسان منذ قديم العهود والأزمان، قدر علماء الآثار ذلك بنحو ثلاثمائة أو أربعمائة ألف سنة.

ويرى علماء التاريخ أن أول من عمر هذا الشمال الإفريقي هم الأمازيغ، وهم من سلالة حام بن نوح عليه السلام يؤكد ذلك ما روي عن شيوخ المغرب ، الذين بعث بهم عمرو بن العاص لمقابلة الخليفة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - من أنهم قالوا - حين طلب منهم الخليفة أن ينتسبوا- : " نحن الأمازيغ الأحرار ، أبناء مازيغ بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام، أنهم أصحاب البلاد الممتدة بين خليج العرب(البحر الأحمر) والبحر المحيط (الأطلسي)." <sup>1</sup>

ويعرف هؤلاء الأمازيغ - أيضا - باسم [البربر].

وعن موطن البربر الأصلي يقول أبو عبيد البكري : "وأما البربر فإن ديارهم كانت فلسطين من بلاد الشام ، وكان ملكهم جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم، إلى أن قتل داودُ جالوتَ، فساروا إلى بلاد المغرب..." <sup>2</sup>

<sup>1</sup> - د ، إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع المغربي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، 1970 ، ص 13 .  
<sup>2</sup> - أبو عبيد عبدالله البكري: المسالك والممالك، حققه ووضع فهارسه: د جمال طلبة ، دار الكتب العلمية بيروت ، ط 1 ، 1424 هـ . 2003 ، مج 1 ص 249 .

وإلى نفس الرأي ذهب الإدريسي (493-560هـ) حيث قال: "... وكانت ديار البربر

فلسطين. وكان ملكهم جالوت بن جانا، وهو أبو زناتة المغرب..."<sup>1</sup>

وعن نسبهم يقول البكري: "وقد اختُلف في نسبهم، فزعم بعضهم أنهم من ولد كنعان ابن حام، وقيل إنهم أوزاع من اليمن تفرقوا عندما كان من سيل العرم ما كان، وقيل إن أبرهة ذا المنار تخلفهم [أي خلفهم] بالمغرب، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان، والله أعلم بحقيقة ذلك، قال الكندي: إنهم من ولد بربر بن قيس عيلان، وقال قوم إنهم من ولد نيسر، وقال آخرون: من ولد نبيط بن حام، فلما نزل إخوانهم بمصر خرج بربر بن نبيط إلى ناحية المغرب فسكنوها وراء عمل مصر، وهو ما وراء برقة إلى البحر الأخضر إلى منقطع الرمل متصلين بالسودان. وقال آخرون إنهم من ولد لخم وجذام"<sup>2</sup>

يبدو أن البكري أميل إلى حصر أصل البربر في واحد من الثلاثة: كنعانيون أو أوزاع يمنيون أو من قيس عيلان. يستشف ذلك من إردافه الآراء الأولى بقوله "والله أعلم بحقيقة ذلك" أي من أي الثلاثة هم. أما ما تبع ذلك من آراء الآخرين فإيرادها من قبيل الذكر لا غير.

إن مشرقية البربر أمر يكاد يجمع عليه جل الباحثين. يقول عباس الجراري:  
"ويكاد يتفق البحث النزيه على أن هؤلاء البربر وفدوا من الجزيرة العربية ومصر في العصر الحجري، وعلى أنهم ربما اختلطوا عند وصولهم إلى بلاد الشمال الإفريقي

<sup>1</sup> - الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق للشريف الإدريسي، تح إسماعيل العربي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص124.

<sup>2</sup> - البكري: المسالك والممالك ج1 ص250.

ببعض الشعوب التي كانت قد وصلت بدورها وافدة من أوربا عن طريق شبه الجزيرة الإيبيرية. ومثل هذا البحث يؤكد لاشك ما ذهب إليه التاريخ العربي، وخاصة عند ابن خلدون من أن البربر عرب حميريون من بني قحطان...<sup>1</sup>

وكما اختلف العلماء في أصل البربر اختلفوا كذلك في سبب تسميتهم بالبربر.

فابن حزم الأندلسي (384-456 هـ) يرى أن تسميتهم بالبربر نسبة إلى جدهم بُر بن قيس بن إلياس بن مضر.<sup>2</sup>

في حين يرى ابن خلدون أن إفريقيش بن قيس بن صيفي من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية سمع رطانة سكانه، ووعى اختلافها وتنوعها، تعجب من ذلك وقال ما أكثر بربريتكم، فسموا بالبربر. و" والبربرة " بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة، يقال بربر الأسد إذا زار.<sup>3</sup>

أما الفريد بل فقال إن التسمية أطلقها الرومان على سكان هذا الشمال الإفريقي وأصلها " برباروس " أي متأبياً على حضارة روما.<sup>4</sup>

و" والبربرة " - كذلك - " صوت المعز وكثرة الكلام والجلبة والصياح،

وبربر فهو بربار، ودلو بربار لها صوت، وبربر جيل، ج البرابرة وهم بالمغرب

وأمة أخرى بين الحبوش و الزنج...<sup>5</sup>

<sup>1</sup> - عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع - الرباط (د.ت) ج 1، ص 16.

<sup>2</sup> - الإدريسي: المغرب العربي، حققه ونقله إلى الفرنسية، محمد حاج صادق، المنشورات الجامعية، الجزائر، ص 72.

<sup>3</sup> - د، نبيلة حسن محمد: في تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية للطبع، الإسكندرية، مصر، 2004، ص 86.

<sup>4</sup> - الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 48.

<sup>5</sup> - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط 2 - 1371 هـ - 1952 م، ج 1 ص 384.

إن البحث في أصل البربر لا يمكن أن ينتهي سوى إلى نتائج ظنية تقريبية، لا يُطمأن إليها كثيرا، خصوصا وأن المنطقة قد توافد إليها - منذ الأزمنة الغابرة - كثير من الأقوام ومن أنحاء شتى من المعمورة ، الأمر الذي جعل وجهات نظر الباحثين تختلف في تحديد تلك الشعوب التي اندمجت في هذه المنطقة مع البربر، غير أن الرأي المتفق عليه هو أن البربر هم العنصر الغالب على سكان الشمال الإفريقي .  
يقول عثمان الكعاك :

"إن العنصر البربري هو أقوى عنصر يتألف منه الشعب الجزائري، والبربر يعمرون الناحية الشمالية من إفريقيا ويمتد جنسهم بها إلى حدود خط الاستواء، وهم يكثرون كلما ذهب الإنسان مُغربًا. فيعيشون في البلاد ويخالطون العناصر الأخرى من غير مزج إلا مُصانعةً ممَّا كان أثره حفظ العنصر ممتازًا ومسايرة النازحين في حضارتهم و معاصرتهم ومساكنتهم من غير اندماج."<sup>1</sup>

إن ذكر الكاتب الشعب الجزائري دون أشقائه في الأقطار الأخرى في النص السابق راجع إلى كون الكتاب خاص بالجزائر، وما يقال عن الشعب الجزائري يصدق على شعوب المغرب كله - على الأقل - في تلك الفترة .

ونفس الرأي - تقريبا - نجده عند [ ألفرد بل ] في قوله : " والشيء المؤكد هو كلمة البربر تطلق على جماعات مختلفة كل الاختلاف بخصائصها العرقية ، وإن كانت اليوم

---

<sup>1</sup> - عثمان الكعاك : موجز تاريخ الجزائر العام ، من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ، دار الغرب الإسلامي ، ط 1 / 2003 ، ص 22.

متشابهة من حيث اللغة والأخلاق. ومن المستحيل أن نقر<sup>1</sup> في نفس الأسرة العرقية euqinhet مثل بربر إقليمي القبائل وجبال أوراس بين من قاماتهم متوسطة أو قصيرة ، وجماعهم طويلة، وبينهم عدد كبير من الشقر والكهب، وبين أهل مزاب ذوي القامات القصيرة الغليظة، والجماعم العريضة، والشعور والعيون السود أو بينهم وبين الطوارق وهم طوال الجماعم، طوال القامة طوال الأطراف<sup>2</sup> غير أن المتتبع لتاريخ البربر ومواقفهم من الطارئین على بلدهم منذ الأزمنة الغابرة ، يستخلص أنها أكثر قبولاً للطارئین المشاركة من غيرهم، وأكثر تعاملًا معهم، بدءًا بالفينيقيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد. مما يرجح بل يقوي الرأي القائل بالأصل المشرقي للبربر، إذ ما كان ليتم ذلك لولا توافق القيم والأخلاق والعادات، والأمزجة . يقول عبد الله كنون في تفسير النبوغ المغربي المبكر في الأدب العربي، حين حديثه عن شاعر المغرب في القرن الأول الهجري سابق البربري :

"...إن دل على شيء ، فإنما يدل على صحة انتساب هذه القبائل المغربية إلى الشعب العربي، وصدق النسابة الذين يرجعون البربر إلى أصول عربية من عدنانية وقحطا نية. وما أصدق ما ينسب إلى تماضر بنت قيس عيلان ترثي أخاها برًا، وتذكر بعده عن وطنه :

كأني وبرًا لم تُعزّ ديارنا      بنجد ولم نَقسم نهابا ومغنا  
 وشطت ببر داره عن بلاده      وطوّحَ بر نفسه حيث يمّا

<sup>1</sup> تبدو كلمة (نقر) غير واضحة الدلالة في السياق ولعلها تفرق.  
<sup>2</sup> - الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 44.



وأزرت بئر لكنة أعجمية وما كان برّ في الحجاز بأعجما

[ ثم قال معلقا بنوع من الحماس المعبر عن تعاطف الباحث مع هذا الرأي ] نعم لقد استعجم برّ لما غاب عن بلاده وتوحد في ديار الغربية ، وهاهو لما اجتمع ببني أبيه وأخواله وأعمامه يستعرب ثانية ويتفتق لسانه في أسرع ما يكون بلغة الضاد . ويصبح سابق بين عشية وضحاها من أشعر أهل زمانه ، وطارق من أفصح خطبائهم . ولماذا لا يكون ذلك : وإسماعيل أبو العرب المستعربة يمثل لنا نفس القصة، وإنما يعرضها عرضا معاكسا لقصة بر.<sup>1</sup>

ويؤيد فكرة كون الأمازيغ من الشرق ما ذكره أيضا عباس الجراري من نتائج البحث الأنثروبولوجي والذي منه :

– أن الدراسات اللغوية أثبتت أن اللغة البربرية على اختلاف لهجاتها ؛ الزناتية، والمصمودية ، والصنهاجية ، وأماكن انتشارها ، عبر كل الإقليم ، تنتسب إلى المجموعة الحامية السامية. يدل على ذلك التشابه القائم في بنية الكلمات... وكذا تشابه بعض قواعدها النحوية.

– أگد دارسو الموسيقى البربرية القديمة أن بينها وبين أغاني جنوب بلاد العرب تشابها واضحا.<sup>2</sup>

– كما يؤكد ذلك أيضا – تشابه الخط البربري بالخطوط الشرقية القديمة. يقول إبراهيم العدوي : "وكشفت الدراسات الأثرية الحديثة الخاصة بفك طلاس الخطوط

<sup>1</sup> – عبد الله كنون : سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج 44 شوال 1388 هـ – كانون 2 / 1969 ص 20.  
<sup>2</sup> – عباس الجراري : الأدب المغربي ، ص 18.

المسمارية و الهيروغليفية عن وجود قرابة لغوية بين لغات أهل الحضارات القديمة في الوطن العربي، وهي المصرية القديمة والآشورية والبابلية. وارتبطت لغة الجنس البربري وهي فرع من اللغات الحامية باللغة المصرية القديمة التي تمثل حلقة الربط بين لغات الوطن العربي القديم . إذ ثبت أن تلك اللغات ترجع إلى أصل واحد، حيث الأصل الفعلي فيها جميعا واحد. وهناك تشابه كاد يكون تاما في أصول الكلمات في تلك اللغات القديمة، بما في ذلك الضمائر الشخصية والأسماء التي تدل على صلة القرى، وكذلك بعض الأسماء التي تطلق على أعضاء الجسم.<sup>1</sup>

وعن التشابه القائم بين البربرية والمصرية القديمة يقول ألفرد بل : " ولم يمكن حتى الآن تحديد أصل هذه اللغة، كما لم يمكن تحديد أصل البربر ، فاللهجات البربرية لا تنتسب إلى اليونانية ولا إلى العربية ، ولا إلى أية لغة سامية أو هندوأوربية معروفة . وربما كان علينا، بحسب رأي اللغويين في عصرنا، أن نقرب هذه اللغة من اللغة القبطية وأن نقول بانحداره من اللغة المصرية القديمة، شأنها شأن اللغة القبطية." <sup>2</sup>

نقل الدكتور عبد الله شريط عن الباحث التونسي ، عثمان الكعاك نصا من كتابه " البربر " أراه مناسبا لدعم الفكرة القائلة بمشرقية البربر، ويبتل الآراء المشككة في ذلك . النص :

" ومعظم الباحثين يذهبون إلى أن البربر من أصل سامي أي من أبناء سام بن نوح ...فقد كانت الجزيرة العربية موطن الساميين مغشاة بالثلوج في شمالها فكانت اليمن بلاد اليمن والخير هي مهد أبناء سام الأولين مختلطين مع أولاد أعمامهم أبناء حام ، فلما

<sup>1</sup> - د ، إبراهيم أحمد العدوي : المجتمع المغربي ص 18 .  
<sup>2</sup> - ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص 47 .

انحسرت الثلوج اشتدت الحرارة وقحات البلاد وتفرق سكانها فانتقل الفرع السامي الحامي من البربر والنوبة والحبشة وقدماء المصريين إلى إفريقيا واستوطنوها ، فانفرد البربر بشمال إفريقيا والحبشة بإفريقيا الشرقية والسودان بإفريقيا الشرقية والوسطى ، وهذا ما ذهب إليه العرب ، وهو مشهور المذهب عند الأوروبيين سيما علماء الألمان.<sup>1</sup> كما يؤيد ذلك - أيضا - سرعة اعتناق البربر اللسان العربي بسرعة ملفتة بعد الفتح الإسلامي مباشرة.

لقد عاش البربر - كغيرهم من الشعوب - الحياة بنمطيتها؛ النمط الحضري القائم على الاستقرار لخدمة الأرض، واحتراف الحرف والصنائع، وإقامة القرى والمدن. وعرف هذا النمط عند فرع "البرانس" المستقرين في بعض مناطق الشمال الشرقي والوسط ، وما حاذاهما من الهضاب العليا .

أما النمط البدوي القائم على تربية الأنعام والمواشي، والحل و الترحال بها في الصحارى وبعض المناطق التلية المتاخمة لها بحثا عن الكأ والماء، مع استثمار بعض السهول والواحات زراعيًا ، فقد عرف به أغلب فرع " البتر". والنظام القبلي هو المعتمد من قبل البربر على اختلاف قبائلهم، إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور بعض الإمارات والممالك ذات النظام الأكثر رقيا بين الفينة والأخرى استجابة للتطلعات والمستجدات، أو تأثرا بمن احتكوا بهم عن طريق التجارة أو الحرب أو المجاورة من الأمم الأخرى؛ كالفينيقيين واليونان والرومان. إذ الحياة أخذ وعطاء، ولا يمكن أن يستثنى قوم من ذلك.

<sup>1</sup> - د، عبدالله اشريط : تاريخ الثقافة والآداب في المشرق والمغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط 3 / 1983، ص 100.

المعتقد الديني لشعوب المغرب، قبل الحديث عن دين المغاربة أو البربر يجب التطرق إلى ماهية الدين بإيجاز. ففي اللغة: "دانه يدينه" أي أطاعه وذلّ له، يقال: دان له أي خضع له، ودان به أي اعتقد به. والدين لله أي الحكم والخضوع له. كما يعني العادة والشأن تقول العرب: مازال ذلك ديني وديّني. والديان هو الله تعالى. وللدين في الاصطلاح تعريفات كثيرة، تختلف باختلاف معتقدات واضعيها أذكر بعض ما تضمنه كتاب الأديان للعميد عبد الرزاق محمد أسود منها:

" أنه وضع إلهي يدعو ذوي العقول باختيارهم إلى ما فيه صلاحهم في الحال وفلاحهم في المستقبل. " وأنه " إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر ويكون لها أثر في حياة هذا الكون. " وأنه " استمالة واسترضاء لقوى هي فوق البشر. "

ومنها تعريف "ماكس مولر" بأنه السعي لإدراك ما لا يدركه الإدراك، والتعبير عما لا سبيل للتعبير عنه، والجنوح إلى اللامتناهي... هو حب الله تعالى .

ثم خرج الكاتب بعد عرضه لعدد من التعريفات بالتعريف التالي:

" إن الدين هو الاعتقاد بوجود ذات غيبية علوية لها شعور واختيار. ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان اعتقاداً من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة وفي خضوع وتمجيد. " <sup>1</sup>

ولعل من التعريفات الموجزة للدين هي: " الدين هو العبادة، والعبادة عمل مزدوج، فهي عمل عقلي، به يعترف الإنسان بقوة سامية، وعمل قلبي أو انعطاف محبة يتوجه به إلى رحمة تلك القوة. " <sup>1</sup>

<sup>1</sup> - العميد عبد الرزاق محمد أسود : المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ،الدار العربية للموسوعات ، بيروت ،لبنان ط/ 1400 هـ- 1980 مج ،1 ص 19-21.

إن التدين نزعة فطرية عند الإنسان حيثما كان، وعلى أي حال كان، بدائيا كان أو مدنيا. يدين بالوثنيات والشرك حين تدلهم عليه الدروب ويتيه في ظلمات الغي والجهل. ويدين بالتوحيد حين يستهدي بالأنبياء والرسل - عليهم الصلاة والسلام - كذلك كان حال المغاربة؛ فقد عبدوا من الكواكب الشمس والقمر، دلت على ذلك النقوش الصخرية والنصب النذرية وشواهد القبور، حيث رسموا عليها الهلال والشمس والنجمة، ومثلوا الشمس بقرني الثور. وما زال أثر ذلك إلى يوم الناس هذا ماثلا في عادة وضع قرني الثور أو الكبش على سطوح البيوت حماية لها من العين والأرواح الشريرة .

وقد عثر في جنوب وهران على منقوشات صخرية تمثل ضأنا على رأسه قرص الشمس، ويمثل الإله آمون رع في الدين المصري القديم.<sup>2</sup> ويرى عثمان الكعاك أن عبادة بعض الحيوانات تختلط بالطوطمية التي هي اعتقاد الإنسان أو الجماعة أن حيوانا ما هو جدهم الأعلى الذي انحدروا منه. ولذلك يجب تقديسه واحترامه. وما زال أثر ذلك ماثلا في احترام كثير من المغاربة للحيات التي تظهر في المنازل، واعتبارها ربات لها، والتنفير من قتل البوم والقطط والحمام والترغيب في تربية السلاحف.

كما اعتقد المغاربة بوجود أرواح كالجنون في بعض العناصر الطبيعية، كالعيون والأنهار والجبال والأحجار وبعض الأشجار. وقد فرض عليهم اعتقادهم ذلك تقديس

---

<sup>1</sup> - سلطان الحريري: أدب الدعاء في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1996، ص 96.

إشراف د. عمر موسى باشا .

<sup>2</sup> - عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ، ص 30-31 .

تلك العناصر واحترامها وزيارتها وتقديم القرابين لها. وما زال ذلك السلوك التقديسي لتلك المظاهر إلى يومنا هذا، عند بعض السذج من أبناء مجتمعنا المغربي في كثير من المناطق، وبخاصة في العنصر النسوي. ومن حسن الحظ فإن ذلك يمارس على أنه عادة موروثة لا على أنه طقوس دينية.

يقول عباس الجراري عن امتزاج ديانات البربر بديانات الشعوب التي تعاملت معها: "اتخذ الشمال الإفريقي في هذا العهد آلهة مزيجية من الآلهة البربرية والآلهة الفينيقية المتأثرة بما كان يعبد في مصر وبلاد الإغريق. وقد اشتهر من آلهتهم (بعل حمون)، وهو شبيه بأمون المصري وكذلك تانيت بينيبعل، ومعناه وجه بعل وكانا يشكلان في صور بشرية وتصنع لهما التماثيل. وعند اكتشاف معبدي سوسة وقرطاج عثر على أنصاب وأحجار وأواني ومحارق تثبت أن سكان المغرب الكبير - وخاصة منهم القرطاجيين - كانوا يقدمون للآلهة قرابين بشرية وحيوانية. كذلك عثر في معبد صياغة (في بئر بورقبة قرب خليج الحمامات) على آلهة لها رأس لبؤة جالسة على أسد، كما عثر على أبو الهول ذي ضروع"<sup>1</sup>.

ومن المؤرخين الغربيين للشمال الإفريقي (الفرد بل) يقول عن هذا التمازج الديني الذي حدث في هذه المنطقة: "وينبغي ألا نغفل عن كون تبادل المعتقدات والطقوس بين الأجانب - القرطاجيون والرومان - وبين السكان الأصليين الأفارقة، كان سهلا آنذاك

---

<sup>1</sup> - عباس الجراري : الأدب المغربي ، ص 24 .

في عصور الوثنية هاتيك ، فقد كان ثم تشابه أساسي في التصور الديني بين هؤلاء  
والنك .<sup>1</sup>

وإلى جانب هذه العقيدة الوثنية غير الواضحة المعالم، فقد اعتنق البربر من  
الديانات السماوية، اليهودية بنسبة جد قليلة. " دخلت اليهودية مع الفينيقيين وبعض  
المهاجرين من اليهود ولكن تبقى اليهودية غير واضحة في القرن الأول والثاني  
الميلادي.<sup>2</sup>

أما المسيحية فقد اعتنقت بنسبة أكبر نتيجة احتلال الرومان لأغلب أراضي المغرب،  
وكنتيجة للمدارس التي أنشأوها لنشر ثقافتهم وديانتهم والقضاء على ثقافة الفينيقيين،  
التي تفاعل معها المغاربة إلى حد كبير. غير أن تلك المدارس كانت خاصة بالطبقة  
الارستقراطية من البربر. ومع ذلك فقد تخرج فيها عدد من علماء البربر، عين بعضهم  
في وظائف هامة، في بلدهم، أو في روما نفسها. نذكر منهم :

- تيكونيوس المنتقد من طرف الدوناتيين ، كان لائكيا ولكنه فقيه عالم أريب، نشر شرحا  
" للجليان " نال شهرة عظيمة، وتفسيرا للكتاب المقدس تصدى فيه بطريقة جديدة إلى  
النصوص وإلى أشتات من الكلام لم يعرف عنها الشراح شيئا قبله.

- القديس أغسطينس - أوغستان - الذي ولد في سوق اهراس سنة 364 م ، وفيها بدأ  
تعليمه ثم انتقل إلى روما وميلانو، وعاد ليتقلد مناصب هامة منها أسقف عنابه

<sup>1</sup> - الفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي ، ص 59 .  
<sup>2</sup> - د، نبيلة حسن محمد : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص 86 .

سنة 395 م. اشتهر بكتابه " مدينة الله " وكتابه " الاعترافات " دافع فيه عن المسيحية، كما اشتهر بانتقاده الشديد للدوناتيين ، وكان خطيبا من طراز عال ، فلم يتح للمسيحية أن رزقت زعيما في مرتبته قط .

- القديس الشهيد( قبريانوس) حوالي 210-258 ، أسقف قرطاجه من آباء الكنيسة، له كتاب في الرد على اليهودية والاحتجاج للمسيحية قطع رأسه في عهد (واليريانس) الإمبراطور الروماني(253-260) الذي اضطهد المسيحيين وأسر من قبل الفرس .  
- (أبليوس) المولود حوالي سنة 23 وهو أشهر شعراء وكتاب عهده. من آثاره قصة المسوخ أو الحمار الذهبي ، وديوان الأزاهير .

وقد مثل هؤلاء وغيرهم العبقرية المغربية، في شتى الميادين، والتي لم تتخلف عن عصر من العصور.

لقد كتب هؤلاء وغيرهم باللغات الأكثر شيوعا أو مقروءية، وهي اللاتينية واليونانية. يقول الأديب الشاعر أبليوس في ديوانه الأزاهير : " أعترف بأني أوثر من بين الآلات شق القصب البسيط أنظم به القصائد في جميع الأغراض الملائمة لروح الملحمة أو فيض الوجدان لمرح الملهاة أو جلال المأساة ... أنشئ في كل شيء باليونانية أم باللاتينية بنفس الأمل ونفس الحماس ونفس الأسلوب." <sup>1</sup>

هذه إشارة إلى عبقرية المغاربة في الجانب الديني والأدبي، أما عن الجانب البطولي و السياسي فقد أنجب المغرب وطنيين وحدوا بعبقريتهم بين أبناء المغرب، وخاضوا بهم حروبا من أجل تحرير بلدهم من السيطرة البونيقية والرومانية

---

<sup>1</sup> - عباس الجراري : الأدب المغربي ، ص 28-29 .



والنهوض به. من أمثال حنبعل بن ملقرط ، الذي أبلى بلاء حسنا في الحرب البونيقية الثانية، وكذا أخوه عزربعل، والشهيد ماتوس زعيم البربر ضد قرطاج في الحرب البونيقية الأولى. و ماسينيسا ت 148 م.<sup>1</sup>

وسيفاكس والقائى الكبير يوغورطه، ويوبا الأول ت47، وكذا ابنه يوبا الثاني زوج كليوباترة سيليني بنت كليوباترة الكبيرة، كان له اهتمام بالفنون والآداب ن وجمع الصور والتماثيل والنفائس، مازال الكثير منها محفوظا بمتحف الجزائر.

## الفصل الثاني : نشأة المذاهب والفرق في المشرق

---

<sup>1</sup> - عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ،تقديم ومراجعة : أبو القاسم سعد الله،محمد البشير الشنيتي،ناصر الدين سعيدوني،إبراهيم بحاز ، دار الغرب الإسلامي،ط2003،1،ص56.

أولاً : المذهب السني أو الجماعة.

ثانياً : المذهب الشيعي .

ثالثاً : المذهب الخارجي .

رابعاً : فرقة المرجئة .

---

## أولاً: المذهب السني

كانت حياة المسلمين في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هادئة -

إلى حد ما- من الخلافات الداخلية، مطمئنة إلى حسن قيادته الرشيدة رغم حداثة

عهدهم بالإسلام، وبحياة الجماعة المتكونة من قبائل وشعوب مختلفة، فقد عاشت

تلك الجماعة متحابة متآخية ، ممثلة لقوله تعالى : " محمدٌ رسولُ اللهِ والذين معه أشِدَّاءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم تراهم رُكعاً سُجداً يَبْتَغون فضلاً من الله ورضواناً." <sup>1</sup>

فشكلت بذلك قوة مذهلة دحرت الشرك والمشركين في زمن وجيز، وكونت الأمة الإسلامية النموذج " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " <sup>2</sup>

وبالتحاق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالرقيق الأعلى - وقبل مواراته التراب - بدأت الخلافات تدب على صعيد الأمة الإسلامية، بدأت - أول الأمر - بسيطة سرعان ما حسمت بالحوار المستند إلى النصوص، كخلافهم حول مكان دفن النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد رأى أهل مكة أن يدفن في مكة الوطن الأم، ورأى الأنصار أن يدفن في المدينة، دار الهجرة والنصرة، ورأت جماعة ثالثة أن يدفن في بيت المقدس حيث جده إبراهيم عليه السلام. وقد حَسَمَ الخِلافَ أبو بكر الصديق - رضي الله عنه، اعتماداً على الحديث الذي رواه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أن الأنبياء يدفنون حيث يُقْبَضُونَ " فدفنوه في المدينة المنورة. <sup>3</sup>

ثم تطورت تلك الخلافات على مر الأيام والسنين فصارت معقدة مستعصية على الحل، مثل اختلافهم في مَنْ سيخلف رسولَ الله في قيادة الأمة، وتسيير شؤونها الأساسية؛ الدينية والسياسية والحربية والاقتصادية وغيرها. وهو الخلاف الذي تطور فقسم الأمة إلى شيع وأحزاب، وأذكى بينها نار الفتن والحروب أبيد خلا لها

---

<sup>1</sup> سورة الفتح، آية: 29.  
<sup>2</sup> - سورة آل عمران، آية: 110. وتمامها " ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون "  
<sup>3</sup> - عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق، تحقيق مجدي فتحي السيد ،المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر (د ت) ،ص 23 .

خلق كثير من أبناء الأمة، كما ورثها من العداوة والبغضاء ما لا تزال آثاره<sup>1</sup> قائمة إلى أيامنا هذه، رغم محاولة كثير من أبناء الأمة المخلصين الساعين إلى توحيدها وبعث قوتها لرفع الظلم المسلط عليها، ودرء الأخطار المحدقة بها.

إن اختلاف الأمة لم يتوقف عند الجانب السياسي من حياتها، وهو الخلاف الذي كان وراءه - في أغلب الأحيان - الطامحون إلى الحكم والرئاسة، من أصحاب العصبية، بل تعداه إلى الجانب العقائدي، ولعله الخلاف الأكثر خطرا على الأمة؛ فإن يكن الخلاف السياسي قد أضعف الأمة ماديا وفوت عليها - في كثير من الأحيان - الأمن والطمأنينة، فإن اختلافها في العقيدة جر عددا من الفرق والطوائف إلى الضلال والكفر، ذلك لأن عددا كبيرا ممن كانوا وراء بعث ذلك الخلاف، وما استتبعه من جدل في العقيدة جلهم منافقون ويهود وأصحاب ملل فاسدة، يشتركون في حقدهم الشديد على الإسلام والمسلمين، ويحزنهم بقاء المسلمين أمة موحدة في عقيدتها ومناهج عملها في شتى أمور دينها ودنياها، فانتهزوا فرصة الخوض في قضايا لم يسبق الخوض فيها على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل القضاء والقدر، والجبر والاختيار، و صفات الله عز وجل. قال محمد أحمد أبو زهرة نقلا عن خطب المقرئزي: اعلم أن الله تعالى لما بعث من العرب نبيه محمدا رسولا إلى الناس جميعا، وصف لهم ربهم سبحانه وتعالى بما وصف به نفسه الكريمة، في كتابه العزيز الذي نزل به على قلبه الروح الأمين، وبما أوحى إليه ربه تعالى، فلم يسأله صلى الله عليه وسلم من العرب؛ قرويههم وبدويهم عن معنى شيء من ذلك، كما كانوا يسألونه -

صلى الله عليه وسلم - عن أمر الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك مما لله سبحانه وتعالى فيه أمرٌ ونهيٌ، وكما سألوه عن أحوال يوم القيامة والجنة والنار، إذ لو سأله إنسان منهم عن شيء من الصفات الإلهية لنقل كما نقلت الأحاديث الواردة عنه صلى الله عليه وسلم، في أحكام الحلال والحرام، وفي الترغيب والترهيب، وأحوال القيامة والملاحم والفتن.<sup>1</sup>

ثم أكد عدم ورود مساءلة المسلمين له - صلى الله عليه وسلم - في أمر تلك الصفات ولا في المتشابه من الآيات الكريمة، فيما رواه السلف الصالح من أحاديث بقوله: " ومن أمعن بالنظر في دواوين الحديث النبوي، ووقف على الآثار السلفية علم أنه لم يرو قط من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى شيء مما وصف الربُّ سبحانه وتعالى به نفسه الكريمة في القرآن الكريم، وعلى لسان نبيه، - صلى الله عليه وسلم - بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا عن الكلام في الصفات، نعم ولا فرق أحدٌ منهم بين كونها صفةً ذاتٍ أو صفةً فعلٍ، وإنما أثبتوا له تعالى صفاتٍ أزليةً من العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجلال والإكرام والجود والإنعام والعزة والعظمة، وساقوا الكلام سوقًا واحدًا.<sup>2</sup>

وقد تمكن أولئك المنافقون وأصحاب الملل من استلاب أهواء كثير من عوام المسلمين، ممن لم يتمكن الإيمان من قلوبهم بعد، ولم يُشربوا حقيقة الإسلام. أو ممن

<sup>1</sup> - محمد أحمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ، مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ،

القاهرة ، مصر (د ت) ، ص 161 .

<sup>2</sup> - المرجع السابق ، ص 162 .

أبهرتهم ثقافة أصحاب تلك المذاهب والنحل، والتي هي مزيج من فلسفات قديمة وبقايا ديانات اختلط فيها السّماويّ المحرف بالوضعيّ والأسطوريّ، غطّى زيفها حذق أصحابها للجدل والسّفسطة. من أمثال ابن السوداء، عبد الله بن سبأ الذي " كان يهوديا من صنعاء أظهر الإسلام في عهد عثمان، وأنه حاول أن يفسد على المسلمين دينهم، وبث في البلاد عقائد كثيرة ضارة..."<sup>1</sup>

لقد كان عدد الفرق والشيع المذهبية التي تمكنت من أبناء الأمة الإسلامية - أول الأمر محدودا، تمثلت في ست فرق، عند الشهرستاني هي: المعتزلة، والجبرية، و الصفاتية، والخوارج، والمرجئة، والشيعية.<sup>2</sup>

وهي عند أحمد أمين أربع فرق أو خمس، هي: الخوارج والشيعية والمرجئة، والقدرية والمعتزلة.<sup>3</sup> ثم ما لبث عددها أن تزايد حتى نيف على السبعين فرقة.

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد أنبأ عنها في الحديث الذي رواه أبو هريرة، " افتترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة، وافتترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة. "

وفي الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لياتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل، تفرق بنو إسرائيل على اثنين وسبعين ملة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة تزيد عليهم ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة. قالوا: يا رسول الله، وما الملة التي تتغلب؟ قال: " ما أنا عليه وأصحابي "<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، طبعة 11، سنة 1975، ص 110.  
<sup>2</sup> - محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق أبي محمد، محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ج 1، ص 65-155.  
<sup>3</sup> - أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 256-283.

الحديثان من ضمن الأحاديث الممثلة لبعض معجزات النبي - صلى الله عليه وسلم - لتعلقهما بالإخبار بما سيكون في مستقبل الأمة الإسلامية من فتن التمزق والصراعات، والأمر ليس بدعا، فقد ابتليت بمثل تلك الفتن أمم قبلها، ومنه يستخلص أن الصراع بين الحق والباطل، وبين الخير والشر من السنن المطردة في تاريخ البشرية.

وهذا حديث آخر يبين ما سينبثق من أصلاب بعض الرجال من منافقين، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: "بعث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من اليمن بذهبية في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل<sup>2</sup>، والرابع إما علقمة، وإما عامر بن طفيل. فقال رجل من أصحابه: كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال: "ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحا ومساء؟ قال: فقام رجل غائر العينين، مشرف الوجنتين، ناشز الجبهة، كث اللحية، مخلوق الرأس، مشمر الإزار فقال: يا رسول الله: اتق الله. قال ويلك، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله؟ قال: ثم ولى الرجل.

قال خالد بن الوليد: يا رسول الله، ألا أضرب عنقه؟ قال: لا لعله أن يكون يصلي.

---

<sup>1</sup> - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 12.  
<sup>2</sup> - وزيد الخيل الطائي هذا سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد إسلامه زيد الخير.

فقال خالد: فكم من مصل بلسانه ما ليس في قلبه؟ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم

- إني لم أومر أن أنقب قلوب الناس، ولا أن أشق بطونهم. قال: ثم نظر إليه وهو

مقفّ فقال: إنه يخرج من ضئضي<sup>1</sup> هذا قوم يتلون كتاب الله رطبا، لا يجاوز

حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وأظنه قال: لئن أدركتهم

لأقتلنهم قتل ثمود.<sup>2</sup>

إن قوله صلى الله عليه وسلم " لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد" ليبدل على

أمرين؛ الأمر الأول أن الفتنة على وشك الوقوع، والأمر الثاني هو حث

للمسلمين على حرب المنافقين وقتالهم قمعاً للفتنة وأهلها.

إن هذا الإنباء من قبله - صلى الله عليه - للمؤمنين بما سيحدث للأمة من فتن

واضطرابات لمن شأنه أن يجعل المخلصين من الأمة يحملون الأمور على محمل

الجد، فيُعدّون العدة للحدث. وذلك ما قام به الخلفاء الراشدون من بعده؛ كحروبهم

للمرتدين، ومدعي النبوة، ومانعي الزكاة وغيرهم.

ومما لا شك فيه أن حياة المسلمين على اختلاف بيئاتهم وأجناسهم ومذاهبهم ستتأثر إن

إيجاباً أو سلباً، كثيراً أو قليلاً، بما سيستجد من رؤى وأفكار - نتيجة تفاعل عدد من

الثقافات المختلفة - سيظهر ذلك على الصعيد الديني والسياسي والأدبي، وكل أنماط

التفكير عامة.

<sup>1</sup> - الضئضيء: الأصل والمعدن وكثرة النسل. الفيروز آبادي: القاموس المحيط، مطبعة مصطفى الحلبي، نصر، ط 2 / 1371 هـ - 1952 م، ج 1، ص 21.

<sup>2</sup> - الشهرستاني: الملل والنحل، ج 1، ص 33. و صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط 1، 1347 هـ - 1929 م، ج 7، ص 162-163.



و رغم بعد المغرب الإسلامي عن منشأ تلك الفرق، إلا أن بعضها سينتقل إليه، ليزاحم المذهب السني أو مذهب الجماعة- الذي تأصل في المغرب بفضل عدد من العوامل - كالمذهب الخارجي، والشيعي، وحتى بعض فروع المذهب السني، كالمذهب الحنفي ومذهب المعتزلة.

لقد أثرت تلك المذاهب في حياة المجتمعات المغربية على جميع الأصعدة حيناً من الدهر، ليتلاشى بعضها تماماً كالمذهب الشيعي والصفري، وينكمش البعض أو يتأقلم مع المذهب السني، مثل الإباضي .

إن هذا البحث سيحاول تلمس تلك الطوابع على صعيد الشعر، باعتباره أكثر الفنون تصويراً للحياة بكل أبعادها. بعد الإشارة - طبعاً - إلى نشأة تلك المذاهب في المشرق، وكيفية انتقال بعضها إلى المغرب الإسلامي.

ذكر أحمد أمين أن علياً - كرم الله وجهه - خرج من عند النبي - صلى الله عليه وسلم - في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس، يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول الله ؟ فقال : " أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده العباس رضي الله عنه وقال : أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله صلى الله عليه وسلم سيتوفى من وجعه هذا إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، فاذهب بنا إليه نسأله فيمن هذا الأمر، فإن كان فينا علمناه، وإن كان في غيرنا كلمناه فأوصى بنا. فقال علي رضي الله عنه :

أما والله لئن سألتناه فمنعناها لا يعطناها الناس بعده، وإني والله لا أسأله<sup>1</sup> .

---

<sup>1</sup> - أحمد أمين : فجر الإسلام، ص - 266 - 267 .

وذكر أن جمعا من الصحابة يرى أن عليا أفضل من أبي بكر وعمر وغيرهما، وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأي عمارا، وأبا ذر، وسلمان الفارسي، وجابر بن عبد الله، والعباس وبنيه، وأبي بن كعب، وحذيفة، وغيرهم .

إن اختلاف الناس في وجهات نظرهم فيما تقع عليه حواسهم، وتتصوره أخيلتهم أمر طبيعي، وبخاصة حين يكون موضوع النظر غيبيا ميتافيزيقيا، لأن آفاق عقول الناس تتباين اتساعا وضيقا، تبعا لأساليب تربيتهم وتعليمهم، وكلما خطوا في سبيل المدنية والحضارة، اتسعت فرجات الخلاف، فيتولد عن ذلك المذاهب الدينية، والفلسفية والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها، وهي التي تعمل على شحذ الهمم وحملها على طلب المعارف والعلوم - شرط ألا تكون وليدة الهوى - بفضل ما تستوجهه من محاورات، ومناظرات، يسعى من خلالها كل طرف إلى إقناع الآخر بصحة مذهبه واعتقاده. إذ لا علم ولا معرفة بلا حوار. يقول الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا في تعليق اختيار أفلاطون الحوار كأسلوب لتبليغ أفكاره ورؤاه :

" وقد اختار أفلاطون أسلوب الحوار لأسباب أهمها في رأينا أن الحوار جزء من تصورهِ للفلسفة، بمعنى أن الحوار عنده - كما عند أستاذه - هو الطريقة المثلى لاكتشاف الحقيقة، فالحقيقة كامنة في النفس كمون النار في الحجر، معروفة لها منذ أن كانت في عالم المثل، ثم غشيتها الغواشي، ولا سبيل إلى إظهارها إلا باحتكاك الآراء والأفكار وإخضاعها لنقد الآخرين واختبارها بما تنطوي عليه من نتائج تلزم عنها."<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - د، عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت لبنان، ط 1، 1970 ص 115.

و لقد تصدى أهل العلم من قديم الزمان لدراسة موضوعات غامضة في ذاتها، والسبيل لإدراكها ليست معبدة، وطرق فهمها مختلفة، فكل يرى ما يقع عليه نظره ويدرك ما تهديه إليه بصيرته وفكرته، ولعل الصواب يكون في مجموعها وليس في أحادها. كما ذهب إلى ذلك أفلاطون من قبل " في أن الحق لم يصبه الناس في كل وجوهه ولا أخطأوه في كل وجوهه بل أصاب كل إنسان منه جهة " <sup>1</sup>

يكون رأي الأستاذ صحيحا حين يتعلق الأمر بالمذاهب الفلسفية والاقتصادية

و الاجتماعية والسياسية. أما إن تعلق الأمر بالمذاهب الدينية، فإن الأمر

سيختلف؛ إذ الصواب حينئذ يتحقق بمدى الفهم الصحيح للنصوص الدينية

المعتمدة في استنباط الحكم، مع توخي المتواتر منها والمشهور، فيما يتعلق

بالحديث النبوي الشريف، مع تجنب التأويلات الباطلة، والفلسفات الفاسدة، التي

كانت وراء مروق كثير من الشيع والفرق الإسلامية. وهو التحري الذي روعي حق

رعايته من قبل أهل السنة والجماعة، وهي الفرقة الناجية المذكورة في الحديث

الشريف الوارد في افتراق الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة.

إن أولى الفرق الإسلامية نشأة بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

هي فرقة الشيعة، ثم فرقة الخوارج ثم فرقة المرجئة، وباعت نشأتها كان

سياسيا أول الأمر، ثم ما لبثت أن تفرعت عنها فرق عقائدية كثيرة، الأمر الذي

---

<sup>1</sup> - محمد أحمد أبو زهرة: المذاهب الإسلامية، ص 7.

يبين مدى التفاعل القائم بين ما هو سياسي، وما هو عقائدي ديني في المجتمعات الإسلامية.

**ثانياً: المذهب الشيعي وأهم فرقه**

معنى الشيعة لغة الصحب والأتباع، جاء في القاموس المحيط؛ " شيعة الرجل

بالكسر أتباعه و أنصاره، والفرقة على حدة ويقع على الواحد والاثنين والجمع

والمذكر والمؤنث، وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار اسما لهم خاصا، والجمع أشياع وشيع كعنب، وشعت بالشئ كبعته أذعته وأظهرته كأشعته وبه، والإناء ملأته فهو مشيع، وشاعكم السلام كمال عليكم السلام أو تبعكم أولا فارقمكم أو ملاكم السلام وشاعكم الله بالسلام وأشاعكم به أتبعكم أي جعله صاحبا لكم وتابعا.<sup>1</sup>

وعند ابن خلدون: "هم الصحب والأتباع، ويطلق في عرف الفقهاء المتكلمين من الخلف و السلف على أتباع عليّ و بنيه رضي الله عنهم، ومذهبهم جميعا - متفقين عليه - أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة، ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم. ويكون معصوما من الكبائر والصغائر. وأن عليا رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة، بل أكثرها موضوع، أو مطعون في طريقه، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة"<sup>2</sup>

لقد بدأت فكرة التشيع بالجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل بيته أولى أن يخلفوه، وأولى أهل البيت عمه العباس، وعليّ، ابن عمه،

<sup>1</sup> - مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ن بمصر، ط 2

1371/ هـ 1952 مج3 ص 49.

<sup>2</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، مطبعة دار القلم تونس ، ط 1 / 1949 ج 1 ص 250.

وعليّ أولى من العباس لسبق إسلامه منه ولحسن بلائه في الجهاد إلى جنب رسول  
الله صلى الله عليه وسلم مع المهاجرين الأوائل، والأنصار، فهو سيد المسلمين "   
ورث - بحكم مولده ومرباه - مناقب النبوة، ومواهب الرسالة، وبلاغة الوحي،   
وصراحة المؤمن، وبسالة المجاهد، وشرف النجار، فأجمع الناس على إجلاله،   
وكادوا يطبقون على حبه، وأهله هذه الخلال، وما حبا من سبق في الإسلام، وبلاء   
في نصرته الدين، وشرف القرابة القريبة من نبي الله - صلى الله عليه وسلم -   
والصهر والأبوة الكريمة للسبطين: الحسن، والحسين رضي الله عنهما. " <sup>1</sup>   
خطب عدي بن حاتم في " صفين " يذكر خلال الإمام علي - كرم الله وجهه - قال:   
" والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة: إنه لأعلم الناس بهما، ولئن كان إلى   
الإسلام: إنه لأخو نبي الله والرأس في الإسلام، ولئن كان إلى الزهد والعبادة:   
إنه لأظهر الناس زهدا، ولئن كان إلى العقول والنحائر: إنه لأشد الناس عقلا،   
وأكرمهم نحيزة، ولئن كان إلى الشرف والنجدة: إنه لأعظم الناس شرفا ونجدة،   
ولئن كان إلى الرضا: لقد رضي عنه المهاجرون والأنصار في شوري عمر -   
رضي الله عنه - وبابيعوه بعد عثمان، ونصروه على أصحاب الجمل وأهل الشام. " <sup>2</sup>   
أمّا عمه العباس فلم يكن من السابقين إلى الإسلام، فقد حضر غزوة بدر مع   
المشركين، ولم يسلم إلا آخرا.

لقد ازدادت فكرة التشيع لآل البيت بعد البيعة التي تمت لأبي بكر في سقيفة بني   
ساعده كحسم للخلاف الذي دار بين الأنصار والمهاجرين في أمر من الأحق

<sup>1</sup> - د، عبد الحسيب طه حميد: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، مطبعة السعادة بمصر،

ط 1388/2 هـ 1968م، ص 13.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه: أدب الشيعة، ص 15.

منهما بالخلافة. و تمت تلك البيعة في غياب علي وآله من الهاشميين،

لانشغالهم بتجهيز النبي ودفنه.

قال الإمام علي كرم الله وجهه للناس - وقد بايعوا أبا بكر - : " يا معشر

المهاجرين، الله الله ، لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى بيوتكم ودوركم،

ولا تدفعوا أهله عن مقامه في الناس وحقه، فوا لله يا معشر المهاجرين، لنحن أهل

البيت، أحق بهذا الأمر منكم، أما كان منا القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله، العالم

بالسنة، المضطلع بأعباء الرعية، والله إنه لفينا فلا تتبعوا الهوى، فتزدادوا من الحق

بعدا. "1

ويقال إن عليا وشيعته لم يبايعوا أبا بكر إلا بعد مدة ثم بايعوه إبعادا للفتنة ، وحفاظا

على وحدة الأمة ، و ساعدتهم على كبت آلهم عدل أبي بكر، وزهده ، ونبذه

للعصبيات ، ومن بعده عمر رضوان الله عليهما. فلما ولي عثمان - رضي الله عنه -

بخلقه اللين وهنت اليد المصروفة، فسندتها يد أخرى؛ تمثلت في العصبية الأموية ؛

حيث استخدم عثمان الكثير من أقاربه ولاة وحكاما، فاستبدوا بالأمر دونه، فلم

تكن أموال الجزية والخراج بمجملها تذهب إلى بيت مال المسلمين، إنما يذهب جلها

إلى أولئك الحكام . فظهرت بذلك مظاهر الثراء والبخ على عدد كبير من بني أمية.

وبذلك تمكن التيار القرشي القديم ، بزعامة أبي سفيان ، ومن سار معه من تحقيق

مطامحه على حساب المبادئ الإسلامية. " فقد وقف أبو سفيان على قبر حمزة بن

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 12

عبد المطلب، قائلاً: " رحمك الله ، يا أبا عمارة، لقد قاتلتنا على أمر صار إلينا." <sup>1</sup>

فاستيقظ لذلك ما كان في ضمائر- بعض القوم - من فتن الجاهلية، وبخاصة

بين بني أمية وبني هاشم . وعندها انبعثت الفكرة الشيعية بقوة ، ونشط لها

المخلصون من دعائها ، فظهرت الجمعيات العلانية والسرية ، في مختلف الأقاليم

.وتحقق مطمح الشيعة ، بمبايعة المسلمين لعلي كرم الله وجهه سنة 35 هـ 655م بعد

مقتل عثمان ؛ " بايعة الفقراء والمستضعفون ، وفي مقدمتهم أكثر الصحابة فقرا

لأنهم رأوا فيه الضمانة لاستمرار النهج الاجتماعي الذي شهدته شبه الجزيرة العربية ،

على يد دعاة الإسلام الأوائل ، وكي لا يعود الملامن قريش ، وأغنياؤها الذين التحقوا

بالإسلام ، عندما لم يجدوا طريقا لمقاومته ، للإمساك بالسلطة ثانية تحت راية الدين

الجديد" <sup>2</sup> .

لقد احتدم الصراع ، واشتد بين الهاشميين وشيعتهم ، وبين الأمويين وأنصارهم،

وكثررت الفتن والهرج، وأشعلت نار حروب طاحنة بين الفريقين، فني فيها خلق كثير.

كما أدت تلك الفتن و الحروب إلى انبثاق شيع وأحزاب أخرى على صعيد الأمة ؛

كحزب الخوارج ، و فرقة المرجئة.

وقد أودى ذلك الصراع إلى مقتل الإمام علي كرم الله وجهه غدرا عام 40هـ - 660 م

ويعود الأمويون إلى السلطة، بعد عام من ذلك. بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وبذلك

انبعثت الأرستقراطية من جديد، ويترجع العدل.

<sup>1</sup> محمد أمين أبو جهر: الإسماعليون بين الاعتزال والتشيع، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط 2 / 2006، ص 12.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه 15.



لعل تأخر انعقاد البيعة للإمام علي كرم الله وجهه، هو السبب المباشر الذي جعل فرق الشيعة، على اختلافها تعتقد بمبدأ الوصاية و التعيين في الإمامة، وترفض فكرة المبايعة ، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده - كرم الله وجهه - وإن خرجت فبظلم من غيره، أو بتقية من عنده ، وقالوا: " ليست الإمامة قضية مصالحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يجوز للرسول عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله." <sup>1</sup> وقد اجتهد الشيعة - على اختلاف فرقهم - في تأويل النصوص، واختلاق أخرى، وفق معتقداتهم تلك.

### الفرق الأساسية للشيعة

ليس ثمة إجماع بين الدارسين حول عدد فرق الشيعة، ولا في تفرعاتها، فابن خلدون ذكر أربع فرق هي:

الإمامية : وقال إنهم يتبرؤون من أبي بكر وعمر- رضي الله عنهما - ، ويغصون <sup>2</sup> من قدرهما .

الزيدية: هؤلاء أقرب إلى أهل السنة، لأنهم لا ينكرون إمامة أبي بكر وعمر؛ إذ في مذهبهم تجوز إمامة المفضل مع وجود الأفضل، ولإمامة عندهم في أبناء علي من فاطمة رضوان الله عليها .

الكيسانية: أتباع كيسان مولى الإمام علي - كرم الله وجهه - وقيل تلمذ لمحمد

<sup>1</sup> - الشهرستاني : الملل والنحل ، ص 155.

<sup>2</sup> - غمصه : كضرب وسمع وفرح احتقره ،كاغتمصه عابه وتهاون بحقه ، القاموس المحيط، ج 2 ص 322.

ابن الحنفية ، ويعتقدون في الإمام أمورا فوق حده، كالإحاطة بالعلوم كلها.

**فرق الغلاة :** وهم فرق كثيرة يؤلهون الأئمة، ويؤمنون بالتناسخ ، ومنهم من يعتقد عدم موت الإمام.<sup>1</sup>

أما الشهرستاني الذي اعتمده ابن خلون كمصدر أساسي في حديثه عن فرق الشيعة ، فقد ذكر من فرق الشيعة خمسا هي :

**1 - الكيسانية :** وقد تشعبت إلى أربع فرق كلهم حيارى تائهون ، قلسوا الدين حتى جعلوه ماثلا في طاعة الإمام ، فطاعته تغنيهم عن القيام بفرائض الدين وسننه، كما يؤمنون بالتناسخ و بالحلول، والرجعة. وفرقهم هي ؛ المختارية ، والهاشمية، والبيانية والرزامية.

**2 - الزيدية:** نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي اله عنهم - وهم يرون الإمامة في أبناء فاطمة، ويرون أن كل فاطمي عالم، زاهد، شجاع خرج بالإمامة، فهو إمام واجب الطاعة، سواء كان من أبناء الحسن أو من أبناء الحسين. كما يجيزون خروج إمامين في قطرين مختلفين في زمن واحد. وهم ثلاث فرق هي:

- الجار ودقي : أصحاب أبي الجار ود زياد بن أبي زياد، ويقولون بوصاية النبي

---

<sup>1</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ج 1 ص 250-255 .

- صلى الله عليه وسلم - لعلي رضي الله عنه بالوصف دون التسمية، فقصر الناس عن معرفة الوصف، والموصوف، فعينوا أبا بكر، فكفروا بذلك. و يخالفهم أبو الجار و د في أمر التكفير هذا.

- السليمانية : نسبة إلى سليمان بن جرير ، وهؤلاء يرون الإمامة شورى بين المسلمين ، ويصح انعقادها بعقد رجلين من خيار المسلمين، وتصح إمامة المفضول مع وجود الأفضل. ويرون بيعة المسلمين للشيخين أبي بكر وعمر، خطأ اجتهاديا لا يؤدي إلى الكفر، أما عثمان - رضي الله عنه - فقد طعنوا فيه للأحداث التي أحدثها ، فكفروه ، وكفروا عائشة ، والزبير ، وطلحة بإقدامهم على قتال علي - رضي الله عنه ، كما طعنوا في فرق الرافضة، لأمرين أحدثوهما لشيعتهم ، الأول: قولهم بالبداء، كذبا على الله تعالى ، فهم يفسرون لأتباعهم عدم وقوع ما أخبروهم به من أمور الغيب - كذبا - بتراجعه - عز وجل - عما أراه.

والثاني: التقية، حيلة ابتدعوها، لتعليل أقوالهم وأفعالهم الباطلة أمام الرأي العام، حين يكشف ضلالاتهم .

- الصالحية والبتيرية : فالصالحية نسبة إلى الحسن بن صالح بن حي ، والبتيرية نسبة إلى كثير النوى الأبتير، وهما متفقان في المذهب مع السليمانية ، ويختلفون عنها في أمر عثمان - رضي الله عنه - أكافر، أم مؤمن؟ فقالوا: من ينظر إلى الأخبار الواردة فيه كونه من المبشرين العشرة بالجنة، فهو صحيح الإيمان والإسلام، كونه من أهل الجنة، و من ينظر إلى ما أحدثه من أمور لا توافق منهج سابقه في الإمامة - من لين ، و تمكين

لعشيرته ، من السلطة ، و أمور الأمة دون سواهم - ، يحكم بكفره ، - قالوا - فتحيرنا في أمره ، وتوقفنا في حاله ، ووكلناه إلى أحكم الحاكمين .

**3 - الإمامية :** هم القائلون بإمامة علي - رضي الله عنه - بالنص والتعيين الصريحين ، والإمامة عندهم ركن الدين ، فهي الجامعة للأمة ، ولا أمة من غير اجتماع ، ومنه لا يجوز لنبي ترك الأمة هملاً من غير إمام يجمع أمرها ، وقد عين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - علياً ، تعريضا في مواضع ، وتصريحا في أخرى . فمن التعريض ، بعثه لأبي بكر ، - رضي الله عنه - لقراءة سورة براءة على الناس في المشهد ثم استبدله بعليّ - رضي الله عنه - لقراءة السورة ، وقال - صلى الله عليه وسلم - : " نزل علي جبريل - عليه السلام - فقال : يبلغه رجل منك " ، أو قال من قومك .<sup>1</sup> ويرون من التعريض - أيضا - أنه - صلى الله عليه وسلم - أمر على الشيخين ، أبي بكر وعمر ، في البعوث ، عمرو بن العاص في بعث ، وأسامة بن زيد في بعث . ولم يؤمر على علي أحدا ، فهو مقدم عليهما .

وأما تصريحاته - صلى الله عليه وسلم - بتقديم علي فكثيرة ، منها هذا الحديث الذي يعود إلى بداية الإسلام يوم كان غريبا ، قال صلى الله عليه وسلم :  
" من الذي يبايعني على ماله ؟ " فبايعته جماعة ، ثم قال من الذي يبايعني على روحه وهو وصيي وولي هذا الأمر من بعدي ؟ " فلم يبايعه أحد ، حتى مد أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه - يده إليه ، فبايعه على روحه ، ووفى بذلك ، حتى

<sup>1</sup> - الشهرستاني : الملل والنحل ص 169 .

كانت قريش تعير أبا طالب: أنه أمر عليك ابنك. وكذلك الحديث الذي قاله - صلى الله عليه وسلم - في "غدير خم" وهذا نصه " من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار. ألا هل بلغت: ثلاثاً."<sup>1</sup>

وكذلك هذا الحديث الذي رواه ابن ماجه، وأحمد " أقضاكم علي " وتمامه " أرحم أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم في دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان، وأقضاهم علي بن أبي طالب..."<sup>2</sup>

هذه بعض من النصوص التي تعتمدها الإمامية للاحتجاج لحق الإمام في الخلافة، وأولويته من غيره.

وقد تفرعت الإمامية، واختلفت أسماؤها وعددها من كاتب لآخر، فصاحب الفرق بين الفرق، عدد منها خمس عشرة فرقة ، أما صاحب الملل والنحل فأشار إلى " أن اختلافاتهم أكثر من اختلافات الفرق كلها، حتى قال بعضهم : إن نيفا وسبعين فرقة من الفرق المذكورة في الخبر هو في الشيعة خاصة "<sup>3</sup> ثم ذكر أن هذه الفرقة انقسمت إلى سبع فرق هي: الباقرية والجعفرية الواقفة أتباع محمد الباقر بن علي زين العابدين، وابنه جعفر الصادق. قالوا بإمامتهما، وإمامة والدهما، ومن أتباع هذه الفرقة من توقف بالإمامة عند واحد منهما فما ساقها في ولده، ومنهم من أوقفها على الباقر وقالوا برجعته، وهو ورع زاهد ، غزير العلم،

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 170

<sup>2</sup> - المصدر نفسه ، ص 171.

<sup>3</sup> - الصدر نفسه، ص 172

كامل الأدب ، حكيم أقام بالمدينة مدة لم ينازع الإمامة أحداً، تبرأ مما كان ينسبه إليه بعض الغلاة ، ولعنهم ، كما تبرأ مما ادعاه الرافضة من القول بالغيب، والرجعة ، والبداء، والتناسخ ، وغير ذلك من حماقاتهم من حكمته قوله: " إن الله تعالى أراد بنا شيئاً، وأراد منا شيئاً، فما أراده بنا: طواه عنا، وما أراده منا: أظهره لنا، فما بالناس نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا؟ " <sup>1</sup>

وقد تشظت الإمامية إلى فرق كثيرة، وعلى مذاهب شتى منها:

الناووسية : نسبة إلى رجل يقال له ناووس، أو إلى بلدة (ناوسا) يقولون بحياة لإمام الصادق، وأنه لن يموت حتى يظهر، ويظهر الله أمره، وهو القائم المهدي.

الأفطحية : يقولون بانتقال الإمامة من الصادق إلى ابنه عبد الله الأفطح، أسن أبناء الصادق. ويزعمون أن الإمام الصادق قال: إن الإمامة في أكبر أبناء الإمام.

الشُمَيْطِيَّة : نسبة إلى يحيى بن أبي شُمَيْط ، ويزعمون أن جعفرًا قال لهم إن اسم إمامكم كاسم نبيكم ، يريدون بذلك إمامة ابنه محمد .

الإسماعيلية الواقفة : قالوا إن جعفر نصب ابنه إسماعيل في حياته فلما مات إسماعيل في حياة أبيه انتقلت الخلافة إلى محمد بن إسماعيل.

الموسوية والمفضلية : قال أصحابها بإمامة جعفر، ومن بعده ساقوها إلى ابنه موسى، بنص؛ قال الصادق لبعض أصحابه : سابعكم قائمكم، وقيل صاحبكم قائمكم ، ألا وهو

سمي صاحب التوراة. وزعموا أنه حي لم يموت. <sup>2</sup>

يقول الشهرستاني : " ولما رأت الشيعة أن أولاد الصادق على تفرق: فمن

<sup>1</sup> - المصدر السابق ، ص 174.

<sup>2</sup> - عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص 48.

ميت في حال حياة أبيه، ولم يعقب، ومن مختلف في موته، ومن قائم بعد موته مدة يسيرة، ومن ميت غير معقب، وكان موسى هو الذي تولى الأمر بعد أبيه رجعوا إليه واجتمعوا إليه " 1

الإثنا عشرية: الذين قطعوا بموت موسى الكاظم بن جعفر الصادق ، وسموا قطيعة ، جعلوا الإمامة من بعده في أولاده، فبعد موسى الكاظم ، ولده علي الرضي، ثم محمد التقي، ثم علي بن محمد التقي، ثم الحسن العسكري الزكي، ثم ابنه محمد القائم المنتظر ، وهو الثاني عشر.

لقد عاش أصحاب هذه الفرقة خلافات حادة، بينهم في أمر وحال، كل واحد من هؤلاء الأئمة الإثنا عشر. مزقتهم شر ممزق. ويكفي دليلاً على ذلك، أن القائلين منهم بإمامة الحسن افترقوا بعد موته إلى إحدى عشر فرقة، كل فرقة ترى في الحسن غير ما تراه الفرق الأخرى. 2

#### 4 - الفرق الغالية :

أصحاب هذه الفرق، غالوا في حق أئمتهم، فأخرجوهم عن دائرة البشر وأضافوا عليهم بعض الصفات الإلهية، ومنشأ عقائدهم الفاسدة هذه ؛ من حيلولة، وتناسخ ،

1 - الشهرستاني : الملل والنحل ص176.

2 - الشهرستاني : الملل والنحل ، ص 180—177 .

اليهودية، والنصرانية، فقد شبهت اليهود الخالق بالخلق، وشبهت النصارى الخلق بالخالق. وتتمثل بدع الغلاة في :

- التشبيه : ويسمى القائلون به المُشَبَّهة ؛ وهم صنفان: صنف شبهوا الله عز وجل بالذوات المخلوقة، وصنف شبهوا صفاته بصفات غيره، وكلا الصنفين مفترق إلى أصناف .

- الرجعة : " عقيدة عرفها الإنسان في عصوره الأولى ... قالت بها اليهود في نبي الله إلياس وغيره ، والنصرانية في عيسى بن مريم. وفي البخاري : " والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية. " فلما أسلم ابن سبأ قال بها في محمد - صلى الله عليه وسلم - ثم نقلها إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد موته فكان يقول : لو أتيتموني بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.<sup>1</sup>

- التناسخ: انتقال النفس الناطقة من بدن إلى بدن آخر، وينكر التناسخية المعاد الجسماني وعندهم أن النفوس الناطقة إنما تبقى مجردة عن الأبدان إذا كانت كاملة بحيث لا يبقى شيء من كمالاتها بالقوة فتصير ظاهرة عن جميع العلائق البدنية وتصل إلى عالم القدس...، ويسمى التناسخية تعلق روح إنسان ببدن إنسان نسخاً، وببدن حيوان مسخاً، وبجسم نباتي فسخاً، وبجسم جمادي رسخاً. والنصوص القاطعة من الكتاب والسنة ضد

<sup>1</sup> - د. عبد الحسيب طه حميدة: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، مطبعة السعادة بمصر، ط 2/ 1388 هـ - 1968 م، ص 104.



التناسخ.. والقول بالتناسخ كان في غلاة الشيعة عند الجناحية والخطابية وفي كثير من الفلاسفة الغنوصية عند الهنود خصوصا.<sup>1</sup>

وفرق الغلاة كثيرة، تختلف أسماؤها من بلد إلى بلد ، أذكر منها :

- السبئية : أتباع عبد الله بن سبأ، الذي نفاه علي - كرم الله وجهه - إلى المدائن، لزعمه عليًا إلهًا ، وهو الذي أشاع في أتباعه حياة علي - كرم الله وجهه - بعد مقتله، وأن الرعد صوته، والبرق تبسمه.

ويعد ابن سبأ هذا أكبر من أفسد على الشيعة عقائدهم، وأقنعهم بعدد من الترهات، التي لا يقبلها عقلٌ ، كالتناسخ ، والغيبة، والحلول، وغيرها من البدع .

- الكاملية : أصحاب أبي كامل، كفر جميع الصحابة - رضوان الله عليهم - بتركهم بيعة علي - كرم الله وجهه - ، كما طعن في علي - أيضا - لسكوته عن حقه. ومن معتقده في الإمامة أنها نور يتناسخ من شخص إلى شخص، وقد تناسخ الإمامة إلى نبوة. وقد قال بتناسخ الأرواح عند الموت.

- العلبائية : أصحاب العلباء بن ذراع الدوسي، من غلوه الفظيع أنه يفضل عليا على النبي - صلى الله عليه وسلم - وتسمى هذه الفرقة " الذمية " وباطل هذه الفرقة كثير لا خير في التفصيل فيه.

- المغيرية : أصحاب المغيرة بن سعيد البجلي ، ادعى لنفسه الإمامة ، بعد محمد النفس الزكية، كما ادعى النبوة ، واستحل المحارم ، واخلق كثيرا من الأساطير المتعلقة بخلق الكون .<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - د. عبد المنعم الحفني : المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي ، ط 3، 1420 هـ / 2000م، ص 222.  
<sup>2</sup> - المصدر السابق ص 183 - 184.

- المنصورية: نسبة إلى أبي منصور العجلي، ادعى لنفسه الإمامة، ثم النبوة، وزعم أنه عرج به إلى السماء، كما قال أن عليا هو الكسف الساقط من السماء. سما خبره إلى هشام بن عبد الملك، فقتله صلبا.

- الخطابية : نسبة إلى أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، عزا نفسه إلى جعفر بن محمد الصادق، فلما علم الصادق غلوه تبرأ منه واعنه. من بدعه أن الأئمة أنبياء ثم آلهة، وأن جعفر هو الإله في زمانه، وفضل بعض أصحابه على جبريل ومكائيل - عليهما السلام - ، وقد انقسمت إلى عدة فرق.

- الكياليّة : نسبة إلى أحمد بن الكيال، تبرأ منه أتباعه لما وقفوا على بدعه، ولعنوه ادعى هو الآخر الإمامة، فقتل لذلك ، من قبل بعض أتباعه. ترك عددا من المقالات، في العوالم الثلاثة؛ العالم العلوي، والعالم الأدنى، والعالم الإنساني. وهي مقالات قائمة على الوهم لا يقبلها عقل.

- الهاشمية: أصحاب الهشامين، هشام بن الحكم، له مقالة في التشبيه، وهشام بن سالم الجواليقي، ذهب في التشبيه على نهج صاحبه، كلاهما أفرط في التشبيه، وفي تأليه علي - كرم الله وجهه - ، كما خاضا في قضايا غيبية، لا يستفاد من الخوض فيها سوى الكفر والعياذ بالله.

- النعمانية: أصحاب محمد بن النعمان، الملقب بشيطان الطاق ، وتسمى فرقته كذلك بالشيطنانية ، هو تلميذ الباقر محمد بن علي بن الحسين . وهو من المشبهة . صنف كتبا

للشيعة منها، " افعل لم فعلت " و"افعل لا تفعل"، وذكر فيها أن كبار الفرق أربعة هي :  
القدرية، والخوارج، والعامية، والشيعة.<sup>1</sup>

## 5- الإسماعيلية:

الإسماعليون شيعة ، قالوا بإمامة إسماعيل بالنص من أبيه جعفر ، ولئن مات قبل أبيه ، فالنص يجريها في عقبه، معتمدهم في ذلك وصية موسى لأخيه هارون - عليهما السلام - ، إذ جرت في عقبه وإن مات هارون قبل موسى. كذلك انتقلت الإمامة إلى محمد بن إسماعيل الكتوم، فكان أول الأئمة المستورين، والتستر للإمام الذي ليس بذئ الشوكة والعصبية جائز، أما دعواته فيظهرون إقامة للحجة. حتى إذا قوي أعلن إمامته. ساقوا الخلافة بعده إلى ابنه جعفر الصادق، ثم إلى ابنه محمد الحبيب. وهو آخر الأئمة المستورين. جاء بعده ابنه عبيد الله المهدي الذي أظهر دعوته في قبائل كتامة ، بجيجل وما جاورها من قبائل بلاد المغرب داعيئه أبو عبد الله الشيعي، قضى على الرستميين في الجزائر، وعلى الأغالبة في تونس، وعلى الأدارسة، والمدراريين في المغرب الأقصى . فتأسست بذلك أول دولة شيعية إسماعيلية ، كان إمامها، بل أميرها عبيد الله المهدي ، الذي ظل زمنا متسترا، خائفا من بطش العباسيين، ففر متخفيا من المشرق إلى المغرب، حيث اكتشف أمره، وسجن في سجلماسة من قبل أميرها اليعس بن مدرار ، غير أن تمكن داعيته أبي عبد الله الشيعي من المغرب ، - كما سبقت الإشارة- سهل عملية تحريره من السجن ، فبويع أميرا للمؤمنين في المغرب كله.

<sup>1</sup> - المصدر السابق ص 193.

ولهؤلاء أسماء و ألقاب منها : الباطنية ، لقولهم : بأن لكل ظاهر باطنا، ولكل تنزيل  
تأويلا. و يسمون بالعراق : القرامطة والمزدكية، وبخراسان يسمون: التعليمية ،  
والملحة. و عقيدتهم قائمة على فلسفات متعددة الأصول، متباينة المقاصد والغايات؛  
ناقشوا قضايا الدين والعقيدة، كما لو أنها قضايا فلسفية. ولا تصلح كل قضايا الدين  
والعقيدة بأن تناقش وفق منطق الفلاسفة.

يقول محمد أمين أبو جوهر: " آمن الإسماعليون بسيادة العقل ، وبإمكانية استيعابه الكون  
. كما آمنوا بالجدلية باعتبارها أسلوب الوصول إلى الحقيقة . " <sup>1</sup>

لا يمكن إنكار دور العقل في القيادة إلى الحقائق العلمية في شتى فروع العلم ، إلا أن  
ذلك الدور يتعطل في بعض قضايا الدين والعقيدة، وبخاصة ما تعلق منها بأمر الغيب  
، وأسرار الخلق وحتى بعض ظواهر الكون. يظهر اعتمادهم على العقل في الحيل  
التي اعتمدها في استقطاب الناس ، واصطيادهم وهي : " التفرس، و التأسيس ،  
والتشكيك ، والتعليق ، والربط ، والتدليس ، والتأسيس ، والمواثيق بالإيمان والعهود  
، وآخرها الخلع والسلخ." <sup>2</sup>

لا يشك أحد في أن مثل هذا المنهج سيكون شديد الفعالية – خصوصا – وقد تولاه دعاة  
تضلعوا في المنطق والفلسفة والجدل، وكانت لهم مدارس خاصة بتكوين دعائهم.

---

<sup>1</sup> – محمد أمين أبو جوهر : الإسماعليون بين الاعتزال والتشيع ص 64.  
<sup>2</sup> – عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، ص 240. لقد استفاد عبد القاهر البغدادي في شرح تلك الحيل في كتابه  
هذا. انظر الصفحات: 240-250.

ذكرت أميرة الشيخ فرحات : " أن الإمام الرضي هو الذي أوعز إلى الداعية الكبير أبي عبد الله الشيعي ليلتحق بمدرسة ابن حوشب في اليمن ويتلقى علوم الدعوة عليه ثم عهد إليه ابن حوشب بإقامة الدعوة في المغرب".<sup>1</sup>

إلى جانب معرفتهم بضلالات أصحاب الأهواء، و الديانات المحرفة فاستغلوا بساطة الناس ومحبتهم لآل البيت فبنوا فيهم كثيرا من الضلالات. كما غالوا في تأول النصوص، و أحكام الشريعة، فاستباحوا المحرمات، وهوئوه ا على الناس، لذلك اتهموا بالكفر، و الإلحاد.

ونظرا لكثرة بدع الشيعة وافتراءاتهم على اختلاف فرقهم، ذهب أحمد أمين إلى أن التشيع مذهب غايته إفساد الإسلام . فقال :

" والحق أن التشيع كان مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية، و زرادشتية<sup>(2)</sup> وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته . كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستارا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم..."<sup>3</sup>

وتجنبنا للغلو والتعميم أقول: يجب استثناء التشيع الفطري البريء، الناشئ عن محبة آل البيت – رضوان الله عليهم – والتعاطف معهم لما أصابهم على أيدي أعدائهم،

<sup>1</sup> – أميرة الشيخ فرحات : المختار في عيون المعارف والأخبار، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، ط 2، 1424 هـ - 2003م ج8، ص329.

<sup>2</sup> – ديانة مجوسية فارسية تنسب إلى زرادشت، ظهر حوالي منتصف القرن السابع (ق م) زعم أن للعالم الإهين؛ إله النور خالق كل خير، وإله الظلمة خالق كل شر، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص حسب أعماله فإما النعيم وإما الجحيم، والنار مقدسة طاهرة مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد في كل مكان. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف القاهرة، ص 79.

<sup>3</sup> – أحمد أمين: فجر الإسلام، ص 276.

من غدر وتقتيل وتنكيل. أما التشيع المشبع بالديانات المحرفة، والأهواء الفاسدة فخليق  
بوصف أحمد أمين.

### ثالثا: المذهب الخارجي وأهم فرقه

يقول الشهرستاني في معنى الخوارج : " كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان ، والأئمة في كل زمان ".<sup>1</sup>

ويذكر أحمد أمين أن البعض يرى أنها مشتقة من الخروج في سبيل الله، أخذا من قوله تعالى : " ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورا رحيفا."<sup>2</sup> ومن أسمائهم ، الشراة ، أي الذين باعوا أنفسهم لله ، ومن أسمائهم كذلك المحكمة ، لقولهم " لا حكم إلا لله."<sup>3</sup>

انشق هذا الحزب عن جيش الإمام علي - كرم الله وجهه - في حربه ضد معاوية بن أبي سفيان، إثر قبول الإمام فكرة الاحتكام إلى كتاب الله ؛ الفكرة التي احتال بها معاوية في موقعة "صفين" اتقاء للهزيمة التي لاحت له بوادرها. هذه الفكرة قصمت قوة الجيش المشارف على النصر إلى نصفين، بل إلى أنصاف، نصف يطالب بقبول الفكرة حقنا لدماء المسلمين. وعن هؤلاء يقول الشهرستاني:

" اعلم أن أول من خرج على أمير المؤمنين " علي " - رضي الله عنه - جماعة ممن كان معه في حرب صفين، وأشدهم خروجا عليه ومروقا من الدين: الأشعث بن قيس الكندي ، ومسعر بن فدك التميمي، وزيد بن حصين الطائي، حين قالوا : " القوم يدعوننا إلى كتاب الله ، وأنت تدعوننا إلى السيف " ... حتى قال: " أنا أعلم بما في كتاب الله ، انفروا إلى بقية الأحزاب، انفروا إلى من يقول : كذب الله ورسوله ، وأنتم تقولون :

<sup>1</sup> - الشهرستاني: الملل والنحل، ص 129.

<sup>2</sup> - سورة النساء، آية 100

<sup>3</sup> - أحمد أمين: فجر الإسلام ، ص 275.

صدق الله ورسوله". قالوا : لترجعن " الأشتري " عن قتال المسلمين، وإلا فعلنا بك مثل ما فعلنا بعثمان، فاضطر إلى رد الأشتري بعد أن هزم الجمع، وولوا مدبرين، وما بقي منهم إلا شذمة قليلة فيهم حشاشة قوة، فامتثل الأشتري.<sup>1</sup>

ونصف رافض لفكرة التحكيم، لعلمهم أنها مجرد حيلة من معاوية، وهؤلاء هم المحكمة الأولى، انشقوا عن الإمام - رضي الله عنه - لما قبل التحكيم، وكان عددهم اثني عشر ألفاً، انحازوا إلى بلدة حروراء، بضواحي الكوفة، وكان زعيمهم يومئذ عبد الله بن الكواء، وشيخ بن الربيعي. خرج إليهم الإمام وناظرهم، فتاب إلى رشده زعيمهم، عبد الله بن الكواء وعشرة من الفرسان، وسار غيرهم إلى النهروان، فخرج الإمام لقتالهم وناظرهم ثانية، فتاب منهم يوم ذاك ثمانية آلاف، فاستأمنوه فأمنهم وأمرهم باعتزاله، وانفرد منهم أربعة آلاف بقتاله. فقال لأصحابه :  
" قاتلوهم، فو الذي نفسي بيده لا يقتل منا عشرة ولا ينجوا منهم عشرة ". وانجلت المعركة عن مقتل تسعة من أصحابه، وما نجا من الخوارج إلا تسعة أنفس.<sup>2</sup>  
فرق الخوارج كثيرة، ذكر منها الشهرستاني سبع فرق، وصفها بالكبيرة، قال :  
" وكبار الفرق منهم : المحكمة، والأزارقة، والنجدات، والبيهسية، والعجاردة والثعالبة، والإباضية، والصفيرية، والباقون فروعهم ".<sup>3</sup>

أما عبد القاهر البغدادي فقال إن فرق الخوارج عشرون فرقة، بزيادة اثنتي عشرة فرقة، وقد يفسر هذا الفارق باعتباره بعض الفروع أصولاً، كما أدمج بين فروع

<sup>1</sup> — عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 56.

<sup>2</sup> — المصدر نفسه، ص 158.

<sup>3</sup> — الشهرستاني: الملل والنحل، ص 129.



فرقتي : العجاردة والثعالبة، وانفرد بذكر الشمراخية، والشبيبية، والإبراهيمية ،  
والواقفة. وجميعها - تقريبا - منسوبة إلى روادها ، أو إلى مؤسسيها أو مفرعيها،  
كما سيأتي.

وقد اختلف الناس في تحديد الأمور الجامعة بين فرق الخوارج، فقال الشهرستاني:  
" ويجمعهم: القول بالتبري من عثمان وعلي - رضي الله عنهما - ويقدمون ذلك على  
كل طاعة ، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك ويكفرون أصحاب الكبائر، ويرون  
الخروج على الإمام إذا خالف السنة : حقا واجبا."<sup>1</sup>

أما عبد القاهر البغدادي فأورد في الأمر رأيين، نسب أحدهما إلى الكعبي، قال :  
" ... أن الذي يجمع الخوارج - على اختلاف مذاهبهما - إكفار علي ، وعثمان ،  
والحكيمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضي بتحكيم الحكيمين ، والإكفار بارتكاب  
الذنوب ، ووجوب الخروج على الإمام الجائر."<sup>2</sup>

وعن الرأي الثاني قال " : وقال شيخنا أبو الحسن : الذي يجمعها إكفار علي، وعثمان ،  
وأصحاب الجمل ، والحكيمين ، ومن رضي بالتحكيم ، وصوب الحكيمين أو أحدهما ،  
والخروج على السلطان الجائر.

[ وقد رجح رأي أبي الحسن لموافقه واقع تلك الفرق فقال ] : والصواب ما حكاه شيخنا

أبو الحسن عنهم، وقد أخطأ الكعبي في دعواه إجماع الخوارج على تكفير مرتكبي

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 130.

<sup>2</sup> - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص 55 .

الذنوب منهم. وذلك أن النجدات من الخوارج لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقيهم.<sup>1</sup>

**أهم فرق الخوارج :** فرق الخوارج كثيرة، لأنها تمثل في الغالب العام مواقف شخصية، فتنسب إليها منها:

## 1- المحكمة<sup>2</sup>:

هم الذين خرجوا على الإمام يوم صفين، لرفضهم فكرة التحكيم التي قبلها، وهي عندهم خطأ، ولأن التحكيم يعني الشك في حق علي - رضي الله عنه - في الإمامة، وقد تمت بيعته من قبل أغلبية المسلمين وجل الصحابة - رضوان الله عليهم - . كما يعني التحكيم - أيضا - جعل معاوية في مستوى الإمام علي في مشروعية طلبه الخلافة، وذلك محال. وسموا بالمحكمة لقولهم لا حكم إلا لله. وقيل أن أول من تلفظ بها، رجل من تميم يقال له : الحجاج بن عبيد الله، لما سمع بأمر الحكمين قال أتحكم في دين الله ؟ لا حكم إلا لله، فلنحكم بما حكم الله في القرآن.<sup>3</sup>

ومذهبهم قائم على إكفار علي، وعثمان، وأصحاب الجمل، ومعاوية، وأصحابه والحكمين، ومن رضي بالتحكيم، و إكفار كل ذي ذنب ومعصية.

قيل أن أول سيف سل من سيوف الخوارج، سيف عروة بن أديّة، أقبل على الأشعث بن قيس - حين تناهي إليه خبر التحكيم - فقال : " ما هذه الدنيا يا أشعث، وما هذا التحكيم ؟ أشطر أحدكم أوثق من شرط الله تعالى ؟! ثم شهر السيف والأشعث مولى

<sup>1</sup> - المصدر السابق (الفرق بين الفرق، ص 55.

<sup>2</sup> - الشهرستاني : الملل والنحل، ص130

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ص132.

، فضرب به عجز البغلة ، فشبت البغلة ، فنفرت اليمانية، فلما رأى ذلك الأحنف: مشى هو وأصحابه إلى الأشعث، فسألوه الصبح ، ففعل." <sup>1</sup>

وقد كان من بين التسعة الناجين يوم النهروان ، بقي إلى أيام معاوية ، ثم أتى زياد بن أبيه ومعه مولى له ، فسأله زياد عن أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما- فقال فيهما خيرا، وسأله عن أمير المؤمنين " علي " - رضي الله عنه - فقال :كنت أتولاه إلى أن حُكّم الحكمين ثم تيرأت منه بعد ذلك، وشهد عليه بالكفر، وسأله عن معاوية فسبه سبا قبيحا، ثم سأله عن نفسه، فقال: أولك لربيبة، وأخرك لدعوة، وأنت فيما بينهما بعد عاص ربك ، فأمر زياد بضرب عنقه. ثم دعا مولاه، فقال له: صف لي أمره وأصدق فقال أأظن أم أختصر؟ فقال : بل اختصر ، فقال : ما أتيتك بطعام في نهار قط، ولا فرشت له فراشا بليل قط هذه معاملته واجتهاده، وذاك خبثه واعتقاده. <sup>2</sup>

## 2 - الأزارقة :

أصحاب أبي راشد نافع بن الأزرق ، خرج بهم من البصرة إلى الأهواز فغلبوا عليها وعلى ما وراءها من بلدان فارس وكرمان، في أيام عبد الله بن الزبير. لم تكن للخوارج فرقة أكثر عددا ولا أشد شوكة وبأسا من الأزارقة ، هزموا أعدادا من جيوش عبد الله بن الزبير، فلما استعصى أمرهم، كتب ابن الزبير من مكة إلى المهلب بن أبي صفرة، وهو يومئذ بخراسان فانتخب من جندها عشرة آلاف، كما انضم إليه قومه من الأزدي، فخرج إليهم في عشرين ألفا. وما انتهى من حربهم إلا بعد

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص132

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 133.

تسع عشرة سنة، بعضها في زمن عبد الله بن الزبير وبعضها في زمن عبد الملك بن مروان.

- من أمرائهم بعد نافع بن الأزرق - الذي مات قبل خروج المهلب إليهم وقيل قتل في أول معركة مع المهلب - عبيد الله التميمي ، و قطري بن الفجاءة، ولقبوه أمير المؤمنين. ومذهبهم في الدين قائم على :
- اعتبار مخالفيهم من الأمة مشركين .
- اعتبار القعدة عن الهجرة إليهم ممن كان على دينهم مشركين.
- استباحوا قتل نساء وأطفال مخالفيهم، وقطعوا بخلودهم في النار مع آبائهم .
- أوجبوا امتحان قاصد معسكرهم على أنه منهم ، بأن يدفعوا إليه أسيرا ويأمره بقتله، فإن فعل عدوه منهم ، وإن أبى قتلوه على أنه منافق ومشرك .
- اعتبروا دار مخالفيهم دار كفر، تسبى وتقتل نساؤهم وأطفالهم .
- كما عطلوا حد القذف في حق الرجال ، و أنكروا حد الرجم ، واستباحوا أمانات من على غير مذهبهم .
- أجمعوا على أن مرتكب الكبيرة كافر كفر ملة، ويخلد في النار مع الكفار.<sup>1</sup>

### 3 - النجادات العادرية :

أصحاب نجدة بن عامر الحنفي ، خرج من اليمامة على رأس جيش يريد اللحوق بالأزارقة، فاستقبله أبو فديك وبايعه مع عطية بن الأسود الحنفي، وطائفة من

---

<sup>1</sup> - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 60 - 61 .

المخالفين المكفرين لنافع، بسبب بدعة تكفيره القاعدين عن الهجرة إليه. وظل نجدة  
باليمامة مطاعا إلى أن نقم عليه أتباعه بعض سياسته فانقسموا إلى ثلاث فرق :  
فرقة عذروا نجدة فيما أتى ، وأقاموا على إمامته، وفرقة صارت مع عطية بن الأسود  
إلى سجستان ، وفرقة صارت مع أبي فديك ، وهم الذين قتلوا نجدة.  
من بدع نجدة بن عامر التي جرّت عليه نقمة أتباعه فكفّروه:  
- إعداره أهل الخطأ في الاجتهاد ؛ وذلك حين أغار ابنه المضرج في جندٍ على  
القطيف ، فسبوا النساء ، وقوموهن على أنفسهن ، ونكوهن قبل إخراج الخمس من  
الغنيمة، وقبل معرفة قيمة نصيب كل واحد مما غنموا، فعذرهم في ذلك .  
- أنه اعتبر مرتكب الصغيرة؛ نظرة أو كذبة بإصرار مشركا، ومن سرق، وشرب  
الخمير، وزنى من غير إصرار فهو مسلم .  
وعندهم أن العلم بأمور الدين صنفان؛ صنف واجب لا يعذر جاهله، و صنف  
غير واجب يعذر فيه. فالواجب هو ما تعلق بمعرفة الله تعالى، ومعرفة رسله - عليهم  
السلام - والإقرار بكل ما جاء من عند الله جملة، والعلم بحرمة دماء المسلمين ،  
[الذين على دينهم طبعاً] والصنف الثاني هو ما يتعلق بأحكام المعاملات من حلال  
وحرام ، فالناس فيها معذورون، إلى أن تقوم عليهم الحجة في ذلك، و بإعذارهم  
الجاهل في جهله سموا بالنجدات العاذرية.<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup>الشهرستاني: الملل والنحل، ص135-137.

#### 4- البيهسيّة :

أصحاب أبي بهيس الهيصم بن جابر، هرب من الحجاج إلى المدينة فطلبه بها عثمان بن حيان المري فظفر به، وحبسه حتى أتاه كتاب الوليد يأمره بقطع يديه ورجليه قبل قتله ففعل .

زعم أنه لا يسلم أحد حتى يقر بمعرفة الله تعالى ومعرفة رسله، ومعرفة ما جاء به النبي - صلى الله عليه وسلم - والولاية لأولياء الله تعالى، والبراءة من أعداء الله. فمن جملة ما ورد به الشرع وحكم به: ما حرم الله، وجاء به الوعيد، فلا يسع إلا معرفته بعينه وتفسيره والاحتراز عنهم.

و الإيمان عنده، هو العلم بالقلب دون القول والعمل. حكي عنه أنه قال:  
الإيمان هو الإقرار، والعلم، وليس هو أحد الأمرين دون الآخر. وقالوا إن مرتكب الحرام لا يحكم بكفره حتى يرفع أمره إلى الإمام الوالي، ويحده، وكل ما ليس فيه حد فهو مغفور.<sup>1</sup>

#### 5 - العجاردة:

أصحاب عبد الكريم بن عجرد، وافق النجدات في بدعهم ، وقيل أنه من أصحاب أبي بهيس ثم خالفه وقال بالتبرؤ من الطفل حتى إذا بلغ دعي إلى الإسلام .

<sup>1</sup> الشهرستاني : الملل والنحل، 132.

والعجاردة يتولون القعدة إذا عرفوهم بالديانة، واعتبروا الهجرة إليهم فضيلة لا فريضة، ومرتكب الكبيرة كافر. ولم يستبيحوا أموال مخالفيهم إلا بعد قتلهم .  
وقد تفرقوا إلى سبع فرق على رأي الشهرستاني<sup>1</sup>، وإلى عشرين فرقة على رأي البغدادي<sup>2</sup>، لكل فرقة مذهب لا يلبث أن يتغير تبعاً لهواها.

## 6 - الثعلبية :

أصحاب ثعلبة بن عامر ، كان مع عبد الكريم بن عجرد يدا واحدة ، ثم اختلفا في أمر الطفل، فاختر ابن عجرد البراءة من الأطفال. وقال ثعلبة : إنا على ولايتهم صغارا وكبارا، حتى نرى منهم إنكارا للحق ورضا بالجور. فتبرأت منه العجاردة.  
والثعلبية سبع فرق أيضا عند الشهرستاني<sup>3</sup>، وست فرق عند البغدادي .

## 7 - الإباضية :<sup>4</sup>

نسبة إلى عبد الله بن إباض المري، خرج أيام مروان بن محمد، قيل عنه : إنه كان رفيقا في جميع أحواله وأقواله، اعتبر مخالفيه من المسلمين كفارا غير مشركين، تجوز مناكحتهم، وموارثتهم، وشهادتهم، كما لا يجوز قتلهم وأسرهم غيلة إلا بعد إقامة الحجة وإعلان الحرب، لا يغنم من أموالهم إلا الخيل و السلاح، وما سوى ذلك فمحرم. مرتكب الكبيرة في مذهبهم كافر كفر نعمة لا كفر ملء، لأنه من أهل التوحيد.

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص140-142.

<sup>2</sup> - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص67.

<sup>3</sup> - هي عند الشهرستاني : الأخرسية ، والمعبدية ، والرشيديية ، والشيبانية ، والمكرمية ، والمعلومية والمجهولية، والبدعية. الملل والنحل ص 144.

<sup>4</sup> - الشهرستاني : الملل والنحل، ص146.

توقفوا في أطفال المشركين، وجوزوا تعذيبهم انتقاماً، وجوزوا دخولهم الجنة تفضلاً.

وقد اختلفت الإباضية كغيرها إلى فرق هي: <sup>1</sup>

- الحفصية: أصحاب حفص بن أبي المقدم، تميزوا بالقول بأن بين الإيمان والشرك خصلة واحدة، هي معرفة الله تعالى وحده، فمن عرف الله ثم كفر بما سواه؛ من رسول، أو كتاب، أو قيامة، أو ارتكب الكبائر من قتل النفس، واستحلال سائر المحرمات فهو كافر لكنه برئ من الشرك. وقد ناقضوا قولهم هذا، بقولهم إن الإيمان بالكتب والرسول متصل بتوحيد الله عز وجل، فمن كفر بذلك فقد أشرك بالله تعالى. <sup>2</sup>

- الحارثية: اتباع الحارث الإباضي، خالف الإباضية في القضاء والقدر، بالقول بمذهب المعتزلة، وزعموا أن الاستطاعة قبل الفعل، على خلاف جمهور الإباضية، الذين قالوا بأن الله خالق أعمال العباد، وأن الاستطاعة مع الفعل، موافقين في ذلك لأهل السنة. وزعموا أن ليس لهم بعد المحكمة إمام إلا عبد الله بن إباض ثم حارث بن زيد.

- اليزيدية: أتباع يزيد بن أنيسة، قال بتولي المحكمة الأولى قبل والأزارقة، وتبرأ ممن بعدهم إلا الإباضية فإنه يتولاهاهم. وادعى أن الله سبيعت رسولاً من العجم، وينزل عليه كتاباً قد كتب في السماء جملة واحدة، ويترك شريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - كما قال بأن أصحاب الحدود من موافقيه وغيرهم كفار مشركون. وكل ذنب صغير أو كبير، فهو شرك. وبهذا عدوا من الغلاة.

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 147.

<sup>2</sup> - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 75.



## 8- الصفرية :

عن الاسم قال المبرد : "قوم سموا صفرية لأنهم أصحاب ابن صفار. وقال قوم إنما سموا بصفرة علتهم." <sup>1</sup> خالفوا الأزارقة، والنجدات، والإباضية في كثير من الأمور منها : أنهم لم يكفروا القعدة عن القتال إذا كانوا من موافقيهم في الدين والاعتقاد. ولم يسقطوا الرجم، كما لم يحكموا بكفر أطفال المشركين وخلودهم في النار، ولم يجيزوا قتلهم ولا تعذيبهم. وقالوا بجواز التقية بالقول دون العمل. ولم يحكموا بكفر ولا بشرك مرتكب الكبيرة التي وجب فيها حد شرعي، واكتفوا بتسميته بسم الكبيرة التي حد فيها، كالزاني، والسارق، والقاذف وغيرها. في حين كفروا مرتكب الكبيرة التي ليس فيها حد شرعي، كالتولي يوم الزحف، وترك الصلاة، والشرك عندهم نوعان: شرك يحدث بطاعة الشيطان، وشرك يحصل بعبادة الأوثان. وكذلك الكفر نوعان : كفر إنكار النعمة، وكفر إنكار الربوبية، وحتى البراءة نوعان: براءة من أهل الحدود وهي سنة، وبراءة من أهل الجحود وهي فريضة.

إن الصفرية أقرب المذاهب الخارجية إلى المعقول والبعد عن الغلو، وذلك لضيق مساحة الخلاف بينهم وبين أهل السنة والجماعة. قال ابن خلدون: "والصفرية موافقون للإباضية إلا في القعدة فإن الإباضية أشد على القعدة منهم." <sup>2</sup> هذا عن الفرق ذات المنشأ السياسي أول الأمر، والتي ما لبثت أن خاضت في كثير من أمور العقيدة.

<sup>1</sup> - - مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص 52.

## رابعاً: فرقة المرجئة

ذكر الشهرستاني أن لكلمة الإرجاء في اللغة معنيين: أحدهما بمعنى التأخير، كما في قوله تعالى - حكاية عن ملاً فرعون - : " قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين. " <sup>1</sup> أي أمهله وأخره .

والثاني : إعطاء الرجاء. ورأى أن الاسم بمعنييه صالح لتسمية الجماعة، فبالمعنى الأول لأنهم يؤخرون العمل عن النية والعقد. وأما بالمعنى الثاني فلأنهم يعطون الأمل لمرتكب المعصية، بقولهم: لا تضر مع الإيمان معصية. <sup>2</sup>

ويرى عبد القاهر البغدادي أنهم سموا مرجئة لأنهم أخوا العمل عن الإيمان، كما أورد حديثاً تضمن لعنهم: " وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لعنت المرجئة على لسان سبعين نبياً. " <sup>3</sup>

انبثقت هذه الفرقة عن الجدل الذي دار حول مرتكب المعصية، أمؤمن هو أم غير مؤمن ؟ فقالت الخوارج بكفره. وقالت المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين؛ لا هو كافر ولا هو مؤمن، وقد يسمى مسلماً. وقال الحسن البصري وطائفة من التابعين: بأنه منافق، لأن الأعمال دليل على القلوب. وقال جمهور من المسلمين : هو مؤمن عاص أمره بيد الله ، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه.

ووسط هذا الخلاف ظهرت فئة أرجأت أمره إلى الله تعالى يوم القيامة، فسميت بالمرجئة ، وهي أقرب فيما ذهبت إليه إلى جمهور أهل السنة .

هذا عن الجانب العقائدي لنشأة هذه الفرقة .

<sup>1</sup> - سورة الأعراف: آية 111.

<sup>2</sup> - الشهرستاني: الملل والنحل ، ص 149 .

<sup>3</sup> - عبد القهر البغدادي: الفرق بين الفرق، ص 151.

أما الجانب السياسي ، الأكثر مباشرة في نشأتها، فيرجع إلى زمن خلافة عثمان - رضي الله عنه - وما قيل عن سياسته ، والفتن التي أعقبت مقتله. فقد امتنعت هذه الفرقة عن الخوض في غمار تلك الفتنة ونأت بنفسها عن الانضمام إلى أي معسكر من معسكرات الصراع السياسي ، آخذين بالحديث الشريف الذي رواه أبو مسلم بن أبي بكر، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " إنها ستكون فتن، ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها ، ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، قال فقال رجل : يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال يعتمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ، ثم لينج إن استطاع النجاء. اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت اللهم هل بلغت. قال فقال رجل أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفيين أو إحدى الفئتين فضر بني رجل بسيفه ، أو يجيء سهم فيقتلني ؟ قال يبوء بإثمه وإثمك فيكون من أصحاب النار. " <sup>1</sup>

ومن هؤلاء الصحابة الذين نأوا بأنفسهم عن الخوض في تلك الفتن، سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وعمران بن الحصين، وراوي الحديث، أبو بكر. مفوضين أمر الحكم بين تلك الطوائف إلى الله تعالى.

وتبع هؤلاء الصحابة جل العائدين من المغازي، في الأقاليم البعيدة. قالوا بعد عودتهم : تركناكم وأمركم واحد، ليس بينكم اختلاف، وقدما وأنتم مختلفون، فبعضكم يقول قتل

<sup>1</sup> - صحيح مسلم ، بشرح النووي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ط 2 / 1391 هـ - 1972 ، ج 18 ص 9 - 10.

"عثمان " مظلوما ، وبعضكم يقول " علي " أولى بالحق وأصحابه، وكلهم ثقة عندنا مصدق، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما، ولا نشهد بينهما، ونرجئ أمرهما إلى الله، هو الذي يحكم بينهما.

هكذا كان قيام فرقة المرجئة - أولا - على أساس سياسي، ثم ما لبثت أن تناولت مسألة الإيمان، والكفر، والشرك ، وغيرهما من مسائل العقيدة، فوقفت - أول الأمر - موقفا وسطا، من غلو الخوارج في تكفير مرتكبي الكبيرة من المؤمنين ومخالفهم في المعتقد ، ونفس الموقف كان تجاه غلو الشيعة، في جعل الاعتقاد بالإمام ركنا من أركان الإيمان الأساسية ، فقالوا بأن كل من يشهد : أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فهو مؤمن، وإن لم يأت ببقية الفرائض، أو ارتكب بعض المعاصي. ثم غالوا هم الآخرون ، فجعلوا الإيمان مجرد الاعتقاد بالقلب ، وإن أظهر صاحبه الشرك أو الكفر. هكذا بدأ المرجئة مذهبهم بوسطية مقبولة، ثم ما لبثوا أن غالوا في الاستهانة بالطاعات، وأفعال الخير، فأطمعوا الفسقة الفجار في مغفرة الله تعالى. قال زيد بن علي بن الحسين " أبرأ من المرجئة الذين أطمعوا الفساق في عفو الله تعالى ".<sup>1</sup>

ونظرا لكون جمهور أهل السنة من القائلين: إن أمر مرتكب الكبيرة موكول إلى الله تعالى للحكم فيه، ولم يقولوا بما قالت به المعتزلة، من أنه مخلد في النار. ألصق بهم المعتزلة مذهب الإرجاء. وذلك محال. قال الشهرستاني : " ولعمري لقد كان يقال لأبي حنيفة وأصحابه : مرجئة السنة. وعدة كثير من أصحاب المقالات : من جملة المرجئة

---

<sup>1</sup> - محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ، ص 204.

ولعل السبب فيه : أنه لما كان يقول : " الإيمان هو التصديق بالقلب ، وهو لا يزيد ولا ينقص " :ظنوا أنه يؤخر العمل عن الإيمان ، والرجل مع تخريجه في العمل كيف يفتي بترك العمل ؟ وله سبب آخر، وهو أنه كان يخالف القدرية، والمعتزلة الذين ظهروا في الصدر الأول ، والمعتزلة كانوا يلقبون كل من خالفهم في القدر مرجئاً. <sup>1</sup> إن بعض العلماء صنفوا المرجئة صنفين؛ مرجئة السنة، وهم الذين قالوا إن مرتكب الذنب يعذب بمقدار ما أذنب، ولا يخلد في النار، وقد يعفو الله عنه. و مرجئة البدعة، وهم القائلون: لا يضر مع الإيمان معصية، ولا ينفع مع الكفر طاعة. وهؤلاء فرق عديدة منها :

- **اليونسية**: أتباع يونس بن عون النميري ،وزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله ،والخضوع له بالقلب ، ومحبته، وما سوى ذلك من الطاعات فليس من الإيمان .
- **العبيدية** : أصحاب عبيد المكتئب أثر عنه : أن مادون الشرك مغفور لا محالة ،وأن العبد إذا مات على توحيده لم يضره ما اقترف من الآثام .
- **الغسانية** : أصحاب غسان الكوفي ،قال عن الإيمان هو معرفة الله تعالى ،ومعرفة ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - جملة دون تفصيل ، وزعم أن قائلًا لو قال : أعلم أن الله قد حرم أكل الخنزير،ولا أدري هل الخنزير الذي حرمه هذه الشاة ، أم غيرها ؟ كان مؤمناً . وهو الذي عد أبا حنيفة مرجئاً .
- **الثوبانية** : أصحاب أبي ثوبان المرجئ حصر - كغيره - الإيمان في معرفة الله تعالى، ومعرفة رسله - عليهم السلام - مع تأخير العمل .

---

<sup>1</sup> - الشهرستاني: الملل والنحل ، ص 151.

- التو منية: أصحاب أبي معاذ التو مني، زعم أن الإيمان هو ما عصم من الكفر ، وهو

اسم لخصال منها : المعرفة ، والمحبة ، والتصديق ، والإخلاص . إذا ترك التارك بعضها ، أكلها كفر . كما كفر تارك الفرائض استحلالا أو إنكارا .

فجميع فرق المرجئة مجمعة على أن الإيمان هو المعرفة بالله، وبما جاءت به رسله، إجمالاً، لا تفصيلاً، وهي دعوة غير مباشرة إلى هجر التعلم، والتعمق في علوم الدين، حتى يبقى الجهل مخيماً على محيط الأمة، فتعشش ضلالاتهم في عقول الناس. كما أنهم مجمعون على تأخير العمل، والتقليل من شأنه، إشاعة منهم للكسل والتواني في وسط الأمة، مع تهوينهم لأمر المعاصي، وتأميل مقترفيها في عفو الله ورحمته.

يقول الأستاذ صبري المتولي، عن دور هذه الفرقة في تمييع حقيقة الإيمان :

" والقضية التي انتزعتها المرجئة من هذا الدين وجنوا عليها أيما جناية هي قضية "الإيمان" ، وه م بجنايتهم قد جنوا على العقيدة كلها ، واقتلعوها من جذورها."<sup>1</sup>

لاشك أن مذهب المرجئة قد كان وراء ظهور ذلك العدد الكبير من الإباحيين، والفساق

المستهترين بأركان الدين وقيمه في وسط الأمة، كما شجع غلاتهم بعث الديانات

القديمة، بقولهم " الإيمان اعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان أو لزم

اليهودية والنصرانية في دار الإسلام ، وعبد الصليب، وأعلن التثليث في دار الإسلام ،

ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل، ولي الله عز وجل، من أهل

الجنة " <sup>2</sup>

<sup>1</sup> - صبري المتولي : منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1401 هـ 1981 م ص 181 .  
<sup>2</sup> - أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص 281 .

من مواقف الاستهتار ما ذكره أبو زهرة، نقلا عن أبي الفرج الأصفهاني ، أن شيعيا ومرجئا اختصما، فجعلا الحكم بينهما أول من يلقاهما، فلقيهما أحد الإباحيين، فقالا له، أيهما خير: الشيعي أم المرجئ ؟ .. فقال: ألا إن أعلاي شيعي، وأسفلي مرجئ. " <sup>1</sup> ورغم تأثير هذا المذهب في أخلاق كثير من الناس، فقد تلاشى واضمحل. قال أحمد أمين: " وقد لاحظ بعض المستشرقين أن الكلام على طائفة المرجئة، وبدء تكونها، وشرح عقائدها أحيط بشيء من الغموض، وعلل ذلك أن الدولة العباسية دمرت هذه الطائفة وأماتت القول بهذه العقيدة، لأنها تناصر الأمويين إلى حد ما ، وعلى كل حال فهذه الفرقة تدخلت بعد العصر الأموي في الفرق الأخرى، وذابت فيها، ولم يعد لها وجود مستقل محسوس. " <sup>2</sup>

ونفس الفكرة أثبتها الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا، فقد قال : " والحق أن الحديث عن المرجئة الأولى وبدء تكونها، وشرح عقائدها لا يخلو من الغموض. لكنها على كل حال ذابت في غيرها من الفرق كما ستذوب فرق أخرى بعضها في بعض، حتى ليجد مؤرخ الأفكار صعوبة كبيرة في تعقبها بين الضباب الكثيف الذي يكتنفها وتشخيصها قبل أن تمتد بصمات الأصابع إليها. وحسبنا منها أنها - إلى مدى بعيد - رد فعل أوجب ظهور الخوارج والشيعية على مسرح الأحداث. " <sup>3</sup>

هكذا تلاشت كثير من الفرق التي لم تؤسس على أفكار واضحة ، أو لم يتح لها من فرص الظهور ما أتيج لغيرها.

<sup>1</sup> - محمد أبو زهرة : المذاهب الإسلامية ص 204.

<sup>2</sup> - أحمد أمين : فجر الإسلام ص 281.

<sup>3</sup> - د عبد الرحمن مرحبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، ص 277.

## خامسا :فرقة المعتزلة

من الفرق التي أفرزها الوضع السياسي للأمة الإسلامية قبل منتصف القرن الأول الهجري، كان ضمنها عدد من الصحابة والتابعين، الذين اعتزلوا الفتنة التي وقعت، أيام خلافة الإمام علي - رضي الله عنه - ، فما قاتلوه ولا قاتلوا معه ، لعدم وضوح الأمر بالنسبة إليهم. قال النوبختي في كتابه " فرق الشيعة " :  
" من الفرق التي افتقرت بعد ولاية علي - رضي الله عنه - فرقة اعتزلت مع سعد بن مالك وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وحمد بن مسلمة الأنصاري وزيد بن حارثة، فإن هؤلاء اعتزلوا عن علي وامتنعوا عن محاربتة والمحاربة معه بعد دخولهم بيعته والرضا به، فسموا معتزلة وصاروا أسلاف المعتزلة إلى آخر الأبد. وقالوا :  
لا يحل قتال "علي" ولا القتال معه. والأحنف بن قيس قالها لقومه: اعتزلوا الفتنة أصلح لكم." <sup>1</sup>

ومما يؤكد أن الاعتزال أول أمره نشأ عن تروى القوم تجاه ما أصاب الأمة

من فتن ما ذكره الطبري في تاريخه: أن قيس بن سعد، عامل مصر من قبل "علي" كتب إليه يقول: " إن قبلي رجالا معتزلين قد سألوني أن أكف عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ويُرى رأيهم، فقد رأيت أن أكف عنهم وأن لا أتعجل حربهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله أن يقبل بقلوبهم ويفرقهم عن ضلالتهم." <sup>2</sup>

<sup>1</sup> - د عبد الرحمن مرحبا : المرجع السابق، ص 277.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 278.



وذكر في موضع آخر " ولم يلبث محمد بن أبي بكر شهرا كاملا حتى بعث إلى أولئك القوم المعتزلين الذين كان قيس وادعهم فقال: يا هؤلاء إما أن تدخلوا في طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا. فبعثوا إليه: إنا لانفعل، دعنا حتى ننظر ما تصير إليه أمورنا ، ولا تعجل بحربنا. " <sup>1</sup>

من هذا الموقف السياسي سموا بالمعتزلة .

وهناك من يرجع التسمية إلى موقف المعتزلة من مرتكبي الكبيرة، وهو موقف وسط بين الإيمان والكفر. يقول صبري المتولي: "فأما سبب التسمية بالمعتزلة فهو اتفاقهم على دعواهم في الفاسق من أمة الإسلام بالمنزلة بين المنزلتين ، وهي أنه فاسق لا مؤمن ولا كافر، ومع ذلك يقولون بخلوده في النار ، ولأجل هذا سماهم المسلمون "معتزلة" لاعتزالهم قول الأمة بأسرها "وقد سمي موقفهم هذا اعتزالا معنويا، وهو أهم من الإعتزال المادي الذي بدر من واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد، لمجلس الحسن البصري. قال في ذلك : "وهذا الإعتزال المعنوي ، أصح في التسمية من الإعتزال الحسي الذي يطلقه بعض الباحثين، على اعتزال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد الحسن البصري ، فانتقلوا من سواري المسجد إلى سارية أخرى." <sup>2</sup>

ومما يؤكد أن المعتزلة نشأت إثر الخلاف المشار إليه في أواخر أيام عثمان وأيام حكم علي - رضي الله عنهما - أن ابن أبي الحديد قال : " اتفق شيوخنا من المعتزلة كافة رحمهم الله ، المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون، على أن بيعة أبي

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 278.

<sup>2</sup> - صبري المتولي : منهج ابن تيمية في تفسير القرآن، ص 159.

بكر بيعة صحيحة شرعية، وأنها لم تكن عن نص وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع وبغير الإجماع، كونه طريقاً للأمة".<sup>1</sup>

ويعني ابن أبي الحديد بعبارته: "المتقدمون، والمتأخرون" يعني المعتزلة الأولى التي نشأت نتيجة لفتنة مقتل عثمان، وخلافة "علي" رضي الله عنهما. ويعني بالمتأخرين: واصل بن عطاء ومن جاء بعده من المعتزلة على اختلاف فرقهم. ومن الأسماء التي تواتر إطلاقها على المعتزلة، أوسموا بها أنفسهم: القدرية، والمعطلة النفاة، والمتكلمون، وأصحاب العدل والتوحيد، فهذه الأسماء دالة على جانب من جوانب تفكيرهم، أو صفة من صفاتهم المميزة.

فأما تسميتهم بالقدرية، فلقولهم جميعاً بأن الله تعالى غير خالق لأعمال الناس، ولا لشيء من أعمال الحيوانات. "وقد زعموا أن الناس هم الذين يقدرون على أعمالهم، وأنه ليس لله عز وجل في أعمالهم ولا في أعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير، ولأجل هذا سماهم المسلمون قدرية".<sup>2</sup>

وزعموا أن بقولهم: الإنسان خالق لأعماله، يثبتون عدل الله سبحانه وتعالى في الجزاء والعقاب، وينفون عنه الظلم. ومنه سموا أصحاب "العدل"، أو "العدلية" ولفظ: القدرية، يطلق على من يقول "بالقدر" خيره وشره من الله تعالى، كما عند أهل السنة.

يبدو أن تسمية المعتزلة أنفسهم بالقدرية، كان لغرض تضليل العوام، بالخلط بين معتقدهم الفاسد، وبين معتقد القدرية من أهل السنة، القائلين بأن للعباد قدرة ومشئنة،

<sup>1</sup> - عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ص 279.  
<sup>2</sup> - صبري المتولي: منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم، ص 160.

يفعلون بهما ما أقدرهم الله عليه، وشاءه لهم. لذلك وجب الاحتراز من إطلاق اللقب،  
أو مصادفته. فقدرية المعتزلة هي المعنية بقوله - صلى الله عليه وسلم -:

" القدرية مجوس هذه الأمة. " <sup>1</sup>

أما عن تسميتهم بالمعطلة النفاة ، فلأنهم عطلوا أسماء الله الحسنى وصفاته فقالوا:

" ليس لله عز وجل علم ولا قدرة ولا حياة، ولا سمع، ولا بصر، و لا صفة أزلية،

وزادوا على هذا بقولهم: إن الله تعالى لم يكن له في الأزل اسم ولا صفة. " <sup>2</sup>

وعن سبب تسميتهم بالمتكلمين، فلأنهم خاضوا بالباطل في كلام الله، وهو القرآن

الكريم، وقالوا إنه حادث مخلوق وهي إحدى بدعهم. وقد يعود سبب التسمية إلى نفيهم

لأسماء الله وصفاته، تحقيقاً لمعنى الوجدانية أو التوحيد، كما صوره الأشعري بقوله:

" إن الله واحد أحد، ليس كمثله شيء، وهو السميع البصير، وليس بجسم ولا شبح ولا

جثة، ولا صورة ولا لحم ودم ، ولا شخص ولا جوهر ولا عرض، ولا بذى لون ولا

طعم ، ولا رائحة ولا مجسة...ولا طول ولا عرض ولا اجتماع ولا افتراق ، ولا

يتحرك ولا يسكن ولا يتبعض، ولا بذى أبعاد وأجزاء، ولا جوارح وأعضاء ،

وليس بذى جهات...ولا يحيط به مكان ، ولا يجري عليه زمان ... ولا يوصف بشيء

من صفات الخلق الدالة على حدثهم...ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الحواس ... " <sup>3</sup>

<sup>1</sup> - الشهرستاني : الملل والنحل ، ص 65.

<sup>2</sup> - عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، 83.

<sup>3</sup> - محمد أبو زهرة : الفرق الإسلامية ، ص 210 - 211.

وقد ترتب عن نفيهم لصفات الله عز وجل، وقوعهم في بدعة نفي رؤية الله تعالى يوم القيامة، رغم وجود نصوص قطعية تبشر المؤمنين بتلك الرؤية.

وقد تفرعت فرق المعتزلة إلى ما يزيد عن العشرين فرقة، تجمعها معالم خمسة، نص عليها أبو الحسن الخياط بقوله: "وليس أحد يستحق اسم الإعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا اجتمعت هذه الأصول فهو معتزلي." <sup>1</sup>

هذه المصطلحات أو المبادئ الخمسة، قد تختلف المعاني المستفادة منها من فرقة إلى أخرى وبخاصة عند أهل السنة.

فالتوحيد قائم عندهم على نفي الصفات وتعطيل أسماء الله الحسنى، لأنها - كما يدعون - تُشعر بالتعدد.

أما العدل فقائم على تغييب قدرة الله تعالى عن أفعال العباد والحيوان، وتعطيل مشيئته، وحبثهم في ذلك أن عدل الله سبحانه وتعالى يقتضي أن يكون الإنسان مختاراً في أفعاله، وإلا فلماذا سيثاب أو سيعاقب.

أما الوعد والوعيد فيرون حتمية نزولهما، فمن أحسن يجازى بإحسان، ومن أساء يعاقب بالمثل، ولا عفو عن الكبيرة من غير توبة، وهذا منهم رد على القائلين: لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

أما المنزلة بين المنزلتين، فهي من أبرز الأفكار التي قام عليها مذهب المتأخرين منهم بزعامة واصل الذي خالف شيخه الحسن البصري في أمر مرتكب الكبيرة من

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 210.

المسلمين، فقال: هو بين الكفر والإيمان، مخالفاً في ذلك كلا من الخوارج الذين حكموا عليه بالكفر، والمرجئة الذين قالوا لا ضير في ذلك مادام مؤمناً .

أما عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو الأصل الذي أقره على جميع المسلمين، تحفيزاً لنشر الإسلام، وذوداً لهجمات الملاحدة، والزنادقة الذين راموا إفساد الدين. كما حاولوا حمل رجال الحديث والفقهاء، من أهل السنة على تبني أفكارهم، مرة بالجدل وحيناً باستغلال السلطة بعد أن تبنى بعض خلفاء بني العباس مذهبهم، خصوصاً في مسألة خلق القرآن الكريم، وقد بلغت تلك المحنة مداها باتهام كثير من رجال السنة في دينهم، فمنهم من قتلَ ومنهم من عُذب، فكان رد أهل السنة أن رموهم بكل جريحة، " حتى أن الإمام أبا يوسف صاحب أبي حنيفة عدهم من الزنادقة، والإمام مالك والشافعي قد أفتيا بعدم قبول شهادتهم، والإمام محمد ابن الحسن الشيباني أفتى بأن من صلى خلف المعتزلي يعيد صلاته. " <sup>1</sup>

اتخذ المعتزلة من البصرة مقاماً، ومنها إلى بقية نواحي العراق، وهو كما لا يخفى ملتقى الحضارات والطوائف؛ من المجوس، واليهود، والنصارى، والزنادقة، المضمرين لدياناتهم الوثنية القديمة، فجادل المعتزلة كل تلك الطوائف، وناظروهم، ومعتمدتهم في ذلك العقل المصقل بشتى أنواع المعرفة، من لغة ودين، وفلسفة ومنطق، وتاريخ وعزيمة، فكانوا مدرسة كبيرة تخرج فيها عدد من العلماء والأدباء الذين أثروا فعلاً في مسيرة الفكر العربي والإسلامي، بغض النظر عن

---

<sup>1</sup> - محمد أبو زهرة: المذاهب الإسلامية ص 227.

ابتداعهم في الدين. يقول أحمد أمين :

" والحق أن المعتزلة هم الذين خلقوا علم الكلام في الإسلام، وأنهم أول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم في الدين، ذلك أنه في أوائل القرن الثاني للهجرة ظهر أثر من دخل في الإسلام من اليهود والنصارى والمجوس و الدهرية، فكثير من هؤلاء أسلموا ورؤوسهم مملوءة بأديانهم القديمة، لم يزد عليهم إلا النطق بالشهادتين، فسرعان ما أثاروا في الإسلام المسائل التي كانت تثار في أديانهم، وكانت هذه الأديان التي ذكرناها قد تسلحت من قبل بالفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني ، .. فهاجموا الإسلام وهو الدين الذي يمتاز ببساطة عقيدته فأثاروا حوله الشكوك .."<sup>1</sup>

لئن اختلق المعتزلة بعض البدع في جوهر الدين، وعليهم وزر ذلك، فلقد أفادوا الفكر الإسلامي بكثير من الثقافات والأساليب الدفاعية عن العقيدة الإسلامية.

من أشهر فرق المعتزلة :

- الواصلية، أتباع واصل بن عطاء الغزال رأس المعتزلة وداعيمهم إلى بدعتهم.
- الهذلية ، أتباع أبي الهذيل المعروف بالعلاف. كان مولى لعبد القيس، فجرى على منهاج أبناء السبايا.
- النظامية ، أتباع أبي إسحاق بن سيار، كان ينظم الخرز في سوق البصرة ، لذلك لقب بالنظام.
- والخابضية والكعبية ، أتباع أبي الحسن الخياط أستاذ أبي القاسم بن محمد الكعبي .

---

<sup>1</sup> - أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص 299.

- والبشرية، أصحاب بشر بن المعتمر، كان من أفضل علماء المعتزلة.

- والمعمرية، أصحاب معمر بن عباد السلمي، من أعظم " القدرية " فرية في نفي

الصفات .

- والمردارية، أصحاب عيسى بن صبيح، لقب " بالمردار " وهو تلميذ بشر بن المعتمر.

- والثمامية، نسبة إلى ثمامة بن أشرس النميري، كان جامعا بين السخافة والخلاعة .

- والهشامية، أصاب هشام بن عمرو الفوطي، من الغلاة في نفي الصفات لدرجة

رفضه إسناد الأفعال إلى الله عز وجل، مع ورود ذلك في القرآن الكريم بكثرة.

- والجاحظية، أصحاب عمرو بن بحر، وصفه الشهرستاني في الملل والنحل

بقوله " كان من فضلاء المعتزلة، والمصنفين لهم، وقد طالع كثيرا من كتب

الفلاسفة، وخط وروج كثيرا من مقالاتهم بعباراته البليغة، وقد انفرد عن

أصحابه بمسائل منها :

إن المعارف ضرورية طباع، وليس شيء من ذلك من أفعال العباد، وليس للعبد

كسب سوى الإرادة وتحصل أفعاله منه طباعا... وكان من منكري الأعراض

والصفات، وهو على مذهب الفلاسفة"<sup>1</sup>.

- الجبائية والبهشمية، أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وابنه

أبي هاشم عبد السلام من معتزلة البصرة. اتفقا في أمور واختلفا في أخرى، فمن

بعض ما اتفقا فيه :

- نفي رؤية الله تعالى بالأبصار.

---

<sup>1</sup> - الشهرستاني : الملل والنحل، ص 91-92.

- إن الله تعالى لم يدخر عن عباده شيئاً مما علم أنه إذا فعل بهم

أتوا "بالطاعة" و"التوبة" لأنه قادر عالم، جواد، حكيم، لا يضره الإعطاء ولا ينقص من خزائنه المنح. والتكاليف كلها ألطاف وكذلك بعثه الأنبياء عليهم

السلام.

واختلفا في الصفات، فقال الجبائي: إن صفة "عالم" و"قادر" و"حي" هي صفات لذاته عز وجل. ومعنى قوله لذاته أي لا يقتضي كونه عالماً "صفة" هي: "علم" أو "حال" توجب كونه "عالماً". وعند أبي هاشم هو "عالم" لذاته بمعنى أنه "ذو حالة" هي صفة معلومة وراء كونه ذاتاً موجوداً، وإنما تعلم "الصفة" على الذات لا بانفرادها فأثبت أحوالاً هي صفات لا موجودة ولا معدومة.

ففي صفتي "سميع بصير" قال الجبائي: معنى كونه سميعاً بصيراً: أنه حي لا أفة فيه. وخالفه ابنه وسائر أصحابه إلى أن كونه سميعاً "حالة" وكونه بصيراً حالة سوى كونه "عالماً" لاختلاف القضيتين، والمفهومين، والمتعلقين، والأثرين، وقال غيره من أصحابه: معناه كونه مدركاً للمبصرات، مدركاً للمسموعات.

كما اختلفوا في بعض مسائل "اللفظ" و فعل الألم للعوذ.

ونفياً رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة. وقد وافق أصحاب هتين الفرقتين أهل السنة في الإمامة، بالاختيار وأن الصحابة مرتبون في الفضل ترتبهم في الإمامة، وقد بالغوا

في القول بعصمة الأنبياء حتى في الصغائر من الذنوب.<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 95-98.



## سادسا: نزعة الزهد و التصوف

بعد ذكرى للفرق ذات المنشأ السياسي - في ظاهر أمرها أولا ثم لا تلبث أن تغوص في قضايا العقيدة ، قصدا منها واختيارا، أو حتمالها و إجبارا، كون الفصل بين الجانبين السياسي والعقائدي يعد من غير الممكن أو من الصعب بمكان، وما القول بإمكانية الفصل بينهما إلا ضرب من السفسطة أو الجدل العقيم. - أخلص إلى ذكر نزعات الزهد والتصوف والمجون، كنزعات ذات منشأ روحي بالنسبة للأوليين لا تغري أصحابهما الجوانب المادية من مال وسلطان، وغيرهما من مفاتن الدنيا وزينتها. وأما بالنسبة إلى نزعة المجون فهي ذات منشأ نفسي مادي.

يقول الدكتور عاطف جودة موضحا هذه الفكرة: " يدلنا تاريخ المتصوفة على أنهم لم يكونوا من أصحاب النزعات السياسية كالخوارج والشيعة، فهؤلاء قد مزجوا الدين بالسياسة وزجوا بأنفسهم في معترك السياسة للوصول إلى السلطة الدنيوية. ولم يكن الصوفية كذلك أهل جدل ومناظرات كالمعتزلة والأشاعرة... وإنما الصوفية أرباب أحوال وسلوك ومقامات منها: الاعتراض لسلوك سبل الأولياء، والنزول في منازل الأصفياء ومباشرة حقيقة الحقوق ببذل الروح وتلف النفس واختيار الموت على الحياة...طمعا في الوصول إلى المراد".<sup>1</sup>

إن بين الزهد والتصوف علاقة وتداخلا من الصعب الحديث عن أحدهما

---

<sup>1</sup> - د ، عاطف جودة نصر : شعر عمر بن الفارض دراسة في فن الشعر الصوفي ، دار الأندلس ن بيروت لبنان، ط 1 - 1402 هـ - 1982 م ص 9 .

دون ملامسة الآخر. كون نقاط التقائهما - ربما - أكثر من نقاط اختلافهما وبخاصة في مراحل نشأتها، أعني الزهد والتصوف لدى المسلمين.

## الزهد

الزهد في اللغة: جاء في القاموس المحيط زهد " فيه كمنع وسمع وكرم زهدا وزهادة أوهي في الدنيا والزهد في الدين ضد رغب، والزهد محركة الزكاة والزهد القليل".<sup>1</sup>

والزهد نزعة إسلامية مستمدة من القرآن الكريم و السنة المحمدية؛ القولية والعملية والتقريرية. فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم صحابته - رضوان الله عليهم - القدوة للأمة في كل شؤون حياتهم.

يقول شوقي ضيف عن تفشي الزهد في المجتمع الإسلامي: " مما أضرم جذوته وعظ الوعاظ الكثيرين الذين لم يخل منهم بلد إسلامي، يندرون ويخوفون من عذاب الجحيم، ويبشرون الأتقياء والصالحين..."<sup>2</sup>

من العلماء المسلمين الذين تكلموا عن الزهد من حيث التعريف، وفيه يكون، وفضله ومدى اختلاف الناس فيه الإمام القشيري (376-465هـ)، وأبو حامد الغزالي (450-505هـ) وكلاهما قال باختلاف الناس في تعريفه وفيه يكون. قال القشيري: " اختلف الناس في الزهد، فمنهم من قال: الزهد في الحرام، لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى. ومنهم من قال: الزهد في الحرام واجب، وفي الحلال فضيلة، فإن إقلال المال - والعبد صابر في حاله، راض بما قسم الله تعالى له،

<sup>1</sup> - القاموس المحيط، ج1 ص309.

<sup>2</sup> - د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات ، ص 462.

قانع بما يعطيه - أتم من وسعه وتبسطه في الدنيا. فإن الله تعالى زهد الخلق في الدنيا  
ورغبهم في الآخرة، فقال: " وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل  
قريب، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلًا ".<sup>1</sup>  
ومنهم من قال: إذا أنفق العبد ماله في الطاعة وعلم من حاله الصبر، وترك  
التعرض لما نهاه الشرع عنه في حال العسر، فحينئذ يكون زهده في المال الحلال  
أتم. ومنهم من قال: ينبغي للعبد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه، ولا طلب الفضول  
مما لا يحتاج إليه ويراعي القسمة، فإن رزقه الله سبحانه وتعالى مالا من حلال  
شكره، وإن وقفه الله تعالى على حد الكفاف لم يتكلف في طلب ما هو فضول،  
فالصبر بصاحب الفقر والشكر أليق بصاحب المال الحلال.<sup>2</sup>  
هذا عن ما يكون فيه الزهد. أما عن شرف الزهد وفضله في الدنيا فقال أبو  
حامد الغزالي: " اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين ..."<sup>3</sup>  
ومن ملامح شرفه أن الله سبحانه وتعالى نسبه إلى العلماء في أكثر من آية من  
ذلك قوله تعالى: " وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن "<sup>4</sup>  
كما وصِف بأنه من أحسن العمل. من خلال الآية الكريمة: " إنا جعلنا ما على  
الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا."<sup>5</sup>

<sup>1</sup> - سورة النساء: آية 77.

<sup>2</sup> - الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق: د. عبد الحلیم محمود، د. محمود بن الشريف، دار المعارف القاهرة

(د.ت) ج 1 ص 39. (بتصرف)

<sup>3</sup> - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، صححه واعتنى به محمد بن مسعود الأحمدى، علم الكتب بيروت، ط 1

1426هـ-2005م ص 1259.

<sup>4</sup> - سورة آل عمران: آية 152.

<sup>5</sup> - سورة الكهف: آية 7.

ويرى أن الزهد درجات ثلاث:<sup>1</sup>

الدرجة الأولى : وهي السفلى منها : أن يزهد في الدنيا وهو لها مشته وقلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة ولكنه يجاهدها ويكفها، وهذا يسمى المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: الذي يترك الدنيا طوعا لاستحقاره إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالذي يترك درهما لأجل درهمين. وهذا نقصان .

الدرجة الثالثة: وهي العليا: أن يزهد طوعا ويزهد في زهده فلا يرى زهده، إذ لا يرى أنه ترك شيئا، إذ استقر في نفسه أن الدنيا لا شيء.

أما عن مفهوم الزهد الاصطلاحي المستقر في ذاكرة المجتمع، فيختلف من عالم لآخر تبعا للزاوية التي يُنظرُ من خلالها إليه أو تبعا للموقف الذي صدر عنه التعريف. لذلك تعذر الوقوف على تعريف موحد. فقد أورد له القشيري أزيد من عشرين تعريفا أو مفهوما مما انتهى إليه من تعريفات العلماء والزاهدين.<sup>2</sup> كل منها يلامس جانبا من جوانب الزهد، كالقناعة والتوكل وقصر الأمل والسخاء وإفراغ القلب مما سوى الله. وهي تعريفات تميزت بالتركيز والإيجاز.

ومما يدل على تعدد الجوانب المكونة للزهد قول القشيري : " سمعت أبا عبد الله الصوفي يقول : سمعت أبا الطيب السامري يقول : سمعت الجنيد يقول: مارست كل شيء من أمر الزهد، فنلت منه ما أريد، إلا الزهد في الناس، فإني لم أبلغه ولم أطقه."<sup>1</sup> فقوله مارست كل شيء من أمر الزهد يعني أن الزهد طقوس متعددة

<sup>1</sup> - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 1268.  
<sup>2</sup> - الرسالة القشيرية، ج 1 ص 240 ، 241.

منها ما هو سلوك عملي في العبادات، أو مع الناس، ومنه ما هو اعتقاد قلبي.  
أما الغزالي فلم يسهب في سرد كثير من تلك التعاريف واكتفى بإيراد أقل من  
عشرة تعاريف. منها تعريف القاسم الجوعي: "الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف؛  
فبقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد." <sup>1</sup>  
وتعريف سفيان الثوري: "الزهد هو قصر الأمل، وهو جامع لجميع الشهوات، فإن  
من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله.  
وتعريف أهل الحديث: "حب الدنيا هو العمل بالرأي والمعقول، والزهد إنما هو  
اتباع العلم ولزوم السنة."<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> - المصدر نفسه، ص 243-244  
<sup>2</sup> - أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، ص 270 . بتصريف.

## التصوف

معنى التصوف لغة: ذكر ابن خلدون حين حديثه عن أصل كلمة تصوف،

قول القشيري: "وقال القشيري رحمه الله" ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق

من جهة العربية ولا القياس. والظاهر أنه لقب. ومن قال: اشتقاقه من الصفاء.

أو من الصفة. فبعيد من جهة القياس اللغوي، قال: وكذلك ليس من الصوف لأنهم

لم يختصوا بلبسه. قلت: والأظهر إن قيل بالاشتقاق أنه من الصوف، وهم في

الغالب مختصون بلبسه، لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب إلى

لبس الصوف.<sup>1</sup>

ويقال إنه اشتق من (حُمس) الذي مفرده أحمس وحميس والمتحمس المتشدد

في الدين وفي الزهد، وكان الحمس في الكعبة قبل الإسلام، وكانوا يطيلون

شعورهم ويضفرونها من الخلف، ويطلقون على ذلك صوفة، وقيل من ذلك اشتق

اسم الصوفية. والحمس كانوا فرقة من الزهاد في نهاية القرن الرابع في سوريا

وأر باضه من شبه الجزيرة العربية... وكانوا لا يجهرون بالصلاة ولذلك سموا

بالمبختين وقيل هم المرقيون أتباع مرقيون وكان فيلسوفا...<sup>2</sup>

هذا عن المعنى اللغوي أما عن معناه الديني فلم يُجمع علماء الأمة على تعريف

محدد لماهيته وحقيقته. فالفارابي أبو نصر محمد بن طرخان [257 – 339 هـ]،

[870 – 950م] يرى التصوف على نوعين: تصوف روحي وتصوف عقلي.

<sup>1</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ج 2، ص 584.

<sup>2</sup> - د عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3 / 1420هـ 2000م، ص 318

فالتصوف الروحي يقوم على الزهد والتقشف وقهر النفس ومجاهدتها وتصفيتها  
بضروب من الحرمان والتعذيب، تنتهي بها إلى أحوال و مواجيد، لا يمكن التعبير  
عنها بالألفاظ. ويكاد أقطاب الصوفية يتفقون على أن غاية التصوف الروحي إنما هي  
الفناء في أنفسهم والبقاء في الله، واتحاد العبد بالمعبود والرب بالمر بوب. ولا دخل  
للعقل و التأمل والتفكير المجرد في تحقيق هذه الغاية. أو على الأقل أنها تأتي في المرتبة  
الثانية.

[ ويبدو أن هذا النوع هو الأكثر انتشارا في الوسط الإسلامي، كونه يعتمد التقشف،  
والزهد في بهرج الدنيا، ولأنه يناسب نفسية الجماهير العريضة التي صدمت بجشع  
الحكام ونهمهم.]

أما التصوف العقلي فإن أدواته هي التأمل والتفكير والنظر العقلي المجرد. فبالعلم  
يصبح العقل الهولاني\* الذي حصلت فيه المعقولات ،عقلا بالفعل ثم يصبح بالتعقل  
الدائم والتفكير المتصل عقلا مستفادا يشرق عليه العقل الفعّال ، فيتحرر من المادة  
وتتجلى فيه الحقائق العلوية ويتلقى الفيض والإلهام . أما التقشف والحرمان وتعذيب  
البدن فأمور ثانوية تأتي في المرتبة الأخيرة.<sup>1</sup>

وهذا النوع منه هو تصوف الخاصة من العلماء وأهل الحكمة والرأي من الأمة .

قال الشيخ علي السراج الطوسي(ت378هـ)وهو أول من أرخ للتصوف<sup>2</sup> :

<sup>1</sup> - د عبد الرحمن مرجبا : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، ص 452.

<sup>2</sup> - د مصطفى غلوش: التصوف في الميزان، ص 40.  
\*الهولاني: هو قوة للنفس مستعدة لقبول ماهيات الأشياء مجردة عن المادة، ع المنعم الحفني: المعجم الشامل  
لمصطلحات الفلسفة، ص 915

"سألني سائل عن البيان عن علم التصوف، ومذهب الصوفية، وزعم أن الناس اختلفوا في ذلك: فمنهم من يغلو في تفضيله ورفعه فوق مرتبته، ومنهم من يرى أن ذلك ضرب من اللهو واللعب وقلة المبالاة بالجهل... فأقول وبالله التوفيق:

إن الله تبارك وتعالى، أحكم أساس الدين، وأزال الشبهة عن قلوب المؤمنين بما أمرهم به من الاعتصام بكتابه، والتمسك بما وصل إليهم من خطابه، إذ يقول جل جلاله: "واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" [آل عمران: 103]... وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "العلماء ورثة الأنبياء" وعندي - والله أعلم - أن أولي العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء، هم المعتصمون بكتاب الله تعالى، المجتهدون في متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثلاثة أصناف: أصحاب الحديث، والفقهاء، والصوفية... [وبعد حديثه عن طبقات أصحاب الحديث، الفقهاء عقد باباً تحدث فيه عن طبقات الصوفية ومجاهداتهم في العبادات فقال:] وليس من مذهبهم النزول على الرخص وطلب التأويلات والميل إلى الترفه والسعات وركوب الشبهات، لأن ذلك تهاون بالدين وتخلف عن الاحتياط، وإنما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم في أمر الدين...

ثم إنهم من بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية، وتعلقوا بأحوال شريفة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات والأخلاق الجميلة،...<sup>1</sup>

إن اختلاف الناس في أمر الصوفية نابع من سلوك بعض الصوفية الذي قد باين

<sup>1</sup> - أبو نصر عبد الله علي السراج الطوسي: الممّع في تاريخ التصوف الإسلامي، تح: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دت، ص 9-15.



- إلى حد ما - الزهد المأثور عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحبه -  
رضوان الله عليهم - أو أنه نابع من اختلاف رؤاهم في ذلك. وهو ما جعل دارسي  
التصوف يجعلونه أصنافا وأنواعا استخلصوها من سلوك الصوفية وما يقولون به  
من اعتقادات. فاستخلصوا من أنواعه :

التصوف السني، والتصوف السلفي، والتصوف الفلسفي، والتصوف الإشرافي.

أما ابن خلدون [732 - 808 هـ]، 1332-1406 م فيعدّ التصوف فرعا من

العلوم الشرعية الوثيقة الصلة بحياة المسلمين الأوائل. يقول في صدر حديثه عن

التصوف: " هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة. وأصله أن طريقة

هؤلاء القوم، لم تنزل عند سلف الأمة، وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن

بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله

تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من

لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة، وكان ذلك عاما في

الصحابة والسلف.<sup>1</sup>

وعن سر انتشار التصوف يرى أن ذلك عائد إلى إقبال الناس على الدنيا بدءا

من القرن الثاني الهجري، حين توسعت الفتوحات الإسلامية، وشاع البذخ رغد

العيش في قصور الخلفاء والأمراء وحاشيتهم، نتيجة لتدفق الأموال تباعا من

البلدان المفتوحة إلى خزائنهم. وقد استتبع ذلك الترف انحرافات في سلوكهم

وسلوك المجتمع، انحرافا ناقض القيم الإسلامية المأثورة عن السلف الصالح.

<sup>1</sup> - ابن خلدون: المقدمة ج 1 ص 584. - 2- د.عاطف جودة نصر: شعر عمر بن الفارض، دار  
الأندلس، بيروت، ط1/1402 هـ-1982 م، ص13، نقلا عن (رينولد نيكولسن): في التصوف الإسلامي وتاريخه، 20.

فظهر التصوف كسلوك رافض لتلك الانحرافات، ويعمل على الحد من خطرهما،  
ببعث القيم الفضيلة وإشاعة العبادات والتفاني فيها، أملا في الفوز بالنعيم لأبدي  
التمثل في النجاة من النار والفوز بالجنة.

في حين يرى (جولدتسيهر)نشأته قد " ارتبطت بالمبالغة في الشعور بالخطيئة  
والرعب الذي استولى على قلوب المسلمين من عقاب الله وعذاب الآخرة." <sup>1</sup>  
ومن حيث دور التصوف في حياة الفرد والجماعة من الأمة، فإن آراء العلماء في  
ذلك قد تباينت تباينا شديدا؛ منهم من يراه منهجا قويا لتهديب النفس وحملها  
على الطاعة للوصول بها إلى مستوى التكريم الذي حباها به المولى عز  
وجل، وتحقيقا للطمأنينة النفسية للمجتمع أفرادا وجماعات.

ومنهم من يراه سلوكا معطلا لرسالة الإنسان المتمثلة في السعي لعمارة الأرض  
وفق ما يحقق سعادة الدارين. والحق أن التصوف الإسلامي السني لا يمكن أن  
يعيق المسلم عن رسالته اللهم إلا إن كان التصوف من قبيل الدروشة  
والرهبانية.

يقول الدكتور مصطفى غلوش: " ما نعرف قضية اختلف حولها الناس مثل  
قضية التصوف ، وليت الاختلاف كان هينا كما يلمح في كثير من القضايا...  
فتعكف على التقريب، والتوفيق والتحليل و المواءمة، ولكن الاختلاف هنا بين  
شاسع لدرجة أن الكثير من الناس يعتقد أن السلوك الصوفي هو قمة المنهج  
الذي يوصل إلى منهج الله تعالى. بينما نجد من يعتقد - وهم كثرة - أن السلوك

---

<sup>1</sup> -د،عاطف جودة نصر : شعر عمر بن الفارض، ص 10.

الصوفي هو قمة المنهج الذي يبعد عن منهج الله تعالى " <sup>1</sup> .

يؤكد اختلافَ الناس في أمر التصوفِ صاحب كتاب "اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي" ويرجع هذا الاختلاف إلى عدم اتضاح ماهية التصوف عند المتكلمين فيه ، لتباين منطلقا تهم في تعريفه .

فأبو القاسم الجنيد (297 هـ / 910م) يعرفه انطلاقا من جانبه العملي فيقول :

" التصوف ذكر مع اجتماع . ووجد مع استماع . وعمل مع إتباع "

ثم عرفه معتمدا على الجانب الأخلاقي ، فقال : " التصوف : " أخلاقية كريمة .

ظهرت في زمان كريم . من رجل كريم . مع قوم كرام . "

ومن نفس المنطلق عرفه سيدي أبو بكر الكتاني البغدادي [ت 322هـ] بقوله:

" التصوف : خلق . فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء . " <sup>2</sup>

ومنهم من عرفه انطلاقا من فكرة الفناء كتاج الصوفية، أبو بكر الشبلي البغدادي ( 247

- 334 هـ) ترقى في مناصب الدولة حتى عين واليا على نهاوند والبصرة ، ثم تصوف

فاعتزل ذلك . سئل عن سر تسمية الصوفية بهذه التسمية ؟ فقال : " لبقية بقيت عليهم

ولولا ذلك ما تعلقتم بهم تسمية . " <sup>3</sup>

ومنهم من عرفه من حيث الأحوال حيناً ، ومن حيث المقامات أو الوصول أحيانا

أخرى . لذلك تعذر الوقوف على تعريف جامع أو متقارب ، فلكل إنسان رؤيته الخاصة .

<sup>1</sup> - د ، مصطفى غلوش : التصوف في الميزان ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، الفجالة القاهرة (د ت) ص 3.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه ، ص 44.

<sup>3</sup> - د ، جودة محمد المهدي : أعلام الصوفية ، دار غريب القاهرة ، ط 1 / 1418 هـ 1988 م ص 370.

يبقى التصوف بصفة عامة هو الصلة الروحية التي تربط الإنسان بالله تعالى حسب  
مناهج تعبدية مختلفة خارجة عن نطاق التكليف العام، انجذاباً منه لله تعالى ، فيكثر من  
الطاعات ويزداد تخلقا بالأخلاق الكريمة .

والتصوف من حيث المصدر نوعان؛ تصوف إسلامي ، وتصوف دخيل .  
فالتصوف الإسلامي " حركة روحية تعبدية تقوم على فكرة عبادة الله تعالى خضوعاً  
لفريضة الكيف وإن كانت تزيد في الكم مع احترامها للتكاليف الشرعية كما وكيفا".  
والتصوف الإسلامي يمكن اعتباره مدرسة، تمنح الدين مدعوماً بالعلم، متكاملًا معه،  
فتخرج فيها علماء ورعون.

يقول الدكتور عامر النجار عن دور الصوفية في معالجة النفس وقمع  
شروورها: " وسنكتشف بإذن الله تعالى كيف كان هؤلاء الصوفية العظام أطباء  
نفوس عرفوا أن النفس قاعدة السوء ونبع الشر ومصدر الكبر والعجب والحسد  
والغضب والحقد وكل الرذائل. " <sup>1</sup>

هذا ولم يقتصر فهم الصوفية على معرفتهم الدقيقة بالعقل والقلب والنفس، بل كان لهم  
فهمهم العميق لبعض الألفاظ النفسية وتحليلاتهم الممتازة للخواطر والهواجس والغرائز.  
وقبل (يونج) بعشرة قرون تحدث سهل بن عبد الله التستري [الذي ولد سنة مائتين  
للهجرة، وهو إمام عصره في العلوم والمعارف وأوحد أهل زمانه في الورع  
والمجاهدات] عن اللاشعور الجمعي وسماه " كلية القلب " أو " سويداء القلب " أو "  
جمهور القلب".

<sup>1</sup> - د ، عامر النجار : التصوف النفسي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 2002 ص 9 .

ثم كان اكتشافنا أن الترمذي - أحد أقطاب الصوفية في القرن الثالث الهجري - سبق

فرويد بعشرة قرون بالحديث عن نظرية " ثنائية الموت والحياة " .

وسبق صوفية القرن الثالث الهجري "كارل يونج " حين أكدوا أن الدين علاج للنفس

أكيد، لأنه يمكن الإنسان من تغيير نفسه وتجديدها وإصلاحها .<sup>1</sup>

وعن دور العبادة في علاج التوتر والقلق ، وإشاعة الطمأنينة في النفس، والرضا

بما هو كائن - قلّ أو أكثر- يقول الدكتور عثمان نجاتي في كتابه "القرآن وعلم

النفس " عن دور الصلاة : " إن وقوف الإنسان في الصلاة أمام الله عز وجل

في خشوع و تضرع يمدّه بطاقة روحية تبعث فيه الشعور بالصفاء الروحي

و الاطمئنان القلبي والأمن النفسي...وفي الصلاة ينصرف الإنسان عن مشكلات

الحياة وهمومها ، وعدم التفكير فيها ، ووقوفه في خشوع وخضوع تام أمام ربه،

يبعث فيه حالة من الاسترخاء والهدوء النفسي وراحة العقل ، ولهذه الحالة من

الاسترخاء والهدوء النفسي التي تحدثه الصلاة أثرها العلاجي الهام في تخفيف

حدة التوترات العصبية الناشئة عن ضغوط الحياة، وفي خفض القلق الذي يعاني

منه بعض الناس، ولذا فإن الصلاة راحة عميقة للنفس والقلقة والقلب المضطرب.

يقول تعالى : " واستعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين."<sup>2</sup><sup>3</sup>

إن القول بنجاعة الدين في علاج كثير من الأمراض النفسية والقلبية، مطرد عند

العلماء المسلمين عامة والصوفية خاصة.

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 10.

<sup>2</sup> - سورة البقرة:آية153.

<sup>3</sup> - د، عامر النجار: التصوف النفسي، ص93.

يقول ابن القيم في محاولة علاج بعض أمراض القلوب: " القلب يمرض كما يمرض البدن، وشفائه في التوبة والمحبة، ويصدأ كما تصدأ المرأة، وجلأؤه بالذکر، ويعرى كما يعرى الجسم، وزينته التقوى، ويجوع كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل و الإنابة والخدمة".<sup>1</sup>

لقد كان القرآن الكريم هو النبع الصافي الذي اغترف منه الصوفية شتى المعارف المتعلقة بالنفس والروح والقلب وغيرها من المصطلحات المتصلة بالإنسان، والتي استوقفت الفلاسفة قديما وحديثا. ولئن كانت دراسات الفلاسفة لها محدودة بحدود المنطق والعقل، فإن الصوفية ربطوا العقلية المجردة بالعقلية الدينية والوجدان، فوفقوا فيما ذهبوا إليه أكثر من غيرهم.

إن التواضع وكتمان التجليات التي تنجم عن رياضة النفس ومجاهدتها، ميزة الصوفيين السنيين. لقد رام أبو حامد الغزالي " درجة الإحسان " فتصوف من أجلها عشر سنوات في مئذنة المسجد، فلما عاد إلى الناس في صورة شخصه العادي، سأله عما وجدته أثناء عزلته تلك، فأجاب بقوله:<sup>2</sup>

فكان ما كان مما لستُ أذكره      فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

ذكر ابن خلدون أن عظماء التصوف لا يخبرون عن شيء مما يتكشف لهم من حقائق الوجود أثناء مجاهداتهم، أو خلواتهم، مما ليس لغيرهم من الناس فيه نصيب.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 65 .

<sup>2</sup> - د جودة محمد أبو اليزيد المهدي: أعلام الصوفية، ص 382.

<sup>3</sup> - ابن خلدون: المقدمة، ج، 2، ص 587.

أما التصوف الدخيل فيقوم على أسس من الخرافة والجهل والوهم، ويعود في أصوله إلى معتقدات هي خليط من الوثنية والديانات المحرفة، لا يقبلها العقل السليم. وقد أطلق على هؤلاء الأدعياء اسم " المتصوفة "

والصوفيون الحقيقيون يعترفون بتسلل بعض المغرضين إلى حلبتهم لأغراض متعددة، فادعوا من الكرامات والخوارق ما يبعث على العجب.

يقول الدكتور مصطفى غلوش جوابا عن سؤال ما الغرض من وراء جهر المتصوفة بما يتكشف لهم؟: " إن ما يعلنوه من [حيثيات] للجهر بأنه علاقة بين [محب ومحبوب] .فإننا لو صدقناهم نجد عند المقارنة أننا لا نستطيع إلا أن نضعهم في مصاف العابدين الذين خانوا أمانة [الكشف] . أما إذا كان تصريحهم لغرض آخر .. فإننا بكل قوى النفس التي تحسن الظن في المسلم. نقول: إننا نعتقد أن التصريح بهذه الأقوال التي لم ترد في كتاب الله ولا سنة رسوله الكريم، ولا عن السلف الصالح، من أمثال القضايا التي توهم " الحلول " و " الفناء " و " تشبيه الخالق بالمخلوق " . إن أفاد هذا التصريح " شخص " المجاهر... فإن التصريح نفسه يضر بجانب ذلك الغالب الأعم من " عوام " المسلمين الذين قد يفتنون في شخص المجاهر، خاصة إذا استحضرننا هنا أن النفس البشرية عموما مستعدة لتلقي الافتتان من منطلق الدين، وإن قيام عمر بن الخطاب بقطع الشجرة التي بويع تحتها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما وجد المسلمين يذهبون إليها طلبا للبركة : لخير دليل على استعداد النفس البشرية للافتتان .. " <sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> - مصطفى غلوش: التصوف في الميزان ، ص 31- 32 .

هذا ما ذهب إليه أبو حامد الغزالي بالبيت المشار إليه سابقا، و من نهج نهجه من صوفي الإسلام .

يقول ابن خلدون في هذا السياق : " وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ، ولا هذا النوع من الإدراك ، إنما همهم الإتيان والافتداء ما استطاعوا . ومن عرض له شيء من ذلك أعرض عنه ولم يحفل به، بل يفرون منه ويرون أنه من العوائق والمحن، وأنه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان .  
وعلم الله أوسع..."<sup>1</sup>

هكذا يحرص المتصوف على الكتمان والتواضع، طلبا لدرجة الإحسان بتواضع في الذات وسمو في الروح. فيعليه تواضعه ويدنيه سموه.  
من أعلام الصوفية :

- الحسن البصري [31 - 110 هـ] كان أول من لهج بعلم التصوف وأظهر معانيه
- الحارث المحاسبي [165-243 هـ] لقب بالمحاسبي لكثرة محاسبته نفسه .
- ذو النون المصري [180 - 245 هـ] تكلم عن الحب ورتب الأحوال والمقامات .
- أبو يزيد البسطامي (188 هـ - 261 هـ) ومن شعره في الوجد :  
عجبتُ لمن يقول ذكرتُ ربي وهل أنسى فأذكر من نسيت  
شربتُ الحبَّ كأسا بعد كأس فما نفذَ الشرابُ ولا رويت<sup>2</sup>
- الحسين بن منصور الحلاج [244-309 هـ] ذروة المتصوفين، قتل لقوله بالإتحاد.

<sup>1</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 596.

<sup>2</sup> - د ، جودة محمد أبو اليزيد المهدي : أعلام الصوفية ، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ط 1  
1418/1998م ، ص 298 .



ومن متصوفي المغرب المذكورين في الرسالة القشيرية :

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي. (ت 299هـ). قال عنه أنه كان أستاذ

إبراهيم بن شيبان، وتلميذ علي بن رزين، وكان عجب الشان لم يأكل مما

وصلت إليه يد بني آدم سنين كثيرة، وكان يتناول من أصول الحشيش أشياء

تعود أكلها.<sup>1</sup>

- أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي (ت 373هـ) قال عنه: "إنه واحد عصره،

لم يوصف مثله قبله. صحب ابن الكاتب، وحببها المغربي، وأبا عمرو الزجاجي،

ولقي النهر جوري وابن الصائغ وغيرهم."<sup>2</sup>

- أبو عبد الله محمد بن أحمد السوسي (ت 299هـ).<sup>3</sup>

هذه المذاهب والنزعات سنجد بعضها منها ينتقل إلى المغرب بطرق مختلفة

و درجات تختلف قوة وضعفا. فإن انتقل الزهد والتصوف بكثافة وعمق مع طلائع

الفاحين الأولين والعلماء الزاهدين، رفقة المذهب السني المالكي فتأصل في نفوس

المغاربة ليطبعا بطابع البساطة والوضوح والصدق، التي غدت من أوضح ملامح

المجتمع المغربي الأصيل.

وإذا كان هذا حال المذهب السني، ونزعتي الزهد والتصوف في المغرب فإننا نجد

حال بقية المذاهب لم تعرف في هذه الربوع أي استقرار، فهي قد طرأت على بعض

نواحي هذا الإقليم مع الطوارئ، فلما ذهب تلك الطوارئ ذهبت معها إلا ما تأقلم منها

<sup>1</sup> - الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، ج 1 ص 99.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 144.

<sup>3</sup> - المالكي: رياض النفوس، ج 1 ص 196.

مع المذهب السني كـ(الإباضية) التي تعايشت والمذهب السني إلى درجة أن عدت  
منه. أما ما سواها من الفرق الغالية ذات المرجعيات الغربية عن الإسلام فلم تعتب هذه  
الأرض إلا ما كان من المذهب الشيعي الذي جاء باسم الولاء لآل البيت، فاحتضنه  
المغاربة وجاهدوا له فمكنوه ومكنوا دعواته، فلما تكشّف لهم غي ولاته تبرؤا منهم  
ومن مذهبهم فحاربوهم وقتلوهم إلى أن رحلوا.

## الفصل الثالث :

مظاهر التواصل وانتقال المذاهب والنزعات من المشرق إلى المغرب

أولاً: الفاتحون المجاهدون

ثانياً : دور المساجد

ثالثاً : الإقامة بالمغرب

رابعاً: وفادة العلماء

خامساً: رحلات الطلبة المغاربة

سادساً: الحج والعمرة

سابعاً : الكتاب

إن التواصل بين المغاربة و المشاركة قائم منذ القدم ، واتضح أكثر منذ مجيء الفينيقيين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى سواحل الشمال الإفريقي كتجار أقاموا الموانئ والمراكز التجارية، انبثقت عنها حضارة تحمل طوابع الشعبين الفينيقي والبربري، وتحمل سمات التقارب القائم بينهما، و بعد الفتح الإسلامي توطدت العلاقات بين المغاربة و المشاركة، وقوي ذلك التواصل، وتعددت وسائله، كما تعددت أسبابه وأغراضه. واتصل حتى جعل من شعوب الإقليمين؛ المغرب والمشرق شعبا متجانسا متأخيا يمثل القوة الحامية لثوابت الأمة الإسلامية. ومن تلك الطرق التواصلية أذكر :

**أولا: الفاتحون المجاهدون :**

حملة الدين الإسلامي واللغة العربية وآدابها. وقد بدأت طلائعهم الأولى منذ سنة خمس وعشرين هجرية (25هـ) وكان ضمن تلك الطلائع الأولى عدد من الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - . قال أبو العرب: " دخل إفريقية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وحمزة بن عمرو الأسلمي، و سلمة بن الأكوع، وبلال بن الحارث المزني، وكعب بن عمرو، وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وربيعة بن عباد الديلي، وزيايد بن الحارث الصدائي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري، ومعاوية بن حديج، وبسر بن أرطاة، ويقال، ابن أبي أرطاة، وقد جعل له مسندا غير واحد من المحدثين، وأبو زمعة البلوي، و بها مات<sup>1</sup> "

---

<sup>1</sup> - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية و تونس ، ص 73-76 .

وليس هؤلاء فقط هم من دخل إفريقيا من صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -  
فقد "ذكر عيسى بن محمد بن أبي المهاجر، أنه رأى في كتاب "السوسي" أن عبد الله  
بن سعد كان على مصر- والخليفة عثمان - فخرج عبد الله على إفريقيا في جيش  
أكثرهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم".<sup>1</sup>

إن التأكيد على وجود عدد كبير من الصحابة - رضوان الله عليهم - ضمن الفاتحين  
الأوائل للمغرب إنما جاء ليبين أن التواصل الأول كان إسلاميا في أسمى صورته، مما  
سيجعل أثره عظيما في نفوس سكان هذا الإقليم؛ سواء من حيث إقبالهم على اعتناق  
الإسلام كشرعية وسلوك - لأن جل أولئك الصحابة والتابعين كانوا في إسلامهم على  
نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم . - أو من حيث تلقيهم اللغة العربية، قرآنا وحديثا  
وأدبا، مباشرة من أفواه أبنائها. الأمر الذي مكن المغاربة من النبوغ المبكر في  
المجالين، الديني والأدبي.

### ثانيا : دور المساجد :

لم يكن المسجد مكانا للعبادة فحسب، بل كان إلى جانب ذلك مدرسة لتعليم  
المبادئ الدينية؛ من عقيدة وفقه وتحفيظ للقرآن الكريم والحديث الشريف  
وتفسيرهما، ثم تمكين الناس - بالتدرج - من شتى المعارف الشائعة وقتذاك،  
من لغة وأدب وتاريخ، وحساب ومنطق وغيرها من المعارف التي  
تتزايد وفق سنن مطردة. يتولى ذلك في الحواضر الكبرى إمام يعين

---

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 78.

من قبل الوالي أو من يقوم مقامه. ويتولى إلى جانب إمامة الناس وتعليمهم المعارف المشار إليها أمر القضاء بين الناس .

### ثالثاً: الإقامة بالمغرب :

نظراً لحرص الخلفاء على استمرار التواصل بين المشرق والمغرب دعماً للإسلام وتوطيدا لأواصر الأخوة بين المؤمنين " إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون."<sup>1</sup> ونظراً لما يتوفر عليه المغرب من خيرات، إلى جانب التوافق بين أمزجة المغاربة والفاثحين من عرب وغيرهم شجع الخلفاء عملية انتقال الأفراد والأسر من العرب وغيرهم من مسلمي المشرق، للإقامة في ربوع المغرب، بل حفزوا على ذلك منذ الفتح النهائي للمغرب. فكان لأولئك المقيمين في المغرب الأثر الإيجابي في ترسيخ الثقافة العربية والإسلامية. إذ كان من بينهم الجندي والفقير العالم، والأديب الشاعر والزاهد والمتصوف، والسني وغيرهم.

### رابعاً: وفادة العلماء :

بدأت وفادة العلماء إلى المغرب لتعليم الناس أمر دينهم منذ أولى طلائع الفتح ، غير أن الوفادة الأكثر تمكينا للدين من قلوب المغاربة هي تلك التي بعث بها الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز- رضي الله عنه - سنة مائة من الهجرة ، فقد " اختار من التابعين

---

<sup>1</sup> - سورة الحجرات: آية 10

الذين يثق بعلمهم وفضلهم وحزمهم عشرة فقهاء بعث بهم إلى إفريقية، جاعلا من بينهم إسماعيل بن أبي المهاجر واليا عليهم." <sup>1</sup>

وقد جعلهم المالكي ضمن الطبقة الأولى من علماء مدينة القيروان، عاصمة المغرب. وهم : أبو عبد الرحمن الحُلبّي واسمه عبد الله بن يزيد المعافري. وأبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي، وإسماعيل بن عبيد الأنصاري، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التتوخي، وموهب بن حي المعافري، وحبان بن أبي جبلة القرشي، وأبو ثمامة بكر بن سودة الجذامي، وأبو سعيدُ جعثل بن هاعان بن عُمير بن اليثوب، وأبو عبد الحميد إسماعيل بن عبيد بن أبي المهاجر القرشي، وطلق بن جابان الفارسي - رضي الله عنهم جميعا - <sup>2</sup>

وقد أخذ العلم عن هؤلاء عدد من الرجال المغاربة الأصل أو ممن قدم المغرب واتخذة دارا، فصاروا فيه أعلاما مشاهير. كعبد الرحمان بن زياد بن أنعم المعافري، عالم ومحدث ولي قضاء القيروان مرتين؛ أولاها في ولاية مروان بن محمد الجعدي، وثانيهما في ولاية أبي جعفر المنصور، وزياد بن مسلم الغفاري، وأبي غطيف الهذلي، وسلمان بن عامر السفيناني، ومسلم بن يسار، وميسرة الزرودي، وابنه بشر وغيرهم. <sup>3</sup>

### خامسا : رحلات الطلبة المغاربة :

لم يكتف الطلبة المغاربة بما ينقل إليهم من آداب المشاركة ومعارفهم وأخبارهم، عن طريق القادمين ، بل كانوا يسافرون إلى المشرق، فيغترفون من

<sup>1</sup> - عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ، الدار التونسية للنشر ط 2 / 1985 ص22.

<sup>2</sup> - المالكي : رياض النفوس ، ص 99-118 .

<sup>3</sup> - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس ، ص 90-95 .

مناهل العلم وموارده ما شاءوا، ثم يعودون إلى أوطانهم علماء وأدباء، ليسهموا في نشر الدين وإقامة النهضة العلمية والأدبية، التي ما لبثت أن شاركت المشرق في إقامة صرح الحضارة الإسلامية ذات اللسان العربي. ومن هؤلاء سابق بن عبد الله البربري المكنى أبو سعيد، سكن دمشق ونبغ في الشعر، وعبد الله بن فروخ أحد أعلام إفريقية، وثالث اثنين لم يكن بإفريقي أعلم منهم في زمانهم، وبكر بن حماد التيهرتي .

#### سادسا: الحج والعمرة:

إن لهتين الشعيرتين الأثر العظيم في حياة الأمة الإسلامية مصداقا لقوله عز وجل " وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ،ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير"<sup>1</sup> .

فقد مثل الحج - زيادة عن دوره التعبدي - مظهرا من مظاهر التواصل الحضاري والثقافي المستمر بين المغاربة والمشاركة، تتفاعل فيه الأفكار، سياسية وفكرية، ومذهبية منذ قيامه. ولعل استقدام الحجاج الكتاميين لأبي عبد الله الشيعي سنة 280 هـ لصورة حية لبعض ما ينبثق عن موسم الحج .

---

<sup>1</sup> - سورة الحج آية 27-28.



## سابعا: الكتاب:

لعب الكتاب - على أي صورة كان - دورا في نقل الأفكار من بلد إلى آخر، وقد سهل العملية ويسرها اتخاذ المغاربة العربية لغة رسمية بنسبة عالية . في دواوين الدول - وإن كانت بربرية - وفي المدارس والمساجد، والمراسلات، هي لغة الإبداع الأدبي والتأليف العلمي . فتأسست لذلك في الحواضر الكبرى مثل طرابلس، والقيروان وتونس، وتيهرت و بجاية وتلمسان، وفاس و سجلماسة، وقرطبة وقرطبة، وغيرها مكتبات عامة يقصدها طلبة العلم للاستفادة منها، كما أن هناك مكتبات خاصة أنشأها الولاة والأمراء والأعيان ذوي الميل العلمي والأدبي، كل ذلك أدى إلى نبوغ عدد غير قليل من الشعراء والأدباء كانت لهم مؤلفات ، لا تزال شاهدة على كرم العطاء المغربي. كما أثمرت - تلك الحركة العلمية - تيارات أدبية ومذهبية، استدعت ظهور المجالس الأدبية، وقيام مناظرات، في المساجد ومجالس الأمراء والأعيان ، كانت ميدانا لتنافس أهل المواهب في العلم والأدب. وبخاصة بين أهل السنة وممثلي المذاهب؛ من خوارج، ومعتزلة وشيعة. من تلك المناظرات التي بينت قدرة علماء المغرب على مناظرة الوافدين من أهل المذاهب الأخرى ، مناظرة أبي عثمان سعيد بن محمد بن الحداد القيرواني لأبي عبد الله الشيعي داعية عبيد الله المهدي ، والتي سأوردها في السياق المناسب لها إن شاء الله.

كل هذه الوسائل وغيرها ستؤدي إلى تفاعل كبير، بين إقليم المغرب - كمتبنٍ لثقافة جديدة - ، وبين إقليم المشرق، تفاعل سيلا مس الأدب والعقيدة والفكر،

والسياسة، هذا التفاعل سوف ينجم عنه في بعض الأحيان صراع، يشتد حيناً، فيصل إلى حد تكفير فريق لآخر أو طائفة لأخرى، وربما أدت حدته إلى امتشاق السيف وخوض حروب، ويفتر أحياناً أو يخبو، فإذا القوم إخوة كرام متحابون. إن التفاعل الذي يهدف البحث إلى تتبع واستجلاء، أهم وجوهه وصوره، هو التفاعل القائم بين النزعات المذهبية والروحية، وبين الشعر كفن ممتع، له أسسه وطقوسه وقيمه. ويتتبع ذلك على أرض مغربنا الكبير، وإن شسع، وعبر ثلاثة قرون من الزمن؛ من القرن الثاني إلى القرن الرابع الهجري، وهو زمن التكون والتألق في نفس الوقت.

وباعتبار الحياة لا تقوم على الفصل بين عناصرها، وكذلك الشعر، أجدني مضطراً - بين الفينة والأخرى - إلى توظيف الجانب الاجتماعي أو السياسي أو النفسي أو غيرها، لتفسير الفكرة أو الصورة أو الظاهرة. أو بتعبير أدق سأجدني ملزماً بتوظيف عدد من المناهج الشائعة في دراسة النص الشعري، لأن الشعر عمل معقد، لا يمكن لمنهج واحد سبر كل أغواره وأبعاده. يقول عز الدين إسماعيل عن الشعر المعاصر: " يرتبط الشعر المعاصر بالإطار الحضاري العام لعصرنا في مستوياته الثقافية والاجتماعية والسياسية المختلفة. وهو في هذا الارتباط ليس جديداً وليس بدعاً؛ فقد كان الشعر دائماً معبراً عن روح الإطار الحضاري المتميز في كل عصر. ومن ثم يعد كل الشعر عصرياً بالقياس إلى عصره. " <sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> - د، عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، دار العودة بيروت ط 3 / 1981ص.16

## انتقال المذاهب والنزعات إلى المغرب وأثرها في الشعر:

نتج عن تعدد وسائل التواصل بين المغرب والمشرق وتتنوعها، أن صار

كالبلد الواحد، ينتقل الأفراد والجماعات فيهما بحرية وأمان، بل الأمان في

المغرب أوفر من المشرق لكثير من الأفكار والأفراد، نظرا لبعده عن مركز

السلطة.

لم يكن المسجد في الإسلام مكانا للصلاة والعبادة فحسب، إنما كان إلى جانب

ذلك مكانا للعلم، وملتقى للفكر ومجلسا للقضاء، فكان لذلك دوره عظيما في حياة

الأمة.

إن منطلق الحياة العقلية والفكرية في المغرب كان من مسجد القيروان مع بداية

النصف الثاني من القرن الأول الهجري، ليعم شعاعه بعد ذلك - و شيئا فشيئا - كل

المغرب ، بل وحتى جنوب غرب أوروبا ، الأندلس مع نهاية القرن الأول الهجري،

بفضل تعدد المساجد وتنوع أنشطتها ، استجابة لمتطلبات المجتمع و مستجداته ،وتفاعلا

مع البئات الإسلامية الأخرى . فتأسست بذلك ثقافة تحمل طابع الشخصية المغربية،

والتي من أبرز سماتها المواءمة بين أبناء المغرب الأصليين وبين الفاتحين والوافدين

من الشرق.

إن أول مذهب تلقاه المغاربة منذ طلائع الفتح الأولى، هو المذهب السني،

أو مذهب الجماعة، تلقوه عن الصحابة والتابعين - رضوان الله عليهم - الذين

كتب لهم دخول المغرب فاتحين ، أو مبعوثين لتفقيه الناس ،كالعشرة الذين

بعثهم الخليفة عمر بن عبد العزيز، على رأس القرن الأول الهجري . وبذلك

أخذ المغاربة إسلامهم من موارده الصافية، نسا وتطبيقا، مما سيكون له الأثر الحسن في نفوس المغاربة، من محبة للدين وإخلاص له، وتعلق بمذهب السلف الصالح. فأقبلوا بشغف كبير على حفظ القرآن الكريم وتفسيره ، ورواية الحديث والسير، والفقه والأخبار، والعقيدة واللغة وآدابها.

ولم يكتف المغاربة بأخذ العلم الديني عن القادمين من المشرق بل انتقل الكثير منهم إلى المدينة المنورة حيث الدين صافيا كما في القرآن مشروحا بالحديث " فأخذوا الحديث عن أقرب الناس إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأكثرهم تمسكا بمثله العليا، فوجدوا بقية من الصحابة ونفرا من التابعين يلقنون الناس أصول الإسلام... وجدوا عبد الله بن عمر ، وعبد اله بن عمرو، وأباهريرة ، وأنس بن مالك..."<sup>1</sup> أخذوا عن هؤلاء وعن غيرهم من مشاهير العلم والدين وعلى رأسهم الإمام مالك - رضي الله عنه - إمام دار الهجرة، من هؤلاء عبد الله بن فروخ الفارسي، وأبو زكرياء يحيى بن السلام البصري التميمي، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم، وروا عن مالك بن أنس وعن سفيان الثوري، وغيرهما من شيوخ حواضر المشرق. ولا يتأخر أولئك الطلاب العلماء عن العودة إلى وطنهم - عدا القليل - للمشاركة في نشر العلم والمعرفة . وكانت القيروان - وفي زمن قصير- من بين أولى حواضر العلم والأدب في العالم الإسلامي. ولتقريب صورة ذلك الازدهار أذكر قول أبي زكرياء يحيى بن السلام حيث قال : "أحصيت بقلبي من لقيت من العلماء فعددت ثلاثمائة وثلاثة وستين عالما، سوى ،التابعين ، وهم أربعة وعشرون، وامرأة تحدث عن عائشة رضي الله عنها "<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص 36.  
<sup>2</sup> - المالكي : رياض النفوس ج 1، ص 188.

وإذا كان الإلمام بتلك الكثرة من العلماء غير وارد، فإن الإشارة إلى بعضهم ممكنة .  
لعل تلك الكثرة هي التي فرضت على أصحاب التراجم فكرة الطبقات التي شاعت في  
المشرق والمغرب. ومن طبقات علماء المغاربة كتاب طبقات أبي العرب،  
وكتاب رياض النفوس للمالكي. ولعل من علماء الطبقة الأولى الجديرين  
بالذكر :

### 1- عبد الرحمن بن زياد بن أنعم

ذكر أبو العرب أنه ولد سنة 75 أو 74 وتوفي سنة 161 هـ، وأنه روى عنه  
الجلة من أهل المشرق: سفيان الثوري، وعبد الله بن لهيعة وعبد الله بن وهب  
وأبو عبد الرحمن المقرئ وغيرهم... " بقي بعاصمة الخلافتين، مدة ثم عاد بعد  
أن أذن له أبو جعفر المنصور. وفي ذلك قال معبرا عن أشواقه :

ذكرت القيروان فهاج شوقي وأين القيروان من العراق

مسيرة أشهر للعيس نسا على الإبل المضمرة العتاق

فأبلغ أنعما وبني أبيه ومن يرجى لها وله التلاقي

بأن الله قد خلى سبيلي وجد بنا المسير إلى مزاق<sup>1</sup> " 2

### 2- وخالد بن أبي عمران التجيبي ،

<sup>1</sup> - العيس : الإبل البيض التي يخالطُ بياضها شقرةً ، نَصًّا :سرعة السير، مَزَاق : فَحْصُ القيروان، شهر بذلك لأن السحاب يتمزق فيه .

<sup>2</sup> - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس، ص . 102

قال عنه صاحب الرياض: "كان من الراسخين في العلم، والعباد

المجتهدين، اشتهرت إمامته بالمشرق والمغرب ، سمع من جماعة من التابعين ، منهم  
...محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه. وسمع منه جماعة من أهل المشرق منهم  
يحيى بن سعيد و حيوه بن شريح ،... وروى عنه من أهل إفريقية عبد الرحمن بن  
زياد بن أنعم ... وكان مشهورا بإجابة الدعوة، وكان أكثر إقامته بتونس، وكانت وفاته بها  
سنة خمس ، وقيل سنة سبع وعشرين ومائة"<sup>1</sup> .

الطبقة الثالثة:

### 1 البهلول بن راشد الحجري

قال عنه المالكي: "فضله أشهر من أن يذكر .سمع من مالك والليث وسفيان  
والحارث بن نبهان ،وينس بن يزيد، وسمع بإفريقية من أنعم وموسى بن علي بن  
رباح. سمع منه سحنون ... ويحيى بن السلام... كان مولده سنة ثمان وعشرين  
ومائة. وتوفي رحمه الله سنة ثلاث وثمانين ومائة."<sup>2</sup>

ابتلي على يد أمير القيروان محمد العكي ،بالضرب بالسياط فبكى لذلك ابن فروخ جهرا  
فقال له البهلول: " ما أبكاك؟ يا أبا محمد ؛فقال :أبكي لظهر ضرب بغير حق فقال:  
قضاء وقدر."<sup>3</sup>

عبد الله بن عمر بن غانم،

قال عنه المالكي: "قاضي إفريقية ،وصاحب مالك بن أنس، رضي الله تعالى

<sup>1</sup> - المالكي : رياض النفوس ج1، ص.162.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 200.

<sup>3</sup> - القاضي أبو الفضل عياض: تراجم أغلبية، تح محمد الطالبي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية ، 1968م ص 38 .

عنهم. كان فضله وعلمه وورعه أشهر من يذكر وهو أحد الثقات والأثبات.

روى عن مالك وعليه معتمده ... كان مولده ومولد البهلول في ليلة واحدة،

سنة ثمان وعشرين ومائة، وقد كانت وفاته سنة تسعين ومائة، وصلى عليه

إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية، كان إذا دخل على مال رحمه الله وقت سماعه

أجلسه إلى جنبه ويقول لأصحابه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه " وهذا كريم في قومه " <sup>1</sup>.

الطبقة الرابعة:

أبو سعيد سحنون بن سعيد، (160 - 240 هـ)

قال أبو العرب : " من شيوخ أهل إفريقية، أبو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب

التنوشي ، ... اجتمعت فيه خلال قلما اجتمعت في غيره: الفقه البارع، والورع

الصادق، والصرامة في الحق، والزهادة في الدنيا، والتخشن في الملبس والمطعم،

والسماحة. كان ربما وصل إخوانه بالثلاثين ديناراً، وكان لا يقبل من أحد شيئاً، سلطاناً أو

غيره. ولم يكن يهاب سلطاناً في حق يقوله. سليم الصدر للمؤمنين، شديد على أهل

البدع. انتشرت إمامته بالمشرق والمغرب وسلم له الإمامة أهل عصره وأجمعوا كلهم

على فضله و تقدمته رحمه الله تعالى . <sup>2</sup>

تنقل من أجل العلم في بلدان كثيرة، وسمع من أعلام عصره بالمشرق والمغرب

، بإفريقية، ومصر، والمدينة، والشام ومكة. كان يقول : " أشقى الناس من باع آخرته

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 215 - 217.

<sup>2</sup> - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 184 .

بدنياه، وأشقى منه من باع آخرته بدنيا غيره." ذكر بعض من حضر مجلسه قول  
الشاعر:

عَجِبْتُ لِمُبْتَاعِ الضَّلَالَةِ بِالْهُدَى      وَلِمُسْتَتِرِي دُنْيَاهُ بِالدِّينِ أُعْجَبُ  
وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَيْنِ مَنْ بَاعَ دِينَهُ      بِدُنْيَا سِوَاهُ، ذَاكَ لِلْحَيْنِ أَقْرَبُ  
فأمر سحنون من حوله أن يكتبوهما.<sup>1</sup>

الطبقة الخامسة:

أبو عقال غلبون،

خرج من القيروان فأوطن الحرم وسكنه حتى مات به ساجدا خلف المقام .  
قال المالكي: وكان قد جر أذياله في الصبا، وأطال من عنانه في الهوى، منهمكا في  
البطالة، صاحب لهو وصبوة مع مروءة وفتوة. إلى أن تناهت حدود القضاء فشمروا  
عوى، وآثر ما يبقى على ما يفنى ، فبكى وناح على ما سلف من أيامه، وفارق من آثامه  
،صائما نهاره ،قائما ليله ،حتى كان يضرب به المثل في عبادته .<sup>2</sup>  
روى المالكي كثيرا من الأخبار التي تبين زهده واجتهاده من أجل النجاة والفوز،  
منها ما ذكره أبو القاسم الجوهري قال: حدثنا أبو علي الواسطي قال: لقيت إسحاق  
المقرئ بطرسوس قال لقيت أبا عقال بمسجد الخيف من "منى" وعليه خيشتان ،  
مؤتذرا بواحدة ومرتديا بالأخرى ،فقلت له : حدثني بأشد شيء مر عليك في الحجاز  
،وحوله جماعة يكتبون كلامه فقال: " كان معي سبعون صاحب ركوة ،فوقع القحط

<sup>1</sup> - المالكي: رياض النفوس، ج 1 ص 356 .

<sup>2</sup> - المصدر نفسه ج 1، ص 527.



فماتوا وبقي ستة أثر الضر فيهم، وبقينا ليلي لم نطعم، فوقع في سري أن آتي الركن  
فألتمه فلعلي أن أموت على ذلك قال فعانقته حبوا من الجوع. فطرات على قلبي  
أبيات فرجعت إلي نفسي، وهي:

عقدتُ عليك مكنات خواطري      عقد الرجاء فألزمتني حقوقا  
إن الزمان عدا علي فزادني      علما بأنك سيدي تحقيقا  
ما نالني ضر بوجه مساءة      إلا وجدت به إليك طريقا  
حسبي بأنك عالم بمصالحي      إذ كنت مأمونا علي شفيقا  
فامض القضاء على الرضى مني به      إني رأيتك في البلاء رفيقا

قال فرجعت إلي نفسي واستندت "زمزم"، فما استويت جالسا حتى أتى إليّ أسود علي  
رأسه مكّتل، فيه خبز ولحم مشوي وصرّة دراهم فقال لي: "أنت ابن غلبون؟" فقلت له:  
نعم فوضعه بين يدي ومضى، فأوميت إلى أصحابي فكنت فيه كأحدهم.<sup>1</sup>

إن المدرسة المغربية مدرسة سنية مالكية بنسبة غالبية، وعلماء هذه  
الطبقات الخمس هم خير من يمثلها و في خير أزمناها وأوج قوتها.  
وقبل هؤلاء العلماء والأدباء الذين كان نبوغهم إبان النصف الأول من القرن الثاني  
الهجري وما بعده، هناك عالم أديب سبق نبوغه هؤلاء، وربما يكون أول مغربي يتألق  
في علوم الدين والشعر، إنه:

---

<sup>1</sup> - المالكي: المصدر السابق، ج 1 ص 532.

أبو سعيد بن عبد الله، سابق البربري المظماطي،

كان نبوغه خلال القرن الأول الهجري، لأن الأخبار تبين أنه كان بالشام أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - الذي ولي الخلافة سنة تسع وتسعين من الهجرة، وكانت لسابق معه جلسات ومذاكرات، ولسابق البربري قصيدة طويلة في وعظ هذا الخليفة العادل، عمر بن عبد العزيز. أو لنقل إنه يبارك عودة هذا الخليفة إلى نهج النبي - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين في سياسة الأمة وتسيير شؤونها، بعد أن سار بها معاوية وبعض بنييه في غير طريقها المأثور. والقصيدة تحمل نزعة سابق الزهدية، كما هي عند السلف الصالح من أهل السنة، وسأذكرها كاملة في الموضوع المناسب إن شاء الله.

هكذا نبغ المغاربة في زمن قصير وفي مختلف العلوم الدينية، بفضل أنشطة تلك المساجد، وفي مقدمتها جامع مدينة القيروان؛ المدينة التي أسسها عقبة بن نافع - رضي الله عنه - سنة ثلاث وخمسين من الهجرة. في تلك المساجد، وفي ما استتبعته من مدارس بدأت الحياة العقلية في المغرب بدءا بتحفيظ القرآن الكريم وتفسيره، ورواية الحديث وما يتعلق به من سير وأخبار وفقه، ثم العلوم العقلية الأخرى كالفلسفة والمنطق وغيرها من المعارف المستجدة على صعيد الثقافة العربية، إلا أن الشخصية المغربية أكثر ميلا بل أكثر اهتماما بعلوم الدين وبخاصة الحديث الشريف وطرقه ورجاله، ومنه توطدت علاقتهم بالمذهب المالكي، فأحبوه وأعرضوا عن سواه إلى يوم الناس هذا، إلا ما كان من تبنيهم -

في بعض الفترات - لمذاهب، لاعتقاد، ولكن رغبة في التخلص من السلطة التي كثيرا ما تزيغ عن المبادئ الإسلامية، السمحة التي شخصتها كثير من آيات الكريمة، والأحاديث الشريفة؛ وذلك بالالتفاف حول بعض المتمردين وهم كثر. ذكر محققا كتاب " طبقات علماء إفريقية وتونس " :

"وقد شهدت إفريقية قبل قيام الدولة الأغلبية وبعدها ثورات متعددة كان الهدف منها القضاء على السلطة العربية وقيام دولة البربر المسلمين، وكانت هذه الثورات تأخذ أشكالا مختلفة، تكشف كلها عن المرارة التي يشعر بها البربر تجاه العرب .... فالقلق على مصائرهم والسذاجة في التفكير وظلم بعض الولاة لهم ، والطموح إلى الغنم كانت تدفعهم إلى أن يفتحوا آذانهم وقلوبهم لكل دعوة دينية أو سياسية أو غيرها مما يناوئ الحكم، ويهدف إلى الانقضاض على السلطة التي كانت تتنازعها العصبية. لذلك نمت بينهم الخارجية صفرية وإباضية، وكان لا يهتم منها إلا جانب الثورة، أما تعاليمها وطرقها وأغراضها فلم يكن لهم بها كلف، وهذا ما يفسره خوفها بينهم حين تمكنوا من تكوين دولة "بني زيري" .."<sup>1</sup>

إن احتضان المغاربة لكثير من الثورات التي قامت على أساس مذهبي، لا يعني تخليهم عن المذهب السني الذي اعتنقوه عن محبة واقتناع كبيرين، وإنما احتضنوها رغبة في القضاء على السلطة الحاكمة التي لم تنصفهم في كثير من الأحيان، بل لقد بالغ بعض الولاة في ظلمهم، فكانت تلك الثورات لرد الاعتبار. أما

---

<sup>1</sup> - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 8-7.

من ناحية العقيدة فلقد زادتهم تلك الثورات ارتباطا بمذهبهم . يقول محققا كتاب طبقات علماء إفريقية وتونس في هذا الصدد: " ولقد أعطت هذه الثورات المتتالية في إفريقية الحياة الدينية طابعا خاصا ظل أثره واضحا في تاريخ المغرب إلى يومنا هذا ؛فالتنمرد السياسي وظهور الفرق والبدع وثورات الخوارج والشيعنة أعدت أهل إفريقية لأن يتمسكوا أشد التمسك بالنصوص الشرعية من قرآن وحديث وأن يعزفوا عن التخريج والتأويل وإعمال الرأي، فتنلذذهم على الصحابة والفقهاء التابعين" بمكة " و "المدينة " و "الفسطاط "، والبعثة العلمية التي أرسلها لهم "عمر بن عبد العزيز " لتفقيهم ، كانا لهما ضلع في دعم هذا المنحى . واستمر هذا التيار يتأكد إلى أن ذاع أمر " مالك " في النصف الأول من القرن الثاني ، فتوافدوا عليه يطلبون أصول الشرع القويمة ، وكان من بينهم " البهلول بن راشد " و "عبد الله بن فروخ الفارسي " و "عبد الله بن غانم " و "حارث بن أسد القفصي " ممن ساهموا إثر رجوعهم في نشر هذا المذهب ، لكن ينبغي أن نشير إلى أن تحصنهم بمذهب مالك لوقوفه عند أصول الدين والبعد عن التأويل والقياس ما أمكن ، لم يكن كافيا لدرء حدة تلك التيارات والمذاهب التي تمور بها بلاد المشرق والتي وجدت لها من بين المغاربة أنفسهم من يعتنقها ويعمل على نشرها في بلاده. <sup>1</sup>

إن اعتناق بعض المغاربة لمذاهب أخرى غير مذهب مالك قليل أو نادر و مؤقت في أغلب الأحوال يقول ابن فرحون المالكي (ت 799هـ):

---

<sup>1</sup> - أبو العرب : المصدر السابق ص 13.

"..فغلب مذهب مالك رحمه الله على أهل الحجاز والبصرة ومصر وما والاها من بلاد إفريقية والأندلس وصقلية والمغرب الأقصى، إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا.."<sup>1</sup>

ويفسر ابن خلدون سر تعلق المغاربة والأندلسيين بالمذهب المالكي بمدى ارتباطهم بالمدينة المنورة، دار الهجرة وأخذهم العلم عن علمائها، إلى جانب طابع البداوة الغالب على أهل القطرين يقول: "...و أما مالك رحمه الله تعالى فاختص مذهبه بأهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم، إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل، لما أن رحلتهم غالبا كانت إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم. والمدينة يومئذ دار العلم، ومنها خرج إلى العراق، ولم يكن العراق في طريقهم، فاققتصروا على الأخذ عن علماء المدينة. وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده. فرجع إليه أهل المغرب والأندلس وقلدوه دون غيره، ممن لم تصل إليهم طريقته. وأيضا فالبداوة كانت غالبية على أهل المغرب و الأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة. ولهذا لم يزل مذهب المالكي عندهم غضا، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب "<sup>2</sup>

يبدو تبرير ابن خلدون لارتباط المغاربة بمذهب مالك بالبداوة وبعدم اتصالهم بغيره تبرير قد لا يؤيده الواقع التاريخي، فلقد اتصل المغاربة بكثير من أهل المذاهب الأخرى كالخوارج والشيعة والمعتزلة فما تبنا ولا اعتقدوا منها شيئا

<sup>1</sup> - ابن فرحون المالكي : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ،تح محمد الأحمد أبو النور ،

مكتبة دار التراث القاهرة ط 2 / 1426 هـ 2005م، ص 70.

<sup>2</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ج 2 ، ص 546 .

بصورة دائمة حتى بعد أن ساروا في فلك الحضارة والتمدن أشواطاً لا تقل عن تلك التي بلغها المشاركة . فالأمر أبعد من ذلك وأعمق ؛ إنه التعلق القلبي بالربوع التي درج فوقها الحبيب المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه الأخيار ، رضوان الله عليهم جميعاً ، واستعذاب منهم لصفاء العقيدة السلفية التي لم يعكر صفوها تأويل المؤولين ولا فلسفات أهل الأهواء من أصحاب النحل الفاسدة .

إن تعلق المغاربة بمذهب مالك تعلق واع لما في المذهب من مطابقة وموافقة لنصوص الشريعة الإسلامية قرآناً وسنة .

إن نظرة المغاربة التقديسية للمدينة المنورة - دار الهجرة ، التي كان لها فضل

احتضان أول دولة إسلامية نموذجية لم يشهد العالم مثلها أبداً - نظرة أصيلة و هي مطردة عند جميع المسلمين على اختلاف مذاهبهم ، وللمالكية عليهم فضل زيادة ، لكونها بلد إمامهم رحمه الله . ولما ورد فيها من أحاديث تمجيد وتفضيل . فعن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " لا تنقضي الساعة حتى يضرب الناس أكباد الإبل من كل ناحية إلى عالم المدينة : يطلبون علمه " .

ورواه أبو موسى الأشعري بلفظ " يخرجُ ناسٌ من المشرق والمغرب في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة أو عالم أهل المدينة. " <sup>1</sup>

وعن هذا التقديس لمكة والمدينة والاعتزاز بهما يقول أبو خالد يحيى بن خالد السهمي

- كناه أبو العرب أبا حاتم <sup>2</sup> ، أحد علماء المغرب الأجلء ، سمع من سحنون ثم ولاه

قضاء منطقة الزاب حتى مات بها رحمه الله -

---

<sup>1</sup> - ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص 74 .  
<sup>2</sup> - أبو العرب : طبقات علماء إفريقية تونس ، ص 206 .

أيا طالبَ العلمِ ابتغاءَ ثوابه      سموتَ إلى أسْمَى أمور الهدى أوزى<sup>2</sup>  
وأقربها من كلِ رشدٍ ونعمة      وأكثرها نفعاً وأعظمها أجراً  
ولا تطلبين العلمَ إن كنت طالبا      إلى غير أهل العلم سرا ولا جهرا  
وكل ذوي الأهواء أهل ضلالة      وإن أظهروا برا فخذ منهم الحذرا  
وعلم الحجاز [ مكة ومدينة ] الرسول ، فطالبه ولا تعدُّ فترا  
فعلمهم النور الذي يهتدى به      وآثارهم برهانها يثلج الصدر  
مدينتهم خير المدائن طيبة      وخير قبور العالمين لها قبراً  
وعلم أهل الحجازين [فـ] بلغرب ينتهي إلى خيرهم فعلا وأطيبهم خبراً  
وأقومهم طرا لسنة أحمدا      وأعظمهم لله ، في دينه ، نصراً  
وأوسعهم علماً وأصدقهم تقى      وأورعهم جهراً وأورعهم سرا

إن النص يكشف عن مكانة الحجاز من قلوب المغاربة ، فعلمه النور الذي يهتدى  
به، ولذلك شغف به أهل المغرب فاعتمدوه ، وعلى الناشئة من طلبة العلم مواصلة  
تحصيله، والزهد فيما سواه. فالنص مفعم بعاطفة الحب والولاء لمذهب أهل الحجاز  
وتفضيله عن غيره من المذاهب الأخرى التي لم تسلم من ضلالة الأهواء. بما في ذلك  
بعض فروع المذهب السني كالاعتزال الذي بالغ أصحابه في الاعتماد على العقل في  
مسائل الدين.

<sup>1</sup> - القاضي عياض: تراجم أغلبية، ص 318.

<sup>2</sup> - أوزى : والأور جمع أوار ، وهو شدة حر الشمس ولفح النار .

كما أن النص يبعد فكرة التقليد التي أشار إليها ابن خلدون، والتي قد يفهم منها التقليد عن غير وعي، ولكنه الأخذ عن قناعة ودراية لما في المذهب من مزايا البعد عن ضلالات أهل الأهواء. هكذا فهم المغاربة الدين، مدركين ما بين المذاهب من اختلاف أو توافق، بان ذلك أو استنتر.

أما عن انقطاع المذاهب الأخرى من المغرب بمجرد انتهاء السلطة التي تكون وراء استقدامها أو لمجرد ضعفها. فيقول ابن فرحون:

"وَعَلَبَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ عَلَى الْكُوفَةِ وَالْعِرَاقِ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَكَثِيرٌ مِنْ بِلَادِ خِرَاسَانَ إِلَى وَقْتِنَا هَذَا، وَظَهَرَ بِإِفْرِيقِيَّةٍ ظَهُورًا كَثِيرًا إِلَى قَرِيبٍ مِنْ أَرْبَعِمِائَةٍ عَامٍ فَانْقَطَعَ مِنْهَا وَدَخَلَ مِنْهُ شَيْءٌ مَاورَاءَهَا مِنَ الْمَغْرِبِ قَدِيمًا بِجَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ وَبِمَدِينَةِ فَاسٍ"<sup>1</sup>.

يؤكد هذه الفكرة صاحب كتاب الأدب المغربي بقولهما: "وثمة ظاهرة أخرى لها شأنها في حياتهم الثقافية [يعني المغاربة] وهي تحولهم من المذاهب الأخرى إلى مذهب مالك، والتمسك به، والتعصب له، ولعل ذلك يرجع إلى موافقته لطبيعتهم العقلية، فهو مذهب يعتمد على النص، ولا يفسح المجال كثيرا للعقل، وهو مذهب يكره التفرع والتفلسف، ولقد حدثت معركة بين هذا المذهب وغيره من المذاهب الأخرى، كان لها أبطال وضحايا."<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> - ابن فرحون: الديباج المذهب، ص 70.  
<sup>2</sup> - محمد بن تاويت: محمد الصادق عفيفي، الأدب المغربي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2/ 1969، ص 114.  
3 - المرجع نفسه ص 112



ثم ساقا عن ذلك مثالا من الواقع المغربي فقالا : " وأخيرا نجد سجلماسة\* وهي تمثل فرقة عنيفة من الخوارج تتخلى عن خارجيتها وتتبنى المذهب المالكي فيما بعد ، ويقصد إليها رجال العلم والأدب حتى من العراق.<sup>1</sup> و أقوى أسباب استمرار المذهب السني المالكي بالمغرب صمود علمائه<sup>2</sup> أمام الأهوال والمحن لدرء الأهواء والمعتقدات الفاسدة، ومقاطعة أصحابها حتى المدعين منهم بالسلطة الحاكمة ، وهو الدفاع الذي أسفر عن تعذيب واستشهاد عدد من أولئك العلماء.

أما عن أثر تلك المذاهب في الشعر والشعراء فيمكن بحث ذلك من جانبين أساسيين :

**أولهما:** الجانب الموضوعي وما يتضمنه من قضايا فكرية وعقائدية و عاطفية ومدى تفاعل ذلك مع الواقع ، وأي الموضوعات الشعرية أكثر استقطابا للشعراء، وفي أيها أجاد الشعراء أكثر ، وهل لتلك المذاهب بصمات على الشعر والشاعر؟  
**وثانيهما:** الجانب الفني من حيث الخيال والأسلوب ومدى قدرتهما على تشخيص رؤى وطموح الشاعر وجمهوره. سواء من حيث التعبير عن حيثيات المذهب ، أو من حيث الجانب الإمتاعي و صلة ذلك بجوهر عقيدة المذهب أو النزعة .

وسأبدأ - إن شاء الله - بتتبع أثر المذهب السني المالكي على الشعر والشعراء في المغرب . وذلك وفق منهج يراعي التسلسل الزمني ، أو لنقل وفق المنهج التاريخي

---

\*- سجلماسة بلدة بالمغرب الأقصى تأسست بها دولة خارجية صفرية سنة 140 . عبد العزيز المجذوب: الصراع المذهبي بإفريقية، ص 33.  
<sup>2</sup> - أذكر منهم: البهلول بن راشد سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات وابن أبي حسان اليحصبي

الذي يراعي تواريخ النصوص - قدر المستطاع - ،فتقدم نصوص القرن الثاني عن نصوص القرن الثالث ثم نصوص القرن الرابع ، حتى يتسنى رصد مدى التطور الذي مس الشعر من قرن إلى قرن ومن مذهب إلى مذهب. مع محاولة تحقيق نوع من التوازن في الاهتمام، سواء تعلق ذلك بالزمن أو بالمذهب.

## الباب الثاني:

أغراض الشعر المغربي وملاحم تملذبهها

الفصل الأول : أغراض الشعر السني وملاحم تملذبهها

الفصل الثاني: أغراض الشعر الخارجي وملاحم تملذبهه

الفصل الثالث : أغراض الشعر الشيعي وملاحم تملذبهه

## الفصل الأول :

أعراض الشعر السني وملامح تمذهبه

أولاً: الرثاء

ثانياً: التعزي في تولي الشباب

ثالثاً: المدح

رابعاً: الحماسة

خامساً: الهجاء

سادساً: التشويق

سابعاً: الغزل

ثامناً: مسالمة ذوي القربى

## تمهيد

الشعر المغربي - كغيره من أشعار البئات الأخرى - صور الحياة بجانبها الحسي والمعنوي، المادي والروحي تصويرا مثّل واقع الإنسان في خضم ذلك الصراع القائم بين ثنائيات الحياة؛ بين الخير والشر، بين الأمل واليأس، بين الإيمان والكفر، بين السلم والحرب بين الحياة والموت، ... إلخ. وهو تصوير يتفاوت من حيث تقنياته وتعبيريته من موضوع لآخر، ومن شاعر إلى شاعر، كما خضع ذلك التفاوت لعامل الزمن، إذ ليس سيان بين شعر القرن الأول والثاني، ولا بين شعر القرن الثالث والرابع إذ للزمن أثره إن سلبا وإن إيجابا. وهو بالنسبة إلى فن الشعر في المغرب إيجابي في القرون الخمسة الأولى للهجرة. إذ كلما تقدم الزمن اتضحت فنون الشعر كما وكيفا وملامح الشخصية أبين وأوضح، وأكثر دلالة على خصوصياتها، كما تكون القيم الفنية أكثر نضجا وتأسلا. من الأغراض الشعرية التي حظيت باهتمام الشعراء المغاربة على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وإن اختلفت درجة الاهتمام بها من مذهب لآخر. نجد من بين الأغراض الأكثر تداولاً بين شعراء جماعة السنة ما يلي:

### أولاً: الرثاء

الموضوع الذي بدأ أكثر استحواداً على اهتمام الشعراء المغاربة هو الرثاء، وبخاصة رثاء العلماء والصالحين من أهل السنة من المالكية، وألفنتي موضوع رأيت فيه شيئاً من الطرافة. هو رثاء الأمل المتعثر أو الضائع من قبل الآباء في مستقبل أبنائهم. إلى جانب رثاء الذات، ورثاء المدن والممالك الزائلة

ورجالها. يقول عبد الملك بن قطن في رثاء سحنون بن سعيد أحد علماء

المغرب وفقهائه.(160-240هـ):<sup>1</sup>

من يبصر البرق نحو الأفق قد لمعا      لما تسربل ثوب الليل و ادراعا  
ولى - لعمرى - بأرض الغرب قاطبة      ميت له البدو والحضار قد خشعا  
لله أنت إذا ما هاب فاصلة      من القضاء كليل الحد فارتدعا  
هناك برزت يا سحنون منفردا      كسابق الخيل لما بان فانقطعا  
فاذهب فقيدا حباك الله جنته      واحصد من الخير ما كنت مزدرعا

هذه المقطوعة تمثل شعر رثاء العلماء خلال النصف الأول من القرن  
الثالث الهجري، وقد ركزت على تعظيم فاجعة المغرب في موت هذا العالم  
الجليل الذي كان المرجع في كل قضية استعصت على غيره من العلماء أو  
تهيبوها.

ومن المراثي الأكثر تضمنا للمعاني والقيم الإسلامية ، مرثية حاتم الجبنياني  
المتعبد، للعالم الزاهد عبد الرحيم بن عبد ربه الربعي، المتوفى سنة 247 هـ

قال:<sup>2</sup>

لهفي على عبد الرحيم وفضله      حتى الممات بكل قلب يستعر

---

<sup>1</sup> - القاضي أبو الفضل عياض : تراجم أغلبية ، ص . 136  
<sup>2</sup> - المالكي : رياض النفوس ج 1، ص 430.

ما كان أتقاه وأحسن أمره      في الله يسعى قد تشمر واتزر  
أما النهار فصائم مجتهد      والليل يهتف بالقرآن إلى السحر  
شرب الهدى فملاً الرشاد فؤاده      وهو الصلاح فما على ذنب عثر  
ولى حميدا راضيا عن ربه      فلقد عفا عنه لأطيب مختبر  
قد كان في قصص الغراب      عجائب للمسلمين جميعهم فيها عبر  
بعث الغراب إليه رب محمد      حتى ليعلمه بصالح ما ادخر  
جعل الفتات له براحة كفه      فدنا إليه به فقر ولم يطر  
فتهوى الغراب لأخذه متبادرا      من كفه لم يكتس ثوب الحذر  
يا معشر العباد قوموا فانصروا      دين النبي و وقروه كما نصر  
وصلوا الرباط وجاهدوا فعساكم      أن تظفروا بالصالحات كما ظفر

القصيدة تمثل شعر الرثاء في منتصف القرن الثالث الهجري ، وقد أخذت  
منحى آخر غير الذي كان شائعا في الشعر العربي ؛ من ذكر لخصال المرثي  
التي هي ما اطرده في المجتمع من قيم كرسنها طبيعة الحياة العربية ، كالكرم  
والشجاعة والوفاء، وقد تعود الشعراء تفخيمها في ممدوحهم لدرجة تجاوز  
المعقول أحيانا. تلك القيم استبدلها المغاربة في شعرهم الديني بذكر تقى المرثي  
وتعبده وزهده، ودوره في الإشعاع الديني، إلى جانب ذكر بعض كراماته.

ويعد التعرض لكرامات العلماء والزهاد شائع في الأدب المغربي وأخباره عامة والشعر خاصة، ودرجة تأثير ذلك في النفوس يختلف من شخص لآخر، ومن منطقة إلى أخرى حسب المستوى الثقافي ونوع التعليم السائد.

من الموضوعات الطريفة في الرثاء، موضوع رثاء الآباء لآمالهم المتعثرة في الوصول بالأبناء إلى بعض ما أملّ فيهم من العلم. كالذي عبر عنه أحمد بن أبي سليمان في مرثيته لمحمد بن سحنون، وهي (ثلاثمائة بيت<sup>1</sup>) ختمها بجزء يرثي فيه أمله الخائب فيما أمله في ولده بسبب موت محمد بن سحنون. فكانت الرزية رزيتين؛ فقد الحبيب صاحب وفقد المأمول في الولد. بدأ القصيدة بقوله:<sup>2</sup>

ألا، فابك للإسلام إن كنت باكيا      لحبل من الإسلام أصبح واهيا  
تثلم حصن الدين وانهد ركنه      عشية أمسى في المقابر ثاويا  
إمام حباه الله فضلا وحكمة      وفقهه في الدين كهلا وناشيا

ثم ختم قصيدته بقوله:<sup>3</sup>

لقد حل من قلبي مصاب محمد      بوجد نفي نومي وغير حاليا  
قلو أنه يفدى من الموت والبلى      لكنك له دون البرية فاديا  
يقول بُنيّ حين أنكرَ حاليا      وأبصر دمعي فوق خدي جاريا  
وأبصرني صباً أبيت مسهداً      أراعي النجوم الطالعَاتِ تواليا  
وأضحى شجيّ القلبِ دائمَ عبرةٍ      كئيباً حزينا خالياً من عزائيا

<sup>1</sup> - المالكي: رياض النفوس، ج 1، ص 455.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 455.

<sup>3</sup> - المصدر السابق، ص 57-58.



أراك أبي - في الليل - ساهرَ مقلّةٍ      وتصبحُ مشغولاً عن الطعم طاوياً  
أمالاً رزئتَ أمّ أصابتك علةً      فأصبحت منها خافضَ الصوتِ عانيا  
فقلت له : مالي سليم وليس بي سقام فأبغي للسقام مداوياً  
ولكني لما فقدت محمداً فقدت      لما أرجوه فيك رجائياً  
رأيتك مولوداً فوجهت رغبتي      إلى الله واستصحبته لك خالياً  
بأن يدفع الأسواء عنك بعصبة      ولازلت فيما عدا ذلك راجياً  
وأبصرت أهل العلم عند محمد      وعلمهم يرقى على العلم عالياً  
وما منهم إلا مناظر صاحب      وآخر لا ينفك للذكر تالياً  
فأملت أن تأتي إلى المجلس الرضى      ومنيت نفسي عند ذلك أمانياً  
فحال قضاء الله دون مشيئتي      فأبصرتني من أجل ذلك لما بيا  
أكابد أحزانا بقلب موله      عليه وما يزداد إلا تمادياً  
فيا عين جودي بالبكاء وأسعدي      عليه عيوننا لا تزال بواكياً  
ويا قلب عش صبا كئيباً محزناً      فإني أدينك إذ وجدتك خالياً  
وحق لقلب يعرف الله لا يرى      على حاله خلوا من الشجو صاحياً  
ويا قبر سحنون وقبر محمد      أظلكما الله الغمام الغوادياً  
توافق شريف الحلم والعلم فيكما      وافاكما التفضيل لما توافياً

إن القصيدة وإن غلب عليها طابع النثرية المتمثل في التقريرية ومحاولة

استقراء كل ما تعلق بشخص المرثي، وهو ما وسم القصيدة بالطول المفرط الذي لا

يتناسب وروح الشعر الغنائي، فإن الجزء الأخير المتعلق بتصوير ضياع ما كان

أمله في ولده قد جاء مفعماً بالروح الشعرية سواء من حيث الصورة الشعرية النابضة، أو من حيث انسيابية الأسلوب وخفته. قد يفسر ذلك بكون هذا الجزء أكثر تعلقاً بذات الشاعر؛ فإن كان الباعث على النص خارجياً، فإن ما وراء هذا الجزء الرائع داخلي تمخض عن تفاعل ثلاث تجارب هي: الموت وما خلفه في عمق الشاعر من أسى. والأمل المنهار في عمق الشاعر. ثم دخول الإبن في النص بمشاطرة الأب أحزانه، وقد أدرك الوالد أثر ذلك على ولده الغض الذي لم يقو بعد على تحمل تلك الهموم.

ومن المراثي المنبثقة عن العقد الثامن من القرن الرابع مقطوعة محمد بن الحسين الطنبي، يعزي فيها المنصور بن أبي عامر في مقتل وزيره حسن بن أحمد الودود المقتول بمعركة ملوية بالمغرب الأقصى سنة 381هـ. يقول فيها:<sup>1</sup>

لاشك أن سجال الحرب مختلفٌ فيما روى الناس مذ كانوا ومذ عُرِفوا  
هونٌ عليك فنصرُ الله يعقبُه ياربُّ كرهٍ إلى المحبوب ينصرف  
يا غرة السعد الميمون طائره لا تكثرثُ فإليك السعدُ ينعطف  
لو هلك الناسُ لا ينفكك هلكهم فأنتَ وحدك عنهم كلهم خلف  
الله عندك عاداتٌ سيكملها فعادةُ الله قيسٌ ليسَ يُحرف  
كم رأينا الذي لا يرتقي سبباً إلى رضاً بجميل الصنع يأتلف  
استهل الشاعر مقطوعته بحكمة مناسبة للموقف، الحرب سجال. حكمة بليغة تُبقي على الأمل للمُنهزمين، كتمهيد لما بعدها: "هون عليك". ثم يتفاعل له

<sup>1</sup> - محمد بن رمضان شاوش، الغوثي بن حمدان: إرشاد الحائر إلى آثار الجزائر، ط وإشهار: هـ. داود بريكسي. تلمسانط/1422/1هـ-2001م، ص49.

بقوله: "فنصر الله يعقبه" في شبه تأكيد، مدعماً ذلك بالمثل "يا رب مكروه إلى  
المحبيب ينصرف". ثم شرع في العزف على مواطن تقوية الأمل: "يا غرة السعد  
الميمون... إليك النصر ينعطف". حتى وإن افترض هلاك الناس كافة فأنت كل  
الناس. هو التفخيم والمبالغة المحمودة في مثل هذه المواقف. فالمدح في هذه  
المقطوعة مرتكز على رفع معنويات المعزى لمحو أثر نكسة موت وزيره.  
كأسلوب من أساليب الرثاء في المغرب. فبدل إعظام الفجعة في المتوفى وذرف  
الدمع، اعتمد على الحكم التي من شأنها التصبر وتوقع الخير. فهو غرة السعد  
والميمون طائره. ثم أن هذه المقطوعة تكشف عن مدى التفاعل بل التداخل القائم  
بين المغرب والأندلس مما يجعل فكرة من ينظر إلى الأندلس على أنه امتداد  
للمغرب فكرة سليمة.

إن الرثاء قد يكون الغرض الأكثر انتشاراً بين شعراء السنة. والنماذج التي  
انتخبها يعكس كل منها جانباً من جوانب موضوع الرثاء، كفن شعري يغلب عليه  
الصدق بنوعيه؛ فمقطوعة عبد الملك بن قطن ركزت على تعظيم فاجعة المغرب  
في موت عالمه سحنون. وقد عبر عن مفارقة روحه لبدنه بلمع البرق نحو الأفق.  
اعتمد في عرض ذلك أسلوباً تصويرياً رائعاً قام على الاستعارة والتشبيه "تسريل  
ثوب الليل وادّرعاً" استعارتان مكنيتان جميلتان. والتشبيه كسابق الخيل.  
وفي قصيدة الجبنياني المستهلة بتعظيم حزنه الذي لن يزول ما حيي، ثم أردف  
ذلك بذكر تقي ونسك المرثي وبعض كراماته.

أما قصيدة أحمد بن أبي سليمان فهي الأطول، ومع ذلك فقد تجنب المقدمات المألوفة، التي قد تكون حكمة أو تأملاً أو وعظاً مما يناسب موضوع الرثاء، وبدأ مباشرة بالحث على البكاء لفداحة مصاب الإسلام بموت العالم الجليل، محمد بن سحنون . ثم اتخذ أسلوب الحوار لرسم تجربته الحزينة، حوار كان طرفه الثاني ولده . ثم ختم قصيدته بالدعاء بالرحمة المعبر عنها بالغيث اقتداءً بمأثور الشعر العربي القديم .

من خلال هذه النماذج وما تصفحته من قصائد ومقطوعات في الرثاء أخلص إلى:

1- إن شعر الرثاء أكثر الأغراض الشعرية وفرة في الشعر المغربي،

خلال القرون الأربعة الأولى، وأنه أكثر استقطاباً لشعراء السنة خاصة.

2- إن العلماء والزاهدين والصالحين هم موضوع هذه المرثية، ويندر أن نجد

سنيا يرثي أصحاب الجاه والسلطان، وهو ما يبين صدق تلك الأشعار، ويبين مكانة تلك الفئة من قلوب الناس.

3- إن أغلب شعراء الرثاء في تلك الحقبة من الزمن هم من العلماء الذائدين عن

الدين والوطن مُختلفَ الفتن التي لا تكاد تنتهي.

4- طُبعت تلك الأشعار بطوابع الفكر الإسلامي السنني الموسوم م بالمحافظة

والتأثر بالقرآن والسنة والبعد عن الغلو بشتى أصنافه .

## ثانيا: التعزي في تولي الشباب

من موضوعات شعر أهل السنة من المالكية في المغرب، موضوع  
التعزي في تولي الشباب وحلول المشيب والتلهف عليه. من ذلك هذه الأبيات  
لعيسى بن مسكين (214-257هـ) أحد شعراء القيروان:<sup>1</sup>

لعمرك يا شبابي لو وجدتك      بما ملكت يميني لارتجعتك  
ولو جعلت لي الدنيا ثوابا      وما فيها عليك لما وهبتك  
فقدتك فافتقدت لذيذ نومي      وطيب معيشتي لما فقدتك  
ونحتك وانتحبت عليك دهرا      فلم تغن النياحة حين نحتك

ولنفس الشاعر مقطوعة أخرى اشتكى فيها ضعفه وعجزه حتى عن المشي  
فصار حلف بيته وحيدا. يقول فيها:<sup>2</sup>

أصاب الدهرُ مني عظمَ ساقٍ      به قد كنتُ مشاءً جليدا  
إلى العلماء أنقلها وأطوي      بها للحاجة البلدَ البعيدا  
إذا رَجُلُ الفتى منه أصيبتُ      وطال سقامُهُ أَلْفَ القعودا  
وصار لبيته حلفًا و أمسى      من الإخوان منفردا وحيدا

<sup>1</sup> - راجع بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى عين مليلة الجزائر، ط3، دبت، ص83.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 83.

المقطوعتان تحملان صدى الشباب في ذاكرة الشاعر الشيخ؛ فالأولى تطفح  
بالحنين إلى الشباب، عبر عن ذلك خطابه الشباب، البعيد الراحل بلا عودة،  
مقسما: " لو وجدتك بما ملكت يميني لارتجعتك ".  
وكانت القطعة الثانية عرض حال لما حل به من وهن العظم وعجز عن مغادرة  
البيت إلى حيث مجالس العلم ومن بقي من الأثراب. لا يخفى ما في المقطوعتين  
من حسرة وألم يعتصران قلب الشاعر الشيخ وقلب كل قارئ للأبيات مطل على  
مكابدة الشاعر القعيد .

وثمة من الشعراء من عبر عن رحيل الشباب بشيء من التصبر والتعزي،  
كأحمد بن أبي سليمان الذي قال:<sup>1</sup>

دعيت معلما إذ صرت شيخا	وأيام الشبيبة كنتُ نورا
لئن كان المشيب أتى نذيرا	فإني سوف أدعوه بشيرا
فأهلا بالمشيب لنا لباسا	وقارا نتزين به ونورا
وجزت بتسعة سبعين عاما	وقد ضمننت أصحابي القبورا
وصرت كراكم يمشي ديبيا	وأصبح خاسيا بصري حسيرا
وألقي الدهر في أذني وقرا	وفي بدني وفي نطقي فتورا
وفي فقه الفقيه أبي سعيد	رأيت الحق متضحا منيرا
لزمت فناءه عشرين عاما	أغاديه و أغشاه هجيرا

<sup>1</sup> - القاضي أبو الفضل عياض : تراجم أغلبية، ص 273.

إن تعزي الشاعر في ثكله الشباب وترحيبه بالمشيب أمر فيه من التصنع ما فيه، وقد جعل المشيب نذيراً، وأي نذير. وما وصّفه لما يصاحب المشيب من أحوالٍ إلا دليل تبرّم وسأم. ولعل إيمان الشاعر كان وراء ذلك، فليس من أخلاق المؤمن الجزع من المقدور. ولولا ذلك لكان الأصح والأحرى أن يقول مثل ما قال ابن الرومي:<sup>1</sup>

فيا أسفاً ويا جزعاً عليه      ويا حزناً إلى يوم الحساب  
أفجعُ بالشباب ولا أعزّي!      لقد غفل المعزي عن مصابي

ذلك لأن النفس تؤثر البقاء وتأمله، وتولي الشباب مصاب جلل كما رآه ابن الرومي وهذه مقطوعة رابعة في ذكر الشباب والشيب لعلي بن أحمد بن الصفار السوسي أحد شعراء أواخر القرن الرابع، وصفه ابن رشيق بمتسع القافية السليم الطبع.<sup>2</sup> والمقطوعة هي:<sup>3</sup>

أرى البيض لا يمنحن ذا البيض منحة      سوى منحة تهدي الكآبة والثكلا  
كانّ لأيام الشباب بسالة      طلبنَ لأيام المشيب بها دَحَلًا\*  
ولم ترَ عيني كالشباب وحُسنيه      أقرّاً لأجفان النساء ولا أحلى  
ولا كيباض الشيب في أعين الدُمى  
قذَى بئسما يغشى القذى الأعينَ التَّجلاً

فلا غرّو أن أرى الشباب وعصره

ولا لومَ أن أنعى المشيبَ ولا عدلاً

<sup>1</sup> - أحمد خالد: ابن الرومي، الشركة التونسية للنشر والتوزيع تونس، 1977، ص161

<sup>2</sup> - ابن رشيق: انموذج الزمان، ص265.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ص268. \*الذحل: الثأر.

هذه المقطوعة من الشعر الرائق المليح المتعلق بالشباب والشيب، مركزا على تودد المرأة للشباب وسرورها به مقابل نفورها من الشيب وتأذيها منه. عبر عن ذلك بأسلوب جزل قوي فيه من الروعة ما يبهج النفس.

إن التعزي في تولى الشباب أحد الموضوعات المنتمية إلى لرتاء، وقد تناوله الشعراء المغاربة كما تناوله غيرهم. وقد اخترت منه ثلاث مقطوعات؛ الأولى والثانية للشاعر عيسى بن مسكين. الأولى في الحنين إلى الشباب وإكبار مصيبتة في فقده. والثانية يصف فيها وطأة الشيخوخة وما أورثته من لأسقام

أما المقطوعة الثالثة، فهي لأحمد بن أبي سليمان (ثمانية أبيات) رأى فيها أن الشيب وإن كان نذير رحيل، فهو وقار وبشرى انتقال إلى النعيم الصرمدي الموعود. وهو تعز جميل مصدره العلم الديني، وأكرم به من علم، أنفق الشاعر في تحصيله عشرين حجة. لئن كانت المقطوعتان السابقتان على جانب كبير من التناسق والتجانس فيما حملته من رؤى وأفكار إحدى أهم عناصر الشعر فإن المقطوعة الثالثة قد عراها شيء من القلق والاضطراب في أفكارها ورؤاها وحتى في عاطفتها. والقطعة الرابعة هي الأروع والأحلى في تجانس الفاضها وتناسق معانيها وطرافتها إلى جانب صورها المفعمة بالملاحة والحياة، الأمر الذي يجعل النفس تعلق بها وتستعذبها. من ذلك: "أرى البيض لا يمنحن ذا البيض منحة" فكلمة البيض وُظِّفت توظيفا مجازيا؛ فالأولى كناية عن الحسان البيض، والثانية كنى بها



عن زوي الشيب المسنين. وقوله " أقر لأجفان القيان ولا أطلَى "تجانس وتتمة رائعين  
لما ورد في صدر البيت. وكذلك الأمر بالنسبة إلى البيتين؛ الأخير والذي قبله. وهو  
ما يبين أن ابن الصفار شاعر مبدع أصيل.

### ثالثاً: المدح

المدح في الشعر المغربي كالرثاء في تفرعاته وكثرة اتجاهاته، إلا أنه لم يطرد  
اطراد الرثاء إبان المرحلة المعنية بالبحث ، قد يرجع ذلك إلى كون أغلب شعراء  
هذه المرحلة علماء دين ، وتخرج العلماء من المدح أمر معلوم .ومن مدح منهم  
تجنب المبالغة والغلو إلا إن تعلق الأمر بمدح العلماء والصالحين فلا حرج.  
من شعر المدح المنبثق عن القرن الثاني الهجري هذه الأبيات قالها الفضل بن  
النهشلي يمدح تمام بن تميم الدارمي الذي ثار على والي القيروان (محمد بن  
مقاتل العكي) من قبل الرشيد.

حدث ذلك في رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائة<sup>1</sup>.

### الأبيات:<sup>2</sup>

أضحت ومنزلها بمصر ومنزلنا      بالقيروان ، ويا تشواق مغترب

أخا بني نهشل ، دعها فقد نزلت      وامدح قريعٍ معدٍ واحدٍ العرب

<sup>1</sup> – هو عامل ابن العكي على تونس ،فبايعه جماعة من القواد وأهل الشام وأهل خراسان،فخرج إلى القيروان في النصف  
من شهر رمضان 183 هـ فخرج إليه ابن العكي فيمن معه ،فقاتله قتالا شديدا .فانهزم ابن العكي ، ودخل القيروان ،  
وتحصن في دار كان قد بناها. ولما سمع تمام بخروج إبراهيم بن الأغلب إليه من الزاب لنصرة ابن العكي كاتبه يشير عليه  
بتقديمه على نفسه فرفض إبراهيم وأعاد ابن العكي إلى ولايته.وبعث بتمام ونفر ممن عرفوا بثوراتهم على الأمراء إلى  
الرشيد فحبسه إلى أن مات مسموما في سجنه.أنظر: الحلة السيرة ص 91-93.  
<sup>2</sup> لابن الأبار: الحلة السيرة ،ص 92.

تمّامُ كبش بني عدنان قاطبة      الدّارميّ كريم البيت والنسب  
الفارس البطل الحامي حقيقته      والناعش الرائش<sup>1</sup> الفراج للكرب  
تأوي إليه نزار حين يدهمها      ريب الزمان وتخشى سطوة النوب  
أعطت بنو دارم في المجد رايتها      بني المجاشع يوم الفخر والحسب

الملاحظ على المعاني المعتمدة في هذه المدحة هي معاني الشجاعة  
وشرف النسب والعصبية القبلية ، كما طغت المبالغات كأسلوب مطرد لدى  
الجاهليين ومن سلك مسلكهم من الإسلاميين ، فهو كبش عدنان قاطبة ؛ البطل  
الفضل الذي لا يضاهى ، بل فقد صير تمّامًا - وهو فرد من القبيلة - مأوى  
وملاذا لكل القبيلة. فالمقطوعة قد برئت من أي تأثير بالقيم الجديدة التي جاء  
بها الإسلام وتبناها الناس.

ومن المدح الذي قيل في ولاية المغرب في النصف الأول من القرن الثاني هذه  
الأبيات من قصيدة قالها ربيعة بن ثابت الرقي في مد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن  
المهلب والي المغرب من 144هـ إلى 152هـ. الأبيات:<sup>2</sup>

ألا طرقتنا باللوى أم عاصم      وقد زارنا منها خيال مجاشم

<sup>1</sup> - الناعش : الحامي المانع والرافع ، والرائش: اسم فاعل من راش السهم إذا ألزق عليه الريش. القاموس المحيط ج2ص301 و286 .

<sup>2</sup> - الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق: د. محمد زينهم محمد عزب، دار الفرغاني للنشر والتوزيع القاهرة، ط1/1414هـ 1994م ص87.

ألمت بركب عرسوا بتنوفة هجوع لدى أعصارخوص سواهم  
وبتنا كأن المسك بين رحالنا يفوح علينا من عباب اللطائم  
وأنى اهتدت تسري إلينا عزيزةً مخضبة الأطراف رياً المعاصم  
فقلت لها إني شعرت بفتيةٍ نشاوى من الإدلاج مثل النعائم  
حلفت يميناً غير ذي مثنويةٍ يميناً امرئ ألى وليس بآثم  
لشنان مابين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغرّ ابن حاتم  
فهم الفتى الأزدي إتلافُ ماله وهمُ الفتى القيسيّ جمعُ الدراهم  
فلا يحسب التمتام أني هجوته ولكنني فضلت أهل المكارم  
أبا خالد أنت المُنوّه باسمه إذا نزلت بالناس إحدى العظام  
كُفيت أمير الناس كل عزيمة وكنت من الإسلام خير مزاحم

تعد هذه القصيدة من النادر المأثور عن النصف الأول من القرن الثاني في مدح ولاية المغرب بالسخاء والكرم في بذل المال، وكذا في اعتماده المقدمة الغزلية التي ما عاد لها اطراد في شعر تلك المفتررة من الزمن. تلك المقدمة المتمثلة في ذكر الشاعر لطيف أم عاصم وما تجشمه من صعاب في سبيل الوصول إلى خاطر المحب الذي كان في رباط جهادي مع صاحبه، كما صور الطيف مخضبا مطيبا ممتعا على الهيئة التي يتمنى كل محب رؤية محبوبه عليها. أما المعنى المعتمد في مدح الوالي فهو الكرم والبذل والإغاثة. وهي صفات طالما تنافس الشعراء في تجسيدها في ممدوحهم على أبداع صورة. وقد أضاف

الشاعر صفة تمثيل الممدوح للإسلام خير تمثيل "وكنت من الإسلام خير  
مزاحم".

والطريف في أسلوب هذا المدح اعتماده طريقة المفضالة أو الموازنة بين  
ممدوحه وبين يزيد بن أسيد السلمي، موازنة سوغها الاشتراك في الاسم.  
والموازنة تعكس انتقال الصراع القبلي بين اليمينية والقيسية إلى المغرب منذ  
القرن الثاني، وكان الباعث لها التنافس على ولاية المغرب.

ومن الشعر المتعلق بمدح العلماء هذه المقطوعة ليعقوب الجزري يمدح

محمد بن سحنون (202-256هـ):<sup>1</sup>

محمد يا ابن من بالعد ل قد نفذت قضاياه  
ويا ابن مناصح لله يرجوه ويخشاه  
أبوك أب أهان لجنه نة الفردوس دنياه  
فمن والى أبوك بو ده فالله مولاه  
مناي وقد ينال المرء يوما ما تمناه  
كتاب منك تنجح حا جتي إن كنت أعطاه  
فطل وامنن علي به وحطني حاطك الله

المعاني التي تضمنتها هذه الأبيات معاني إسلامية خالصة فقد مدحه بعدل

<sup>1</sup> - القاضي عياض: تراجم أغلبية، ص 177.

أبيه في القضاء بين الناس، ثم مدحه بأن أباه كان ينصح الله وفي الله، كما مدحه أيضاً بإيثاره الآخرة عن الدنيا. كل هذه الصفات قد حث عليها القرآن الكريم والسنة القولية والعملية الشريفة، وقد اتصف بها الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً. وقد ذهب الشاعر إلى أن من أحب والد الممدوح ووالاه فقد أحب الله ورسوله، إذ المرء مع من أحب.<sup>1</sup>

بتأمل المقطوعتين يتبين أن المعاني الموظفة من قبل الشعراء تتشكل وفق مكونات شخصية الشاعر أكثر مما تخضع للشائع من قيم العصر.

ومن الشعر الجزل الرائق في غرض مدح الملوك، قصيدة عبد الكريم النهشلي<sup>2</sup>. في مدح المنصور بن بلكين الصنهاجي، خليفة المغرب، وذلك سنة 384هـ. مما ورد فيها:<sup>3</sup>

ترى فيه رفع الطرف خفضاً كأنما      لحاظ الرجال ريبة تستريبها  
ومجلس موقور الجلالة تنتني      عيون الورى عنه وينبو خطابها  
إذا حكتهما ظلت نواسج عبقر      حواسد مدسوسا إلي عتابها  
على ملك تهدي إلى مكرماته      عقائل أشعار يرف شبابها  
إذا ورد المنصور أرضاً تهلت      وجوه رباها واستهل ربابها  
إذا اغبرت الأفاق بلت سماؤه      ثراها بأيدي ما يجف ربابها

<sup>1</sup> - تضمين لقوله صلى الله عليه وسلم للذي سأله عن الساعة " ما أعددت لها قال حب الله ورسوله قال أنت مع من

أحبيت" صحيح مسلم، بشرح النووي، ج 15، ص 186.

<sup>2</sup> - هو أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي. ولد بالمحمدية ( المسيلة)نسبة إلى محمد بن عبيد الله المهدي، وبها نشأ. كتب لتميم بن المعز بن باديس، كان شاعراً مقدماً عارفاً باللغة، خبيراً بأيام العرب وأشعارها وفنونها. توفي بالقيروان أو المهدية سنة خمس وأربعمائة للهجرة. من آثاره كتاب الممتع في علم الشعر وعمله المشهور.

<sup>3</sup> - د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، دار المعارف، ط 1 بدون تاريخ، ص 132.

كأن العوالي الزرق عنه مضأؤها      وخضر السحاب من نداه عبابها  
فمن يوله سعدا ينله ومن يرد      به شقوة تخلع عليه ثيابها  
يحل بنا- ما حلها - البر والتقى      ويخضر من بعد اصفرار جنابها  
وما بلدٌ لم يؤتِكَ الطوعَ أهلها      بآمنةٍ إلا تُدَكِّ هضابها  
تخط بها الأسد الضواري خواضعا      لديك ولو أن الكواكب لغابها  
ولو أنها عاصتك غير مجيبة      أجابتك من تحت السيوف رقابها  
تهابك آفات الخطوب فتنتهي      ولا تنتهي عن خطة فتهايبها  
رماحك أحناء الضلوع نقافها      وخيلك تامور النفوس شرابها<sup>1</sup>

تمثل قصيدة عبد الكريم النهشلي هذه شعر المدح في المغرب خلال القرن  
الرابع مُطعماً بحسّ حضاريّ رفيع . انعكس على المعاني والصور وحتى  
الأسلوب ، فقد وصف مجلس الأمير وما توشّح به من وقارٍ وهيبَةٍ وسكينة وهي  
قيمٌ حضارية تزداد تألقاً وتأسلاً كلما تهيأت الأسباب المادية والروحية. يبدو  
ذلك الحس فيما أشار إليه الشاعر من تنافس الناس في الإبداع الشعري لدرجة  
التحاسد كقوله:

"إذا حُكَّتْهَا ظَلَّتْ نَوَاسِجَ عِبْقَرٍ      حَوَاسِدَ مَدَسُوسَا إِلَي عَتَابِهَا "

ومن الصور الممثلة للحس الحضاري الراقي لدى الشاعر قوله:

" على ملك تهدي إلى مكرماته      عقائل أشعار يرف شبابها" .

<sup>1</sup> - النقف: بكسر الهامة عن الدماغ أو هي المضاربة بالسيوف على الرؤوس.

فقوله: يرف شبابها ، تصوير لمدى تألق تلك الأشعار وإفهامها بالحياة كتألق

الشباب قياساً إلى غيره من مراحل الإنسان خاصة والأحياء عامة.

وإفهامه . وكذا الصورة المجسدة ليمين المنصور وسعده. إلى جانب بعض

المعاني والصور المأثورة والتي لاتزال تحافظ على نضارتها وفعاليتها ،

كمعاني الكرم والجود والبأس.

لقد تميزت القصيدة بأسلوب عذب هادئ متماسك زين ببعض المبالغات الجميلة

والمصورة مثل: "تهابك آفات الخطوب فتنتهي".

وبهذا يكون الشعراء المغاربة قد برئوا من تبني نزعة الميل إلى الغلو في

المعاني التي راجت عند بعض الشعراء المغاربة ممن مدحوا الخلفاء الفاطميين

نزولاً عند رغبتهم سواء تبنوا عقيدتهم أم لم يتبنوها.

وهذه مقطوعة تمثل لونا آخر من المدح، يتمثل في مدح العلماء والاعتراف لهم

بالفضل، قالها عمران بن سليمان المسيلي(ت408هـ) ،يمدح أستاذه الحسن بن

رشيق:<sup>1</sup>

سأشكر ما حييت أبا علي ولست بحق واجبه أقوم

أرى بصري الطريق وكنت أعمى فسرت على المحجة لا أريم

ولو لم يهدي لضلت وجهها ولم أبرح على وجهي أهيم

أسرك أمس كيف مضى رجال وفي أكباد أكثرهم كلوم

فلا تنكر فخاري من مقام فإني عنك مفتخرا أقوم

---

<sup>1</sup> - الحسن بن رشيق: انموذج الزمان، ص312.

المقطوعة لون من الاعتراف بما للعلماء من دور في توجيه الفرد والمجتمع،  
والشعر المادح لأولئك العلماء يعد جديدا فرضه التمدن الإسلامي الذي  
أخذ في التكون في المغرب ابتداء من منتصف القرن الأول الهجري تاريخ  
تأسيس حاضرة القيروان.

انطلاقا من هذه المقاطع المثبتة يمكن استخلاص بعض الجوانب  
الموضوعية والفنية لشعر المدح في المغرب . فمن حيث المضامين نجد ها  
تتمحور حيناً في معاني البطولة والشجاعة، وحيناً في معاني الكرم وشرف  
النسب، وحيناً آخر في معاني الورع والتقوى والزهد ، وهذه أظهر عند الشعراء  
العلماء من غيرهم.

فمقطوعة الفضل غلبت عليها معاني البطولة والشجاعة وشرف النسب والسيادة  
لأن الدافع إلى المدح بطولي .

أما مقطوعة الجزري في مدح محمد بن سحنون فقد اعتمد المعاني الإسلامية ،  
حيث مدحه بعدل أبيه في القضاء ، والنصح للأمة وإرشادها نحو الخير، كما مدحه  
بالزهد في الدنيا أملاً في الآخرة . وهي معاني وإن كانت أساسية في بناء  
المجتمع الإسلامي إلا أن التقريرية قد غلبت عليها فطبعها بشيء من السطحية  
التي ليست من خصائص الشعر الفعال.

أما قصيدة عبد الكريم في مدح ملك صنهاجة الذي خلف الفاطميين على المغرب  
فهي رائعة جزلة، ركزت على معاني القوة والوقار والهيبة ، وكذا اليمن وسعد



الطالع لكل ذلك فهو جدير بعقائل الشعر وجواهره لتخليد مآثره وأخلاقه وعظمة دولته وملكه.

أما الجانب الفني فالجزالة تباينت من شاعر لآخر. وهي أبين وأوضح في شعر الفضل وعبد الكريم النهشلي وإن تباينت من حيث اللون؛ فالجزالة عند الفضل بن النهشلي بدوية في ألفاظها ومعانيها وفي صورها. فمن الألفاظ الناعش والرائش وأسماء القبائل وهي ألفاظ لها ارتباطها بالبيئة القبلية العربية. أما الصور والمعاني فمنها أن الممدوح كبش عدنان، والكبش فيه معنى الفحولة والقوة في ثقافة البدو، كما أن الإفراط والغلو وطغيان الأنا بارزة في القصيدة وهي من سمات البداوة، من ذلك: أن الممدوح كبش عدنان قاطبة، وأنه ملاذها، وفراج الكرب وغير ذلك من المبالغات المتداولة في الشعر الجاهلي التي ما لبثت أن خفت بعض الشيء في صدر الإسلام ثم عادت أكثر توهجا أيام الفتن الحزبية. أما الجزالة في شعر عبد الكريم النهشلي فهي أكثر تعبيراً عن القيم الحضارية الجديدة التي أخذت تتألق في الوطن العربي والإسلامي منذ أواخر القرن الثاني، والتي كانت على درجة رفيعة خلال القرن الرابع، زمن هذه القصيدة.

فمن الألفاظ - وهي مصقولة كلها بصقال الحضارة - الجلالة، الحوك، ورف، والسعد. وأما الأبنية فقد نسجت نسجا طريفا ينم عن شعرية مذهلة. منها - وقد أشرت حين تعقيبي على القصيدة إلى كثير من معاني الروعة فيها - "تري فيها رفع الطرف خفضا" مطابقة شخصت رهبة المجلس ووقاره، حتى لتحارُ أَعينُ الرجال مجتلية حسنَ وبهاء الملك أ و أنها مغضوضة حياءً وهيبةً. و" تهلت

وجوه رباها" استعارة عبرت عن يمن الملك واستبشار الكائنات به . و "من يوله  
سعدا" كناية أو استعارة تشخص مدى سلطانه ونفاذ أمره. وقوله " رماحك  
أحناء الضلوع نقافها" استعارة تصور مدى قوة سلاحه وجودته فهي لاتخطئ  
اهدافها ، وأهدافها فلق الرؤوس، إن كان أراد إضفاء صفة التمييز على الرماح.  
وقد تكون كناية إن كان أراد بأحناء الضلوع مواطن القلوب.  
والقصيدة حافلة بالصور الجميلة التي أعطت معاني رائعة راقية ، انمازت بالدقة  
والطرافة والتناسب مع غيرها ومع السياق.

من هذه النماذج يمكن استخلاص أن شعر المدح عند جماعة السنة متنوع تنوع  
طبيعة المغرب وتبعاً للتطور الزمني، وحسب شخصية الشاعر أخذ المواصفات  
التالية:

- 1- نوع غلب عليه الاتجاه الإسلامي ، فمدح منطلقاً من مبادئه وقيمه ، متأثراً  
بأسلوبه كمقطوعة يعقوب الجزري في مدح محمد بن سحنون، وكمقطوعة  
عمران بن سليمان في مدح أستاذه ابن رشيق.
- 2- ونوع غلب عليه الاتجاه البدوي في أفكاره وأسلوبه. فمدح بقيم البداوة والقبلية  
غير متأثر بالقيم الإسلامية. نموذج ذلك مائل في قصيدة الفضل بن النهشلي في  
مدح تمام بن تميم الدارمي .
- 3- وصنف متأثر بالقيم الحضارية الجديدة، سواء من حيث دقة أفكاره أو من حيث  
مسايرته لمظاهر الترف وقوة السلطان. صورت ذلك قصيدة عبد الكريم النهشلي  
في مدح المنصور بن بلكين الصنهاجي .

## رابعاً: الحماسة

المتتبع لنشأة الشعر المغربي منذ القرن الثاني يدرك أن الحماسة هي أول الأغراض الشعرية نشأة في هذه الربوع، ثم أنها أرقى الأغراض نضجا وأكثرها امتلاء بالروح الشعرية الأصيلة، وذلك تبعا لواقع المغرب الذي لا تكاد تخمد فيه حرب حتى تضرم أخرى. فكانت الحربُ قدره المقدور. وأول صورة لهذا الشعر الحماسي تمثلت في تلك المساجلات الشعرية التي تبادلها الخصوم المتحاربون، تحمل صورا رائعة للتحدي المتبادل بين الأبطال والإصرار على المنازلة مهما تكن النتيجة. من ذلك هذه المساجلة التي دارت بين عبد الها بن الجارود العبدي، أحد قادة الجيش في المغرب. ثار على والي القيروان، الفضل بن روح فقتله واستولى على إفريقي، فزحف إليه مالك بن المنذر الكلبي من "ميلة" طمعا في أن يضع لتمرده حدا. إلا أن ابن الجارود تمكن منه فقتله. فاستغلظ أمره فأرسل هارون الرشيد بعض ثقاته الدهاة لمهادنته والتخطيط للقضاء على خطره. ومنهم محمد بن الفارسي الذي قضى عليه ابن الجارود، وفيه يقول مفتخرا بفتكه ومتوعدا العلاء بن سعيد عامل منطقة الزاب الذي زحف إليه طلبا لثأر الفضل بن روح:<sup>1</sup>

لقد رامني ابن الفارسي بكيده      فوافق أمضى منه عزما وأكيدا  
عشية أدعوه ليسمع منطقي      فأعجزه إصدار ما كان أوردا  
فداريته حتى اطمأن جنانه      وكان امرأ مثلي أغار و أنجدا  
أشرت إلى ذي نجدة فانكفا له      بأسمر خطي إذا مال أقصدا

<sup>1</sup> - ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص 85.

فما زال قاب القوس إلا وعامل من الرمح دام بين حضنيه قد بدا  
فقل للعلاء : قد أصاب محمدا منية يوم فارتقب مثلها غدا  
إن التغني بالانتصارات والمواقف البطولية من صميم شعر الحماسة، فابن  
الجارود في مقطوعته هذه تغنى بعرض الخطة التي اختارها للقضاء على أحد  
الدهاة المنتخبين من قبل الخليفة هارون الرشيد للقضاء على ابن الجارود وثورته .  
وهي خطة تتم عن دهاء وشجاعة هذا القائد المتمرّد، وكذا الدقة في تنفيذ الخطط  
وهو جانب من جوانب الشجاعة بل ولا شجاعة من غيرها. "فداريته حتى اطمأن  
جنانه ، وكان امرؤ مثلي أغار وأنجدا!" . إن لذة التشفي التي بصمت بها الأبيات ما  
كانت لتكون لو لم يكن الموقعُ به في مستوى ابن الجارود.

ولابن الجارود أبيات في الحماسة يذكر فيها بشيء من الاعتزاز كثرة من قتل  
من مناهضيه في دم الفضل لدرجة التعجب، وناذرا قتل غريمه العلاء بن سعيد.

الأبيات:<sup>1</sup>

أفي كلّ يومٍ نائرٌ قد قتلته      بفضلٍ وما ينفكُ للفضل نائرٌ  
قضيتُ لنفسي النَّذرَ في قتل مالكٍ      وإني لها قتلَ العلاء لَنَازِرٌ<sup>2</sup>  
فما للعلاء خيرةٌ في لقائنا      وليسَ له في الناس إن فرَّ عاذِر

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص86.

<sup>2</sup> - يعني مالك بن المنذر، قدم من ميلّة إلى تونس لقتال ابن الجارود، لكنه قتل من قبل أحد رجال ابن الجارود حين هم بمنزلته وهو يقول : يا موت إني مالك بن المنذر\*\* أمسك حسن البيض والسنور\*\*أقتل من صابر ومن لم يصبر .  
أنظر : الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب،تح: د،محمد زينهم محمد عزب،دار الفر جان ي،القاهرة  
ط1 / 1414هـ،1994م،ص119.

فأجابه العلاء - متحديا- بقوله :<sup>1</sup>

لَعْمُرُكَ يَا عَبْدَويِّ مَا كُنْتُ تَارِكًا      دَمَ الْفَضْلِ أَوْ يَكْسُونِي التُّرْبُ ثَائِرُ  
نَذَرْتُ دَمِي فَانظُرْ إِذَا مَا لَقَيْتَنِي      عَلَى مَنْ بَكَاسِيهَا تَدُورُ الدَّوَائِرُ  
سَتَعْلَمُ إِنَّ أَثْنَبْتُ فِيكَ مَخَالِبِي      إِلَى أَيِّ قَرْنٍ أَسْلَمْتُكَ الْمَقَادِرُ

إن مثل هذا الشعر النابض بالشعرية صورة وإيقاعا ، والمفعم بشتى القيم  
الجمالية والبطولية ليعبر عن عبقرية المغاربة في مساندة الأحداث فكريا وفنيا.  
ومثل هذه النماذج الحماسية في الشعر المغربي كثيرة تدل على أن  
المساجلة الشعرية تمثل تيارا شعريا تبناه الشعراء الأمراء والولاة ، والشعراء  
الفرسان والقادة .

ممن عرف بهذا الاتجاه من الولاة والأمراء:الفضل بن روح ، ومحمد بن  
مقاتل العكي وجل الأمراء الأغالبة وبخاصة إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن  
عقال المكنى أبو إسحق.ومن القادة الحسن بن حرب ، وعمران بن مجالد الربيعي  
وخريش بن عبد الرحمن بن خريش الكندي.ومنهم أحمد بن سفيان بن سواده<sup>2</sup>

،قال في الحماسة مستهلا بطلب جواده " الأبلق"<sup>3</sup>:

<sup>1</sup> - ابن الأبار : الحلة السيرة، ص 86 .  
<sup>2</sup> - هو ابن سواده بن سفيان بن سالم بن عقال ، وعقال هو جد الأغالبة ،ولي الزاب ثم ولي طرابلس سنين كثيرة وله بها  
أخبار ووقائع ،كان من الجنود بمكان رفيع ، قام بنصر أبي العباس محمد بن الأغلب على أخيه أحمد حتى ظفر به .وهو من  
ممدوحى بكر بن حماد قال فيه :

وقائلة زار الملوك فلم يفد      فياليتته زار ابن سفيان أحمدا  
فتى يسخط المال الذي هو ربه      ويرضى العوالي والحسام المهندا

أنظر ابن الأبار: الحلة السيرة، ص 183 .

<sup>3</sup> - ابن الأبار: المصدر السابق ص 83-84 .

قربوا الأبلق إني      أعرف الخيل العتاقا  
وعليها أصرع الأبـ      طال طعنا واعتناقا  
أخطف الأرواح والأنـ      فس بالرمح صداقا  
وأروي من نجيع الـ      هام أسيافارقا  
تنقع الأعداء في النقـ      ع حميما وغساقا  
فإذا ما دارت السلـ      م بما نبي وفاقا  
وأزحنا كل ما كا      ن شقاقا ونفاقا  
اصطبجناها سلافا      وشربناها اغتباقا  
وأدرنا الكأس بالرا      ح على الشرب دهاقا

القصيدة غاية في الغنائية بوزنها وإيقاعها(مجزوء الرمل) وملاءمة  
قافيتها لموضوع الحماسة. عبر بها عن فلسفته في الحياة، فلسفة كل الفرسان ؛  
ركوب الجياد لخوض الحروب وحسن البلاء فيها. هذا وجه من وجوه استمتاع  
الأبطال بالحياة. ووجه آخر هو الاستمتاع بالشرب والمسامرة وما يتخلل ذلك من  
متع. وهي فلسفة معروفة لدى كثير من شعراء الجاهلية وها هي ذي تستمر حتى  
في ظل الإسلام مع عدد ليس بالقليل من الشعراء.

الملاحظ أن جل نصوص الحماسة والفخر لجماعة السنة ترجع إلى القرن  
الثاني والثالث الهجريين أما الرابع فلم أقف على شيء منها . ويفسر ذلك بغلبة

الفاطميين على الإقليم . يؤكد ذلك انضواء بعض المقاومين من رجال السنة تحت لواء أبي يزيد الخارجي .

من الشعر المنتمي إلى غرض الحماسة شعر الوعيد الذي دار هو الآخر بين المتحاربين، يعمد هو الآخر إلى تخويف الخصم وترويعه من ذلك هذه المقطوعة التي بعث بها خريش بن عبد الرحمن بن خريش الكندي إلى إبراهيم بن الأغلب:<sup>1</sup>

قل جهرة لأبي إسحاق تنصحه      هذا فراقكم للغرب قد حانا  
فلا يعود إليه منكم أحد      حتى يعود من الأجدات موتانا  
فارجع عن الغرب أو ألق السواد به      لا تخترمك المنايا حين تلقانا  
وسوف تعلم أن الموت يسمع لي      إذا التقت بنواحي الفحص خيلانا

إن شعر الوعيد خلال هذه الفترة قد أخذ في غالبته شكل المساجلة ، إذ بمجرد أن يبلغ الوعيد المتوَعَّد يرد عليه بما يجانسه مضمونا وشكلا .

---

<sup>1</sup> - ابن الأبار : الحلة السيرة، ص102.

## خامسا : الهجاء

الهجاء من بين الموضوعات التي تداولها الشعراء المغاربة منذ بداية القرن

الثاني الهجري .ولعل أقدم نص شعري يمكن إدراجه ضمن شعر الهجاء أو

التعريض هذه الأبيات التي بعث بها أبو الخطار<sup>1</sup> في بداية العقد الثاني من القرن

الثاني الهجري، إلى هشام بن عبد الملك:<sup>2</sup>

أفأتم بني مروان قيسا دماءنا وفي الله - إن لم تتصفوا- حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

وقيناكم حر القنا بنحورنا وليس لكم خيل سوانا ولا رجل

فلما بلغتم نيل ما قد أردتم وطاب لكم منا المشارب والأكل

تعاميتم عنا بعين جلية وأنتم كذا ما قد علمنا لها فعل

فلا تأمنوا إن دارت الحرب دورة وزلت عن المرقاة بالقدم النعل

فينتقض الحبل الذي قد فتلتم ألا ربما يلوى فينتقض الحبل

وهذا تعريض أليم بيوم ( مرج راهط ) الذي كان فيه لقبيلة كلب اليمانية فضل

حماية الأمويين الذين كانوا يوم ذاك في وضع حرج

<sup>1</sup> - هو الحسام بن ضرار بن سلامان الكلبى أحد أقطاب اليمانية وأمرائها في المغرب . ومعلوم أن العصبية القبلية قد بعثت في العهد الأموي نتيجة الصراع الدائر على السلطة ، فقد كانت قبيلة كلب اليمانية أموية الهوى في حين كانت قبيلة قيس زبيرية الهوى ، ويفضل دعم اليمانية للأمويين أيام مروان بن الحكم انتصروا في موقعة مرج راهط عام 56 هـ فثبتت ملك بني أمية . غير أن الأمويين لم يبقوا أوفياء للكلبيين . فبعد موت بشر بن صفوان الكلبى والى المغرب عام 109 هـ عين هشام عبيدة بن عبد الرحمن القيسي على المغرب فاضطهد الكلبيين بالزج بهم في السجون وإتقالهم بالغرارات وقد مس ذلك الحيف الشاعر أبا الخطار . تلك مناسبة القصيدة . ويقال إن القصيدة حملت هشام على عزل عبيدة عن المغرب وعين عليه حنظلة بن صفوان الكلبى . وفي 125 يعين أبو الخطار على الأندلس . أنظر د، إبراهيم الدسوقي جاد الرب: شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 16، 17.

<sup>2</sup> - ابن الأبار : الحلة السبراء، ص 64.



" وليس لكم خيل سوانا ولا رجل " . وفي الأبيات كذلك تعريض بعدم الوفاء والتنكر لأصحاب الفضل ونكران الجميل، وغير ذلك من الصفات التي تتأذى منها الرجال وتتقي أن تعير بها . لذلك قد يكون التعريض أنكى وأشد من التصريح.

ومن مقطوعات الهجاء التي تعود إلى الثلث الأخير من الثاني مقطوعة الهجاء التقليدي ما دار حول اللؤم ، والغدر والفرار والبخل وضعة النسب، وغير ذلك من أصداد ما يتمادح به الرجال. إن أكبر قسط من هجاء أهل السنة كان للعبيديين الشيعة ، نظرا لما أظهره من مخالفة للعقيدة الإسلامية الصحيحة التي جاء بها القرآن الكريم والسنة الشريفة والمأثور عن السلف الصالح. قال أحد شعراء السنة يهجوهم:<sup>1</sup>

الماكر الغادر الغاوي لشيئته      شر الزناديق من صحب وتباع  
الناكثين عهد الله كلهم      قوم إلى سفه في الناس أوضاع  
العابدين إذا عجل يخاطبهم      بسحر هاروت في كفر وتبداع  
لو قيل للروم : أنتم مثلهم لبكوا      أو اليهود لسدوا صمخ أسمع  
ولو عزونا إلى إبليس ما مكروا      لقال إبليس: ما هذا من اطباعي

هذا هجاء جامع لكل معاني اللؤم ؛ من المكر والغدر والغواية والتزندق، ونكث العهد والكفر ، وهي كلها صفات معنوية يتأذى الرجال المهجورون بها أيما أذى .

<sup>1</sup> — محمد البعلوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، دار الغرب الإسلامي . بيروت . ط 1/1986 ص 39.

وثبت هذه القبائح لهم يعني سلبهم من كل الفضائل. وهذا هو الهجاء الأليم كما قال أبو هلال العسكري: " والهجاء إذا لم يسلب الصفات المستحسنة التي تختص بها النفس ، ويثبت الصفات المستهجنة التي تختصها أيضا لم يكن مختارا"<sup>1</sup> وإلى جانب ما في هذا الشعر من سلب الصفات، فيه أيضا السخرية والتحقير حين جعلهم أخبث الأمم وأخبث من إبليس.

هذا المقطع الشعري يمثل صورة من صور الصراع المذهبي في المغرب.

ولأبي القاسم محمد بن عامر الفزاري(ت345هـ) أشعار كثيرة في هجاء

العبيديين منها:<sup>2</sup>

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم	نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم	فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في	أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحا	وأبا قدارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا	عمّن أصارهم الإلاه نجوما
يا ليت شعري من هم إن جهلوا	دُنيا، ومَن هم إن عددت صَميما
أمن اليهود؟ أم النصارى؟ أم همُّ	دهريّة جعلوا الحديث قديما؟
أم هم من الصابيين أم من عصابة	عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما؟
أم هم زنادقة معطلة رأوا	[أن] لا عذاب غدا ولا تنعيما؟

<sup>1</sup> - أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، تح محمد علي الجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا

بيروت 1406هـ 1986م، عصف 104

<sup>2</sup> - عبدالله بن محمد المالكي: رياض النفوس. ج. 2. ص 494 - 495.

أم عصبه ثنوية قد عظموا النورين عن ظلماتهم تعظيما؟  
من كل مذهب فرقة معلومة أخذوا بفرع وادعوه أروما  
سبحان من (أبلى) العباد بكفرهم وبشركهم حقا وكان رحيمًا  
يارب فالعنهم ولق لعينهم بأبي يزيد من العذاب أليما

إن مثل هذا الهجاء ليكشف عن مقت الشاعر لمذهب هؤلاء العبيديين،  
وتبرمه وعامة الأمة من افتراءاتهم على الله، مقت يصل إلى اللعن. فهم عنده  
أسوأ من اليهود ومن النصارى، بل وأسوأ حتى من الدهريين وأصحاب النحل  
الوضعية الفاسدة، كالصابئة والمجوس والثانوية وغيرها مما لا يتصل بالسماء  
بسبب من الأسباب.

مثل هذا الموقف العدائي الصريح لمذهب العبيديين، جاء من باب المعاملة  
بالمثل. فقد نكت العبيديون موثيقهم مع أنصارهم، وكشفوا عن حقدهم لمن ليس  
على عقيدتهم بمجرد اعتلائهم سدة الحكم، فبالغوا في سفك دماء الناس وأذية  
العلماء ممن لم يعتنقوا مذهبهم. عبر عن ذلك الفزاري صاحب النص السابق  
بهذا الجزء من رائيته الشهيرة في هجاء العبيديين ( ستة وستون بيتا) كما أوردها  
محمد اليعلاوي.<sup>1</sup> والقصيدة وإن خلت من التجريح الصريح الذي اعتمد في  
القصيدة السابقة، فهي أكثر كسفا للوم العبيديين وأشد وطأ عليهم، لاعتماد الفزاري  
فيها عاطفة هادئة مكنته من تتبع وتصوير فسادهم الذي مس العباد والعمران،

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص 209-213.

وما سلط منه على القيروان وأهلها كان أكثر. وباعتبار القيروان حاضرة المغرب  
، فإن تصوير ما حل بها من مآسي، سيحرك نخوة أبنائها، ويؤلبهم على الطغاة  
الزنادقة، كما ينعتهم علماء السنة.

الجزء المعني من قصيدة الفزاري:<sup>1</sup>

ألا أبلغ معاشر ليس عندي	لهم عذر ولا فيهم عذير
نحب صلاحهم، وهم غضاب	علينا ، إن ذا جور كبير
ضمائهم مراض واجمات	علينا ، لا أفاق لهم ضمير
ولا ذنب لنا إلا لأنا	سلمنا حين عمهم الثبور
وليس لنا كما لهم حصون	ولا جبل أعاليه وعود
ولا نأوي إلى بحر، وأننى	إذا فُضي القضاء تُنحَى البُحور
ولكنا إلى القرآن نأوي	وفي أيماننا البيض الذكور
عقائهم كالبوارق مرهفات	بها تحمى الحرائم والثغور
وسمر في أعاليهن شهب	بها ظمأ ، مواردنا النحور
لنا شيب جاحجة ليوث	وشبان غرائقة صُفُور
وإننا بعد من خوف وأمن	نحب إذا تشعثت الأمور:
رسول الله ، والصديق ، حبا	به تُرجى السعادة والحُبور
وبعدهما نحب القوم طرا،	وما اختلفوا، فربهم غفور
ألا بأبي وخالصتي وأمي	محمد البشير لنا نذير

<sup>1</sup> - المرجع السابق ص 12-13.

سأهدي - ما حبيت - له ثناء مع الركبان ينجد أو يغور

بعد تعبير الشاعر عن عدم منطقية موقف العبيديين من أهل السنة في المغرب من أنصارهم، كما سماهم أبو عبد الله الداعية. بأسلوب نلمس فيه روح العتاب (لا ذنب، لا قوة، لا حصون). قال إن ذلك لا يعني الاستسلام. فأندر العدو قوة سيوف ورماح قومه الذين ما تعودوا التخلي عن مبادئهم ومعتقداتهم. بعدها ختم النص بإعلان تحديه ببقائه على حب محمد - صلى الله عليه وسلم - وصحابته - رضوان الله عليهم جميعا - . فإيمانهم لاتزعه الأهوال ولا تغيره الأحوال. يؤكد هذا التحدي والاستبسال من قبل المغاربة دون مبادئهم مناظرة سعيد بن الحداد، المكنى أبو عثمان - أحد أقطاب العلم والأدب في المغرب - لأبي عبد الله الشيعي، تلك المناظرة التي صورت أصالة وسعة ثقافة علماء المغرب، وذلعتهم في شتى المعارف؛ سواء المتعلقة منها بالعقيدة أو بالشرعية أو بالأدب والفكر. تلك الثقافة التي مكنت المغاربة من محاوره ومناظرة أصحاب المذاهب والنحل الأخرى بروح علمية عالية، في المغرب مع الطارئيين عليه، وفي المشرق مع أقطاب العلم والأدب وأصحاب المذاهب. ولعل مناظرة سعيد بن الحداد هذه لأبي عبد الله الشيعي، الداهية الحذق، ممكن العبيديين من المغرب وبالمغاربة لأكبر دليل على عبقرية المغاربة المبكرة. وهذا جانب من المناظرة، وقد جرت

بحضور عدد من العلماء بقصر إبراهيم بن أحمد الأغلبى. قال أبو عبد الله لإبراهيم بن يونس، وقد قيل له إن هذا الشيخ كان قاضيا على هذه المدينة: <sup>1</sup>

بأي شيء كنت تقضي؟

فقال إبراهيم: بالكتاب والسنة.

فقال أبو عبد الله: وما السنة؟

فقال إبراهيم: السنة ... السنة ...

(قال أبو عثمان) فلما سمعته على قوله " السنة ... السنة ..." قلت لأبي عبد الله

:المجلس مشترك أم خاص؟

فقال: مشترك.

(فقال أبو عثمان) فقلت: أصل السنة في كلام العرب: المثل الذي يتمثل عليه، قال

الشاعر:

تُرِيكَ سُنةً وَجِهٍ غَيْرَ مُفَرِّقَةٍ مَلَسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نَدْبُ

أي صورة وجه ومثاله. والسنة في ثلاث: الائتثار بما أمر به رسول

الله (صلعم)، والانتها عما نهى عنه، والائتساء به فيما فعل.

قال الشيعي: فإن اختلف عليك فيما نقل إليك عن النبي (صلعم)، وجاءت السنة من

طرق؟

---

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي: المرجع السابق. ص 41.

فقلت له: أنظر إلى أصح الخبرين نقلاً، فأخذ بأصحهما، وأطلب الدليل على موضع الحق في أحد الحديثين. ويكون الأمر في ذلك كشهود عدول اختلفوا في شهادة: فلا بد من طلب الدليل على موضع الحق من الشهادتين.

فقال الشيعي: فلو استنوا في الثبات؟

فقلت له: يكون أحدهما ناسخاً والآخر منسوخاً.

قال فمن أين قلتم بالقياس؟

فقلت له: قلنا ذلك من كتاب الله - عز وجل - .

قال فأين تجد ذلك؟

قلت: قال الله - عز وجل - : يا أيها الذين آمنوا، لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم. ومن قتله منكم متعمداً، فجزاء مثل ما قتل من النعم، يحكم به ذوا عدل منكم " <sup>1</sup> فالصيد معلومة عينه، والجزاء الذي أمرنا أن نمثله بالصيد المعلومة عينه ليس بمنصوص. فعلمنا بذلك أن الله تعالى إنما أمرنا أن نمثل ما لم يُنص ذكر عينه بالقياس والاجتهاد. ومنه قول الله - عز وجل - : "يحكم به ذوا عدل منكم " فلم يكله إلى حاكم واحد حتى جعلها اثنين ليقبلا ويجتهدا.

فقال أبو عبد الله الشيعي: ومن ذوا عدل؟ - وأوماً أن "ذوا عدل" هم قوم

مخصصون بنص الآية.

فقلت هم الذين قال الله - عز وجل - فيهم في آية المراجعة: " وأشهدوا ذوي عدل

منكم " <sup>2</sup>

<sup>1</sup> - سورة المائدة: آية 95.

<sup>2</sup> - سورة الطلاق: آية 2 .

ومثل ذلك في تثبيت القياس في قوله - عز وجل - : " ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"<sup>1</sup>، والاستنباط غير منصوص.

ثم عطف على موسى القطان فقال له: أين وجدتم حد الخمر في كتاب الله تعالى؟ فقال له موسى: قال النبي (صلعم): من شربها فاضربوه بالأردية. ثم إن عاد فاضربوه بالأيدي. ثم إن عاد فاضربوه بالجريد.

فقال له أبو عبد الله، على النكير منه: إيش هذا؟ أقول لك: أين وجدتم في كتاب الله؟ تقول: اضربوه بالجريد؟

(قال أبو عثمان) فقلت له: إنما حد قياسا على حد القاذف لأنه إذا شرب سكر، وإذا سكر هذى، وإذا هذى افتري: فوجب عليه ما يؤول أمره إليه، وهو حد القاذف. فقال لموسى القطان: أو لم يقل النبي (صلعم): أقضاكم علي؟ - فجعل موسى ينص عليه الحديث: "... و أعلمكم بحلال الله و حرامه معاذ، و أرافكم أبو بكر، و أشدكم في دين الله عمر" رضي الله عنهم أجمعين.

فقال له الشيعي: و كيف يكون أشدهم في دين الله، و قد هرب بالراية يوم حنين؟ فقال له موسى: ما سمعنا بهذا و لا نعرفه.

(قال أبو عثمان) فقلت له: تحيز إلى فئة كما أنزل الله تعالى: قال الله تعالى: "إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة"<sup>2</sup>. فمن تحيز إلى فئة كما أمر الله تعالى فليس بفار.

فقال: و أي فئة أكثر من رسول الله (صلعم) و قد كان حاضرا، و لم يتحيز إليه؟

<sup>1</sup> - سورة النساء: آية 83.

<sup>2</sup> - سورة الأنفال: آية 16.



فقلت: جاء عنه ( صلعم ) أنه قال: " عمر فئة " . فمن تحيز إلى عمر فقد تحيز إلى فئة.

فسكت . فحركه بعض أصحابه، و قال: ألا تسمع ما يقول الشيخ؟ فقال: صدق. وهذا جزء آخر من المناظرة حول علي بن أبي طالب.

قال أبو عبد الله: يا أهل المدينة، إنكم تبغضون عليا.

فقال أبو عثمان: على مبغض علي لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. وكيف

أبغض عليا، وقد سمعت سحنون بن سعيد وهو إمام هذه المدينة

بالمغرب، يقول: علي بن أبي طالب إمامي في الدين، أهتدي بهديه، وأستن بسنته، وأقتفي أثره، رحمة الله عليه.

فقال أبو عبد الله أراد أن يقول: صلى الله عليه، فرجع فقال رحمة الله عليه.

فقال أبو عثمان – ورفع بها صوته - : نعم صلى الله عليه، لأن الصلاة في كلام العرب الرحمة والدعاء، قال الأعشى :

تقولُ بئتي، وقد قرَّبتُ مرتَّحلاً : ياربُّ، جنَّبَ أبي الأوصابَ و الوجعا

عليكٍ مثلُ الذي صلَّيتُ، فاعْتَمِضي يوماً ، فإنَّ لجَنبِ المرءِ مُضْطَجَعَا

فالصلاة من الله رحمة، ومن الأدميين دعاء. نعم فصلى الله على علي وفاطمة والحسن والحسين وعلى أهل طاعته أجمعين من أهل السماوات والأرضين.

قد بدا من خلال هذا الجزء المقدم من المناظرة رسوخ قدم أبي عثمان

في العلم، الأمر الذي أفحم الشيعي في كل جزء من جزئيات هذه المناظرة التي

رام بها الشيعي معرفة رأي من في المجلس في السنة، والقياس، والخمر، وفي

الصحابة بما فيهم علي - رضوان الله عليهم جميعا - والغاية من كل ذلك نشر عقيدته في تلك القضايا وغيرها. فما حقق شيئا بفضل أبي عثمان رحمه الله فكان الشيعي كما قال الشاعر:

كناطح صخرة ليوهنها فما وهنت ولكن أوهى قرنه الوعل .

قال أبو عثمان رحمه الله متبرما مما حدث ويحدث على أيدي العبيديين<sup>1</sup>:

مازلت من حادث الدهر معتجياً حتى انقضى عجبي بعد الثلاثمائة

لا بارك الله في عامٍ وفي سنةٍ كانت لشر زمانٍ كان مختبئةٍ

عادت أسافله طراً أعاليه ولا أعالي إلا وهي مُنكفة

السنة التي دعا عليها الشاعر هي سنة سبع وتسعين ومائتين، وهي التي ظهر

فيها العبيديون على من سواهم في المغرب فكانت سنة شر، وأيُّ شر أكثر من أن

ينتهك الدين بالتحريف .

ومن أفضع ما قيل في هجاء العبيديين من قبل شعراء السنة، قصيدة سهل

الوراق (سنة وثلاثون بيتاً) تفنن خلالها في تتبع هجاءهم بأسلوب ساخر، اخترت

منها هذه الأبيات التي تصور بعض ما شاع من معتقداتهم. يقول:<sup>2</sup>

هل أنت بعد الشيب ذو صبواتٍ أم مُرعو عنها مطيع نهاية

يأبى مشيئك من سؤالك أربعاً كانت محلّ العير والظبيات

يا صاحبي سلا ذوي الردّات ما بال وحي نبيهم لم يات

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص 40.

<sup>2</sup> - المالكي : رياض النفوس . ج 2 ص 496 - 497.

ما كان عنه مبطنًا ناموسه من قبل في وقتٍ من الأوقات  
فالآن لا وحي إليه، فأين ما زعموا من الإيهام والأبهات  
غضب الإلاه على نبيٍّ لم يزل حيران مغرورًا أبا سكرات  
منهمكا في خمره وسماعه مترددا في الغي والشبهات  
متعللا بالترهات، وتارة يتنفس الصعداء بالزفرات  
لا فرج الرحمن كركبك! إنما فرج الورى أن تألف الكربات  
يا ابن الأراذل والمجوس ويا ابن من هتك الفروج وضيع الصلوات  
أسفى عليك الخارجي بصيلم وافتك عند نهاية الميقات  
ما قُصّ في التنزيل سوءة أمة إلا وفيهم ضعفها سوءات  
نكروا فماعر فوا الجميل ولا احتذوا فعل الكرام ولا اقتدوا بقدرات  
وإذا الأعانيت اصطفينك فاستمع تأويلهم في محكم الآيات  
كتمرد المجان واستهزائهم في القول من زور ومختلقات  
أو كأنهمار مَوسوس يعتاده ( هذيانه ) وخباله تارات  
الطاعنين على النبي محمد والقائلين بأسخف القالات  
إن الإمام هو النبي وإنه رب تعالى الله ذو العظمت

من بين الهنات التي ركز عليها الشاعر في هجائه العبيديين . أنهم  
مرتدون ، حادوا عن الحق ، فهم في حيرة يجمعهون . هذا من حيث العقيدة ، و من  
حيث السلوك الاجتماعي فهم أهل خمر وفجور ، يسمعون القيان . ومن حيث

النسب فهم أراذل مطعون في نسبهم ، مجوس من عبدة النار، كما هجاهم  
بالتجرؤ على الرسول الكريم (صلعم) وصحابته رضي الله عنهم. وعلى القرآن  
الكريم بسوء التأويل حتى للمحكم منه، وبذلك بلغوا برذائلهم تلك مبلغا لم يؤثر  
مثله عن قوم قبلهم.

فالقصيدة تعد من أفضح ما قيل في الهجاء المذهبي. فقد تتبع الشاعر هجاءهم  
وسخافاتهم فما أغفل منها شيئا .

ومن الشعر المذهبي الذي يمكن إدراجه ضمن شعر الهجاء نظرا لما فيه من  
تهكم وتحقير وتشف ، قصيدة ابن زنجي الكاتب<sup>1</sup> ، قالها في مقتل الروافض.<sup>2</sup>  
القصيدة:<sup>3</sup>

شَفَى الغيظ في طَيِّ الفؤادِ المُكْتَمِ      دماءُ كلابٍ حُلَّتْ في المحرمِ  
فلا أرقأ الله الدموع التي جرت      أسيَّ وجوى فيما أريقَ من الدمِ  
هيَّ المنَّة العظمى التي جلَّ قدرُها      وسارتُ بها الركبانُ في كل موسمِ  
فيا سَمرا أَمسى عُلالة منجدٍ      ويا خبِرا أضْحى فكاهاةً مُتهمِ  
ويا نعمةً بالقيروان تباشرت      بها عُصبٌ حول الحَطيِّمِ وزمزمِ  
وأهدتْ إلى قبر النبي وصحبه      سلامًا كعُرفِ المسكِ من كلِّ مُسلمِ  
غزونا أعادي الدين لا الرِّمَحِ يثنِي      نبواً ولا حدَّ الحُسامِ المصممِ  
بكل فتىٍّ شهيمِ الفؤادِ كأنما      تَسرِبَلُ يومَ الرِّوعِ جِلدة شَيْهيمِ

<sup>1</sup> - قال عنه ابن رشيق هو من بيت كتابة ورئاسة وعلم كان شاعرا بارعا يتعب في صنغته ويجيدها.  
<sup>2</sup> - " الروافض هم الشيعة الرافضون لإمامة أبي بكر وعمر ؛ أو أنهم الغلاة في حب علي بن أبي طالب وآل البيت ...  
أو هم الرافضة لأنهم يرفضون الدين كلية وكفروا الصحابة ، وأبطلوا الاجتهاد، وفسفتهم سلبية وفوضوية " .  
د. عبد المنعم الحنفي: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط31420هـ 2000م ص387.  
<sup>3</sup> - ابن رشيق: نموذج الزمان في شعراء القيروان، ص108-109.

إذا أمّ لم يشدّد عرى مُتخوّف      وإن همّ لم يحلّ حُباً مُتندّم  
 من القير وانبيين في المنصب الذي      نميّ وإلى خير الصحابة ينتمي  
 وكنا نظنّ الكفرَ في جاهليةٍ      فتعساً لكفرِ جاهليٍّ مخضرم  
 يقولون: مولا هم عليٌّ وإنهم      لأعظمُ بُغضا فيه من آل مُلجم  
 سبّبتم عتيقاً والإمامين بعده      فلمَ تعتقوا يومَ الحريقِ المضرم<sup>1</sup>  
 وسؤتُم نبيّ الله في خير أهله      وأفضل بكرٍ في النساءِ وأيّم  
 فكُم عاثر منكم إذا صافحَ الثرى      من التّدعيرِ قلنا : لليدين وللهم  
 فلا نفقٌ في الأرض أخفى مكانكم      ولا شاهقٌ يرقى إليه بسلم  
 لقد رفضتكم كلَّ أرضٍ وبقعةٍ      وقد صرخت منكم بقاعُ جهنم  
 فذوقوا كما ذقناه أيامَ كُفركم      من الغيظِ في أكبادنا والتألم

حدث قتل الرافضة كان في 16 من محرم عام 407 هـ<sup>2</sup> والقصيدة زيادة عن

تعبيرها عن كره أهل السنة من المالكية للعبديين لدرجة نعتهم بالكلاب  
 ،واستحلال دمائهم حتى في الأشهر الحرم . وقد خبر موتهم من باب البشارة التي  
 تنتعش له أرواح موتى المسلمين قبل أحيائهم . لأنهم فسقة كفرية ، وجميل  
 وصف كفرهم بالمخضرم . وفي النص تسفيهه لإساءتهم للنبي صلى الله عليه  
 وسلم وأزواجه أمهات المؤمنين وأصحابه - رضوان الله عليهم جميعا - .

<sup>1</sup> - عتيقاً: هو أبو بكر الصديق، والإمامين: هما عمر وعثمان - رضي الله عنهم - .

<sup>2</sup> - ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب، دار الثقافة بيروت لبنان، ط2 / 1400 هـ 1980 م ج1 ص296.

إن القصيدة تمثل لونا من الهجاء أو الصراع المذهبي العقائدي الذي يقوم على أساس تسفيه بعض أسس المذهب و كشف بعض هناته و نفاق متبنيه كقوله : يقولون :مولاهم علي وهم أعظم بغضا له من قتلته. ولهذا الصراع مراحل فهو قد يبدأ بالحوار أو المناظرة فالى الهجاء وقد ينتهي إلى الاقتتال.

ويبقى هذا النص وثيقة تاريخية مهمة في الحياة المغربية .

وثمة موضوع آخر تهاجى به الشعراء المغاربة ،هو موضوع الهجاء بالتقصير في الفنون القولية أو التقرع فيها .

كتب محمد بن مغيث<sup>1</sup> إلى عمار بن علي بن جميل<sup>2</sup> يعاتبه على تقرعه في

الكلام وتكلفه له مع تأخر وتخلف فيه :<sup>3</sup>(خفيف)

ليت شعري إذا كتبتَ الدنْـ      دَنَ و النُّوسَ والوزَى والجرشَى<sup>4</sup>

ما يكون الجواب عنهنَّ يا من      نشَّ بحرَ العلوم من فيه نشأ<sup>5</sup>

أنا لما رأيتُ طرسكَ عاينـ      تُّ شجاعا و حيّة منه رقتشا

كان لما أردتُ أنظر فيه      مثلَ شمسٍ بدتُ لألحاظِ أعشى

و كأنَّ السطور في ذلك التـ      ريج عرّجـ عن أناملِ رُعشا

<sup>1</sup> - قال عنه ابن رشيق :كان شاعرا مطبوعا ،مرسل الكلام ، مليح الطريقة يقع على النكت ، ويصيب الأغراض ويقوم حرب الشعراء. كان مفتونا بالخمير متبذلا فيها .سأله بعض إخوانه - ليختبر قوة نفسه في المرض الذي مات فيه - :هل تقدر على النهوض لو رمته؟ فقال لو شئتُ مشيت من ههنا إلى حانوت أبي زكريا النباذ.فقال: ألا قلت إلى الجامع؟ فقال: \* لكل امرئ من دهره ما تعودا\*

الأ نموذج ص 404-405.

<sup>2</sup> - قال عنه ابن رشيق : كان قادرا على اشعر متوسط الطبع ،يحب حوشي الكلام وعويص اللغة ،مر المذاق شرس الأخلاق يتشبه بمحمد بن عبد الملك الزيات في جميع أحواله.

<sup>3</sup> - ابن رشيق: الأنموذج، ص306.

<sup>4</sup> - الدندن: الذباب وهينة الكلام . النوس والنوسان: التذبذب. بق المحيط ج 2 ص266. الوزى: الحمار المصنك والرجل المُلزَزُ القصير . ق م ج 4 ص402. الجرشي: النفس. ق م ج 2 ص275.

<sup>5</sup> - نش الغدير ينش نشيشا : أخذ مأؤه في النضوب. ق م ج 2 ص301.

و كأنّ المداد من مقلة الأشـ هـل لما جرى و أحدث نقشا  
فاتركنّ ذا الغريبَ ويحك والتقـ عيرَ إني عليك من ذاك أخشى  
و تأمل شعري المليح تجده زهرَ روض حسناً وثوباً يُوشى  
سلب الماء رقةً وصفاءً في معانيه فهو يُحبى و يُرشى  
و اذفنن شعرك الشريدَ ومن قبـ لُ فقرب له حنوطاً و نعشاً

فأجاب : ( الخفيف)

يا أبا عبد الله قد كنتَ عندي يُرتجى علمك الصحيحُ ويُخشى  
و إذا ربّعك المخيل بالأئـ س من العلم قدغدا منه وحشا  
ليت شعري إذا نفيتَ من المنـ ظوم و النثر دندنا و جرشى  
فبما تمزج الكلام فيغدو من لغاتٍ موشحاً وموشى  
لست تدري ما بين عرش وعرش دون أن تستفيد عرشا وعرشا  
فعليك السلام في كلّ علم متناهٍ موكل ما هو منشأ  
أنت صفرٌ منه ولو كنتَ ماعشـ تَ به الزمان تُوتى و تُحشى  
فدع الجدّ للمزاح الذي أنـ ت حفيظ عليه ترشو و ترشا  
ليس يخفى من الفتى ما لديه "كلّ سرٌّ وإن تطاول يُفشى"

هذا أحد ألوان الهجاء الذي يمكن عده طريفاً ، كونه لا يستهدف الشخص

من حيث هو قيم وأخلاق ومبادئ مباشرة ولكن يستهدفه من حيث هو مبدع

في فن من فنون الأدب والشعر وغيرها. فهو نقد أدبي لولا نزعة التهكم

والسخرية التي تجعله هجاء لا تقل آثاره عن التعبير بالصفات الذميمة والأخلاق السيئة وفساد الدين. وقد يكون أكثر إلفاء للمبدعين إلى القضايا التي تضمنها من النقد الموضوعي القائم على التحليل والتعليل .

الملاحظ على شعر المغرب أن الهجاء الفردي الذي عادة ما يكون بين

الشعراء بدوافع فردية أو قبلية نادر. في حين كثر هجاء شعراء السنة للشيعة العبيديين.

ورغم تلك الكثرة فلم يصدر عن شعراء الشيعة شيء مما يمكن اعتباره ردا على تلك الأهاجي السنية. ومما تميز به هجاء السنة مايلي:

1 - التركيز على فساد عقيدتهم وكشف ما فيها من مخالفة للعقيدة الإسلامية السليمة.

2- التركيز على كشف ما فيها من ترهات وافتراءات لا يقبلها العقل السليم.

3- التركيز على كشف رداءة أخلاق العبيديين وسوء معاملاتهم .

4- التشكيك في نسبهم وأصلهم ، .وأنهم أسوأ الأمم.

5- هجاء اتخذ أسلوب التهكم والمبالغة في التحقير.

6- هو هجاء هادف دفاعي عن مبادئ الأمة وعقيدها وأرضها.

إلى جانب الهجاء العقائدي المسلط أساسا على الشيعة هناك الهجاء المتبادل بين

الأفراد لأسباب اجتماعية أو سياسية أو أدبية وإن ندر قياساً بالتهاجي المذهبي.

أما من حيث الجانب الفني فقد تباين من شاعر لآخر قوة وضعفا، طبعا وتصنعا،



فكما نجد شعرا طريفا في أسلوبه وصوره، نجد شعرا آخر غلب عليه التكلف وضعف التأليف وبرودة العاطفة.

7- الغالب على شعر الهجاء في المغرب بعده عن الفحش إلا نادرا مراعاة للقيم الدينية والاجتماعية ، كما ترفع عن التهاجي بالصفات الخلقية.

### سادسا: التشوق

التشوق إلى الأهل والأوطان من الأغراض الوجدانية الشائعة في الشعر العربي، قديمه وحديثه. طريف يأسر النفوس لما فيه من رقة وأشواق تراكمت في نفوس الغرباء. وللغربة أسباب عديدة منها ما هو اجتماعي، كما لاغتراب طلبا للعلم أو العمل ومنها ما هو سياسي كالأسر والنفي والنجاة بالنفس من عدو ظالم، ومنها ما هو نفسي ذاتي تشابكت مكوناته فلا تعرف إلا بالحدس والظن، أو من قبل المتخصصين في علم النفس.

ولعل أقدم مقطوعة مغربية في هذا الموضوع هي أبيات عبد الرحمن بن زياد المغربي . كتب إلى ولده وخاصته هذه الأبيات - حين أذن له أبو جعفر المنصور بالعودة إلى وطنه رفقة محمد بن الأشعث عام 144هـ<sup>1</sup> :-<sup>2</sup>

ذكرت القيروان فهاج شوقي وأين القيروان من العراق  
مسيرة أشهر للعيس نضا على الإبل المضمرة العتاق

<sup>1</sup> - إبراهيم الدسوقي : شعر المغرب، ص252.  
<sup>2</sup> - المالكي: رياض النفوس ج1 ص156.

فأبلغ أنعمًا وبني أبيه      ومن يرجى له ولنا التلاقي<sup>1</sup>

بأن الله قد خلى سبيلي      وجد بنا المسير إلى مزاق

الشعر حين يطبعه الصدق يبقى رائعاً، حفل بالصور أم عري منها. فهذه

الأبيات وإن خلت من الصور اللبانية المتداولة إلا أنها حافلة بصور تدافع

الأشواق وهيجانها، واستبطاء الوصول؛ وأين القبروان من العراق؟! وقديماً قال

عنتره:<sup>2</sup>

قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوى      وأطول شوق المُستهام إلى غد

ومسيرة أشهر للعيس نصاً ،      وعلى الإبل المضمرة العناق كلها عبارات

تصويرية مشخصة لعواطف الشاعر وملحة على المعنى بكيفة رائعة.

إن قوة تأثير هذه الأبيات رغم بدوها أول الأمر بسيطة، يشبه قوة تأثير

الأبيات التي استلقت ابن قتيبة حين تصديه لعملية تصنيف الشعر، فصنفها ضمن

الضرب الثاني الذي حسن لفظه وحلا فإذا فنتشته لم تجد ثمة طائلاً<sup>3</sup>، وهي في

موضوع التشوق والحنين إلى الأهل والوطن - وأعتقد أن الطائل الذي يعنيه

ابن قتيبة هو الصورة البلاغية. فرغم خلو الأبيات من ذلك فقد هداه حسه الرفيع

وذوقه الأدبي إلى إثبات الأبيات والإشادة بها. وهذا اهتداء منه مبكرٌ إلى حقيقة:

أن روعة الشعر لا تتم فقط بالصورة البلاغية بل تتظافر في تشكيلها عدة آليات

<sup>1</sup> - في طبقات أبي العرب: "ومن يرجى لها وله التلاقي" ومزاق: فحص القبروان شهر بذلك لأن السحاب يتمزق فيه

<sup>2</sup> - محمد علي بيوض: شرح ديوان عنتره، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط3/ 1423 هـ - 2002 م ص56

<sup>3</sup> - ابن قتيبة: طبقات الشعر والشعراء، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط 3/ 1404 هـ - 1984 م، ص4.

الأبيات:

ولما قضينا من منى كل حاجة      ومسح بالأركان من هو مسح  
وشدت على حدب المهاري رحالنا      ولم ينظر الغادي الذي هو رانح  
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا      وسالت بأعناق المطي الأباطح

من بينها اللفظة العذبة والبناء المحكم والمعنى المتسق إلى الصورة البلاغية  
الحية.

ومن نصوص التشوق إلى الوطن والأهل هذه القصيدة التي قالها إدريس  
الثاني<sup>(1)</sup> بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهو  
بالمغرب هاربا من بطش العباسيين.

### القصيدة:<sup>2</sup>

لَوْ مَالَ صَبْرِي بِصَبْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ      أَضَلَّ فِي رَوْعَتِي أَوْ ضَلَّ فِي جَزَعِي  
وَمَا أَرِيعُ إِلَى صَبْرِ لَيْسَلِينِي      إِلَّا (تَحَوَّلَ بِي \*) يَأْسُ إِلَى طَمَعِ  
وَكَيْفَ يَصْبِرُ مَطْوِيٌّ هَضَائِمُهُ      عَلَى وَسَاوِسِ هَمٍّ غَيْرِ مُنْقَطِعِ  
إِذَا الْهَمُومُ تَوَافَتْ بَعْدَ هَجَعَتِهِ      كَرَّتْ عَلَيْهِ بِكَأْسِ مُرَّةِ الْجُرْعِ  
بَانَ الْأَحْبَةُ وَاسْتَبَدَلَتْ بَعْدَهُمْ      هَمَا مُقِيمَا وَشَمَلَا غَيْرَ مُجْتَمِعِ

<sup>1</sup> - هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. هرب بعد موقعة (فخ إلى المغرب في خلافة الهادي، بمساعدة صاحب بريد مصر، واستقر بمدينة (وليلي) من أرض طنجة، فاستجاب له من بها وأراضها من البربر، فلما علم هارون الرشيد بذلك ضرب عنق صاحب بريد مصر، ثم اختار سليمان بن جدير، من أهل الشجاعة والدهاء والبيان فأرسله إلى المغرب لاغتتيال إدريس. فلم يزل في التقرب إليه باسم الولاء حتى صار أخص الناس به بعد مولاه راشد. وفي غياب راشد - يوما - ناوله عطرا مسموما مات منه في يومه. أوائل رجب 173. ونجا إلى العراق. توفي إدريس وترك جارية حبلى فرعاها مولاه راشد، حتى وضعت مولودها، ربيع الأول سنة 175 هـ فسماه إدريس وقام بأمره حتى بلغ الغلام. ولم يكن ابن الأغلب له عما يلقاه الوليد من عناية مولاه راشد فدبر من اغتال راشدا سنة 186 هـ. قال ابن الأغلب مخاطبا الرشيد مفتخرا بتنفوذه ما أمر به

ألم ترني بالكيد أرديت راشدا      وأني بأخرى لابن إدريس راصد  
تناوله عزمي على بعد داره      بمخومة قد هيأتها المكائد  
فتاه أخو عك بمقتل راشد      وقد كنت فيه شاهدا وهو راقد

ثم قام برعايته بعد راشد يزيد بن إلياس العبدي. أنظر: تاريخ المغرب في العصر الوسيط. القسم الثالث من أعمال الأعمال. للسان الدين بن الخطيب. تح. د. أحمد مختار العبادي. ومحمد إبراهيم الكتاني. دار الكتاب. الدار البيضاء. 1964. ص 192-197.

أخذ بيعة البربر في شهر ربيع الآخر سنة 187 هـ وهو ابن إحدى عشرة سنة. وهو مؤسس مدينة القرويين سنة 193 هـ قتل مسموما كأبيه من قبل زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب سنة 213 هـ وعمره ثلاث وثلاثون سنة. أنظر الحلة السيرة ص 50-54.

<sup>2</sup> - محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار. الحلة السيرة. تح. الدكتور حسين مؤنس. دار المعارف مصر. ط 2 / 1963 ص 55-56.

\* ما بين قوسين من وضع إبراهيم الدسوقي جاد الرب. شعر المغرب حتى خلافة المعز. دار نشر الثقافة 1973 ص 111.

كأني حين يُجري الهمُّ ذِكرَهم على ضميري مَخْبُولٌ من الجَزَعِ  
تأوي همومي إذا حَرَكْتُ ذِكرَهم إلى جَوَانِحِ جسمِ دائمِ الِوَلَعِ

القصيدية وجدانية اتسمت بالرقّة في اللفظة والعبارة والمعنى، والطرافة  
في الصورة المجسدة لما يعتمل في عمق الشاعر من معاناة، وساوس متواصلة،  
توافد للهموم عليه بعد كل هجعة، تجرع لأكأس الهم ألوانا. فهو من كل ذلك  
كالمخبول. وجميلة هذه المبالغة التي افتتح بها قصيدته؛ لو مُدَّ صبري بصبر  
الناس جميعا لما أجداني سُلوًا عَمَّنْ فارقت. ثم ما أروع هذه الصورة التي  
جعلت من جوانح جسمه المعذب مأوى للهموم تأوي إليه.

تأوي همومي إذا حركتُ ذِكرَهم إلى جوانحِ جسمِ دائمِ الِوَلَعِ

صورة تذكرنا ببيت النابغة<sup>1</sup>:

وَصَدْرٍ أَرَاخَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ تَضَاعَفَ فِيهِ الْحَزْنُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ

فالنابغة جعل الليل كائنا يعمل على حشد الهموم، والرواح بها إلى قلب الشاعر.

في حين جعل الشاعر المغربي الهموم تتحاشد عليه، فتأوي في كل جوانح

الجسم بما في ذلك القلب. و عليه أرى أن الصورة الثانية أكثر تجسيدا لظاهرة

تزام الهموم على المهمومين. هذا لا يعني التقليل من وظيفة صورة النابغة

وحيويتها.

<sup>1</sup> - النابغة الذبياني: الديوان، جمع وتحقيق و شرح : محمد الطاهر بن عاشور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 976.ص44 .

ومن شعر الغربة المنبثق عن الوقوع في الأسر أبيات مجير الدين بن

إبراهيم أحد قواد إبراهيم بن أحمد، بعث بها من أسره بالقسطنطينية:<sup>1</sup>

ألا ليت شعري ما الذي فعل الدهر    بإخواننا يا قيروان ويا قصر  
ونحن فأنا طحطحتنا النوى    فلم يجتمع شمل لنا ولا وفر  
رأينا وجوه الدهر وهي عوابس    بأعين خطب في ملاحظها شزر  
لعل الذي نجى من الجب يوسف    وفرج عن أيوب إذ مسه الضر  
وخلص إبراهيم من نار قومه    وأعلى عصا موسى فذل له السحر  
يصبر أهل الأسر في طول أسرهم    على معضلات الأسر لا سلم الأسر

إن شعر الحنين والتشوق إلى الأهل والوطن يبقى من أكثر أنواع الشعر امتلاء

بالإنسانية في أصفى صورها وأنبأ أحاسيسها. وبخاصة حين يتعلق الأمر  
بالشعر الصادر عن الأسرى. لعل ما صدر عن أبي فراس الحمداني في المشرق  
وابن زيدون في الأندلس في القرون اللاحقة دليل على صدق الرؤية.

ومن شعر التشوق والحنين إلى الأهل المنبثق عن القرن الرابع الهجري  
هذه القصيدة التي قالها علي بن أبي علي المعروف بـ الناسخ<sup>2</sup> يتشوق إلى ولده

الذي سافر إلى مصر صغيراً لطلب العلم. القصيدة:<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - إبراهيم الدسوقي : المرجع السابق، ص 252.

<sup>2</sup> - وصفه ابن رشيق بقوله : "شاعر مجيد يطلب البديع، ويحب التصنيع، ويحترس من توابع الانتقاد  
حضرت عنده المكتب في جملة غلمانه..." الأنموذج ص 261.

<sup>3</sup> - ابن رشيق : أنموذج الزمان، ص 262.

يا دهرُ مالك لا ترثي لمكتبِ  
ما بات منك خليًا قط من كُرب  
لم يُنبُ نأبك عن عمر بفادحةٍ  
عُظمي تصغرُ عنها مُعظمُ النوب

لم يكفَ صرْفُكَ صرْفِي عن ذوي ثِقْتِي

حتى تعقّبَ بالتفريق في عَقْبِي

ابنٌ وكان أبًا لي في مَحَبَّتِهِ  
أُمسَى بأرض الفلا فردًا بغير أب  
أُمسيتُ في وطني في مثل غُربته  
يا مَنْ لمغترِبِ باكٍ لِمُغْتَرِبِ  
لئن تَخَلَّيتَ مني يا مَدَى أَمَلِي  
لقد تَخَلَّيتُ من لهوي ومن طَرَبِي  
وكيفَ أَلهُو بأرض لست ساكنها  
أَمْ كيفَ أسكُنها هذا من العَجَبِ  
ما الغُربُ أرضي فقد أُمسيتُ مغتربا  
عنه بل الشُرقُ إذ شَرقت أشبه بي  
لأُطَلِّبَنَّ به نفسي التي ذهبتُ  
أو الذهابُ كِلا الحالين من طَلْبِي

الأبيات تعبر عن نوعين من الغربة؛ غربة مادية حقيقية تتمثل في سفر الإبن عن

بلده وغيابه عن أهله، هذه الغربة أورثت الوالد الشاعر غربة نفسية لم تبق

لحياته طعمًا. تضافرت كل أبيات المقطوعة في التعبير عن ذلك بنسب متفاوتة

لعل أكثر عبارتها إلحاحا على ذلك هي: "ما الغرب أرضي فقد أمسيت مغتربا"

و "أمسيت في وطني في مثل غربته" و "يا من لمغترِبِ باكٍ لمغترِب" و

"لأُطَلِّبَنَّ به نفسي التي ذهبت". وهي كلها عبارات مشخصة لمدى ما يعانیه

الأب من اغتراب لغربة ولده. فالأبيات لهذا رائحة حية تتجدد مع كل مستشعر

للغربة والاغتراب.

## سابعا: الغزل

الغزل من الأغراض الأساسية في الشعر العربي، ينبج عن عواطف المحبة التي تنشأ عن تعلق الرجل بالمرأة، ووصف ما يتولد عن ذلك الحب من أحاسيس وأحوال. كما يصف محاسن المرأة، وما يغري من تصرفاتها، وسلوكاتها. والغزل في الشعر العربي نوعان: مادي، يقوم علي وصف المحاسن الخارجية في المرأة وما يحظى به الشاعر منها من لقاءات ومتع. ونوع، روعي أو عذري لا يعير المحاسن الخارجية كبير اهتمام، وإنما يعتمد وصف الأحاسيس المنبثقة عن تلك المحبة أو ذلك التعلق الروحي بالمرأة. ولكليهما حظه في الشعر العربي، قديمه وحديثه. ولهما أعلامهما - أيضا - في كل عصر ومصر. وللشعر المغربي - كذلك - نصيب وافر من النوعين. جاء - حيناً - متصدرين للقوائد التي أعدت في أغراض خاصة. وحيناً جاء مستقلين بقوائد أو مقطوعات خالصة للغزل. ومن الغزل العفيف هذه المقطوعة لسعدون الورييني قالها مناجزة لبيتين قالهما أبو الحسن محمد بن الفضل، أمير جزيرة صقلية من قبل الأغالبة.

بيتا أبي الحسن:<sup>1</sup>

تثنى فقلت الغصن منه تعلمنا وأزرى بحسن البدر حين تبسما

هلال كأن الله ناجى جماله بتصويره إياه لما تجسما

<sup>1</sup> - لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، تح وتعليق: أحمد مختار العبادي، و محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964 ص118.

## أبيات الورجيني:<sup>1</sup>

تناثر منه الدر لما تكلما      وأبصره بدر السماء فأظلما  
هلال كسته الشمس حلة وجهه      وأهدى إليه الغصن قدا منعما  
سقاني بكأس الحسن كأس صباية      ووكل بي قلبا عليلا متيما  
فمازلت أشكوه إلى حسن وجهه      بخط يدي حتى بكى قلبي دما  
ومسمعة لما رأت ذل موقفي      لديه تغنت كي يرق ويرحما  
تثنى فقلت الغصن منه تعلمما      وأزرى بحسن البدر حين تبسما  
فقلت لها من ذاك؟ قالت مجيبةً      وأوميت بعينها إلي ليفهما  
هلال كأن الله ناجى جماله      بتصويره أياه لما تجسما

هذه المقطوعة يمكن اعتبارها من الغزل المادي العفيف، حيث ركز الشاعر على ما تستحضره صورة محبوبه من محاسن الطبيعة ومظاهرها، كالدر والبدر والشمس والغصن والليل. و كُـلُّـمـنـها أعطاه من المحاسن قدر ما يوافق رؤية الشاعر، وفلسفة الجمال المطرد في مجتمعه. أما الجانب الداخلي أي النفسي فهو باهت غير واضح إلا ما كان من شكوى الشاعر وبكاء قلبه وذلك. كما يمكن قراءة تغني الحمامة إشفاقا له ومحاولة منها حمل المحبوب على العطف والرقّة من قبيل الجانب الروحي ومدى ما يعانیه المحب.

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص118.



وجل الغزل المغربي في تلك الحقبة (ق 2 - ق 4- هـ) إن لم يكن كله صدر

عن فئتين هما:

فئة الولاة والأمراء والقادة والوجهاء. أو ما يمكن تسميتها بالطبقة

الأرستقراطية إن صحت التسمية. والفئة الثانية هي فئة العلماء والفقهاء. ويندر

الوقوف على شعراء من غير الفئتين. وقد تكون هذه ظاهرة تخص إقليم

المغرب العربي في تلك الحقبة من الزمن دون سواه من الأقاليم.

أما من الناحية الفنية فهي نماذج رائعة، وروعها تتفاوت من مقطوعة

إلى أخرى ومن شاعر إلى شاعر. وبالنسبة إلى مقطوعة الورجيني الذي يعد من

كبار شعراء الإقليم فروعتها تتمثل في هذه الصور البلاغية المجسدة لجمال

المتغزل بها وفي قدرته على خلق هذا التفاعل بين عدد من عناصر الطبيعة

لتصوير جمال المحبوبة من ناحية ومدى افتتانه بها من ناحية ثانية. كذلك من

ملامح روعة هذه المقطوعة الدالة على أصالة الورجيني في الشعر ملامح حسن

التخلص من الغزل إلى المدح.

من نماذج الغزل المغربي هاتان المقطوعتان، إحداهما تصور معاناة المحب،

والثانية تمثل فعل حُسن المحبوب في المُحب. الأولى لزيادة الله بن إبراهيم بن

الأغلب وهي:<sup>1</sup>

بان الله لا تقطن بالهجر أنفاسي      فأنت تملك إنطاقي وإخراسي

صدود طرفك عن طرفي إذا التقيا      مجرعي كأس إرغام وإتعاس

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 19.

لو لم أبحك حمى قلبي ترود به لم تستبح مهجتي يا أملح الناس  
الأبيات صورت الأمير من جانبه الداخلي ، وقد غلبه الهوى فأذله وصيره تحت  
رحمة المحبوب، إن شاء أنعم فأسعد، وإن شاء تمنع فأشقى. بهذا جاءت  
معانيها وفق وصية أبي تمام للبحثري " إذا أردت التشبيب فاجعل اللفظ رشيقا  
والمعنى رقيقا، وأكثرت من بيان الصبابة، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق،  
ولوعة الفراق".<sup>1</sup>

والمقطوعة الثانية للأغلب بن إبراهيم بالأغلب، يقول فيها:<sup>2</sup>

له مُقَلَّةٌ تكفيه حملَ سلاحه      مُحارِبَةٌ أَلحَاطُهُ مَنْ تُسَالِمُه  
سقى صَبَّهُ مِنْ خَمَرِهَا فَبَدَا بِهَا      كَمَا تَفْعَلُ الصَّهْبَاءُ مَا هُوَ كَاتِمُه  
وقد سَكَرَتْ أَجْفَانُه فَكَأَنَّمَا      تُسَقِّيهِ مِنْ صَهْبَائِهَا وَتُنَادِمُه

إن الصورة الشعرية تستمد من محيط واهتمام الشاعر. لذلك جاء تصوير  
الأغلب لقوة تأثير عيون المتغزل بها، مشكلا من: حمل السلاح، محاربة،  
تسالم. وهي مستمدة من ميدان الأغلب كأمر فارس. ثم بقية الصورة أيضا لها  
علاقتها الوثقى بمحيط الأمير. والمقطوعة بصورها رائعة تقدم الأغلب الإنسان  
من جانبه الوجداني.

<sup>1</sup> أبو إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني: زهر الأداب وثمر الألباب، شرح وضبط: د زكي مبارك، دار الجبل، بيروت  
ط4/1972، ج1، ص152.  
<sup>2</sup> - ابن الأبار: الحلة السراء ، ص169.

ومن بين المقطوعات الغزلية الرائعة التي أوردها ابن رشيق ضمن

مختارات كتابه الأنموذج، قصيدة محمد بن سلطان الأقالمي<sup>1</sup> وهي:<sup>2</sup>

مقلة إنسانها غرق	حشوها التسهيد والأرق
وصبايات مضاعفة	ودموع ثرة دفق
وفؤاد لا مقام له	في ضلوع بينها حرق
وفتى أشفى على جرف	من هلاك ما به رمق
وحشا يسطو به لهب	عن قليل سوف يحترق
ويح أهل الحب ويحهم	ليت أهل الحب ما خلقوا
يعلم الواشون سرهم	وهم صمت وما نطقوا
إن أهل الحب لو حلفوا	إنهم موتى إذن صدقوا
ما احتيالي في مخبأة	كهلال ضمه الأفق
خبئت في رأس شاهقة	دونه الحجاب والغلق
دعص رمل فوقه غصن	يتثنى ماله ورق

القصيدة رائعة في إيقاعها(مديد) ومعانيها وصورها. عقب عليها ابن

رشيق بقوله: " فدونك هذه الألفاظ العذبة الغزلة الرائقة التي تلصق بالقلب

وتعلق بالنفس ، وتجري مجرى النفس . وهذه طريق الحذاق في التغزل خاصة

<sup>1</sup> - قال ابن رشيق إنه قريب من مدينة سبنة تأدب بالأندلس، وأنه شاعر مجود الشعر، مضبوط الكلام

لا يتكلف التصنيع إلا قليلا. الأنموذج ص 384.

<sup>2</sup> - ابن رشيق : الأنموذج ص 384.

لأن المراد منه استدعاء المحبوب واستعطافه برقة الشكوى ولطف العتاب وإظهار الغلوب، والإقرار بالغلبة. وقد جمع هذا الشعر فنونا مما ذكرت.<sup>1</sup>

لقد ركز الشاعر في قصيدته على وصف معاناة المحبين وآثار الصبابة عليهم؛ تسهيد، أرق، دموع، ضلوع تتوقد. ثم أبدى تعاطفه معهم وترحمه. وختم القصيدة بالإشارة إلى منعة الحبيبة ومدى الصعاب الحائلة دونها، معتمدا أسلوب التهويل والمبالغة المقبولين، لقيامهما على التصوير التلقائي الشيق. من ذلك: "فتى أشفى على جرف"، "وحشى يسطو به لهب"، "كهلال ضمه الأفق" وكذلك "دعص رمل فوقه غصن يتثنى ماله ورق". وهي صور أعطت معاني القصيدة عمقا، وكستها رونقا وجمالا.

ومن الأبيات البديعة في تصوير جمال المرأة وحسنها هذه الأبيات الثلاثة

لإبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق النديم:<sup>2</sup>

ريم إذا ما معارض المني خَظرتُ أجَلُّهُ التَّمَنِّي عن أمانيه  
يا إخوتي ألقاح فيه أقبَل لي أم خَط رائين من مسكٍ على فيه  
أم حُسنُ ذاك التراخي في تكلمه أم حسن ذاك التهادي في تثنيه  
فالأبيات ركزت على حسن ثغر المتغزل فشبه ثناياها بالأقحاح - الذي هو البابوج نبات زهري - في نصاعتها وحسن ترتيبها. كما شبه شفيتها براءين من مسك وضعا ولونا. إلى جانب تصويره لطريقة كلامها ومشيتها بما يوحي بتنعمها وتدلها.

<sup>1</sup> المصدر السابق ص385.

<sup>2</sup> - محمد باشا الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تح د إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1973، ج1ص42.

كل هذا يدل على عبقرية الشاعر التصويرية لما يقع عليه حسه أو لما يلوح في أفق خياله، عبقرية تشف عما بلغته الحضارة في المغرب.

من خلال هذه النماذج الشعرية في الغزل المغربي تسجل الملاحظات التالية:

1- شعر الغزل قليل في المغرب قلة واضحة خلال القرن الثاني ، وما كان منه فهو مقطوعات قصيرة. تلك القلة قد يكون سببها تمكن الدين من نفوس المغاربة بفضل الدور الذي لعبه الفقهاء إلى جانب صرامتهم في تطبيق أحكام الشريعة فعزف الناس عن أسباب اللهو. إلى جانب اطراد التخرج في نفوس المغاربة من البوح بعواطف الحب وتسمية النساء. وهو مظهر من مظاهر الحياء .

أدرك عبد العزيز نبوي هذه القلة بل الندرة فقال : "ولو بحثنا عن شعر الغزل والمجون والخمریات في القرن الأول للهجرة، لخرجنا صفر اليدين ولهالتنا ندرة الغزل وعدم وجود شعر مجون حتى منتصف القرن الرابع، وهو أمر يدعو إلى الحيرة"<sup>1</sup>

خلو القرن الأول من الشعر عامة لا يدعو إلى الحيرة، وبخاصة حين يتعلق الأمر بالغزل. أما المجون فذلك لن نجد له أثرا إلا في نهاية القرن الثالث وبشكل نادر. ولعل الكاتب يقصد القرن الثاني، لأن فتح المغرب لم يتم إلا في نهاية القرن الأول فكيف نبحت فيه عن شعر غزل ومجون.

2- أنه غزل عفيف، لم يتجاوز التعبير المحتشم عما يكنه الرجل من حنين لمن يحبها، وعادة ما تكون زوجة، والباعث على التعبير في الغالب هو البعد.

<sup>1</sup> - د. عبد العزيز نبوي: محاضرات في الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر / 1983، ص79.

- 3- استغنى المغاربة في جل قصائدهم عن المقدمات الغزلية إلا في القليل من القصائد الرسمية التي ولدت في القرن الثالث وما بعده تجاوبا مع الظروف.
- 4- يمكن اعتباره نموذجا للغزل الإسلامي الذي يصون المرأة في كرامتها.
- 5- أما من الناحية الفنية فقد حفلت تلك النماذج على قلتها بصور رائعة ممتعة. ولعل الصورة التي تضمنتها المقطوعة الأخيرة على إيجازها مثال لذلك.

### ثامنا:مسالمة ذوي القربى

التصادم بين الإخوة الأقارب من أشد أنواع العداوة وقعا على ذوي النفوس الكريمة بل وأقبح عار يلحق بشرف القبيلة أو الأسرة . ورغم ذلك فقد يحمل عليها الجشع أو الطمع أو الحسد ، وقد سجل الأدب العربي في المشرق والمغرب كثيرا من المواقف المشرفة لبعض ذوي الأرحام الذين فضلوا التخلي عن كل شيء لأقاربهم الجشعين على ألا يدخلوا معهم في مشاحنات وحروب لا تورث إلا العار والهم للخلف .يقول بشامة الغدير داعيا قومه وعشيرته إلى تجنب الحزازات التي قد توري بينهم الصراع :<sup>1</sup>

يا قومنا لا تسومونا التي كُرِهَتْ إن الكرام إذا ما أكرهوا غشموا  
لا تظلمونا ولا تنسوا قرابتنا إطوا إلينا فقدّمًا تعطف الرحم<sup>2</sup>  
لا تُرجِعنَّ أحاديثًا و تنتهكوا منّا محارمنا، قد تُتَقَى الحُرْمُ

<sup>1</sup> - د.مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط 2/ 1974، كتاب الشعر، ص79.

<sup>2</sup> - أظ: أط: الرحل ونحوه صوت، ولابل أنت تعبا أو حنينًا أو رزمة، والأطاط: الصياح، والأطيظ الجوع. قاموس المحيط ، ج2ص362.

إنه صوت الحكمة المدعم بالعاطفة التي لا ينضب نبعها وإن عراه خلاف أو  
تضاربُ المصالح. وحين ينفلت الأمر بين الأقارب تكون المأساة مأساتين والمهم  
همين. كالذي عبّر عنه بيتا أعرابي ، قتل أخوه ولده:<sup>1</sup>

أقول للنفس تأساءً وتعزيةً      إحدى يدي أصابتني ولم تُرد  
كلاهما خلفاً من فقد صاحبه      هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

لقد أبدع الأعرابي في تصوير قتل أخيه لابنه، حين قال إحدى يدي أصابتني  
ولم ترد. تمثيل بليغ حين جعل أخاه وابنه كيديين له، فهل يثار بقطع الباقية؟!  
طبيعي لا. وهذا ما قرره الأعرابي.

والشعر المغربي لم يخل من مثل هذه النماذج التي تنبذ محاربة  
نوي القربى وتحرس على مسالمتهم و مواداتهم . من ذلك هذه الأبيات التي  
بعث بها إدريس بن إدريس إلى إبراهيم بن الأغلب يدعوه إلى طاعته أو الكف  
عن ناحيته مراعاة لما بينهما من قرابة. الأبيات:<sup>2</sup>

أذكرُ إبراهيمَ حقَّ محمدٍ      وعترته<sup>3</sup> والحق خير مقول  
وأدعوه للأمر الذي فيه رُشده      وما هو لولا رأيه بجهول  
فإن أثر الدنيا فإن أمامه      زلازلُ يومٍ للعقاب طويل

<sup>1</sup> - أبو تمام : ديوان الحماسة ، شرح الخطيب التبريزي ، عالم الكتب بيروت ، (د.ت) ، ج 1 ، ص 110 .

<sup>2</sup> - ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص 55 .

<sup>3</sup> - العثرة : قلادة تعجن بالمسك و نسل الرجل ورهطه وعشيرته القاموس المحيط ، ج 2 ، ص 87 .

هذه الأبيات وإن لم تتضح منها بكيفية جيدة مسألة مسالمة ذوي القربى في

قضايا الصراع التي تملئها أنانية بعض الأقارب ومصالحها ، فهي دعوة منه

لابن الأغلب بالألا يدخل في حرب أقرب الناس إلى رسول الله - صلى الله عليه

وسلم - في هذه الديار النازحة من أرض المغرب . لذلك قال: " أنكر إبراهيم

حق محمد وعترته" . فحق الفرع من التبجيل والتقدير مستمد من حق الأصل في

ذلك . وهو سر التفاف المغاربة حول إدريس الأول وذريته من بعده .

وأرى أن الأبيات الأكثر تعبيراً عن هذا الموضوع ، مسالمة ذوي الأرحام

هي أبيات الأمير الإدريسي ، القاسم بن إدريس ، أمير سبته ، قالها رداً على أخيه

الأمير محمد ، وقد طلب منه الخروج إلى حرب أخيه عيسى . \* الأبيات: <sup>1</sup>

سَأْتَرِكُ لِلرَّاعِبِ الغَرَبَ نَهْبًا      وإن كنتُ في الغرب قَيْلاً وَنَدْبًا

وَأَسْمُوا إِلَى الشَّرْقِ فِي هِمَّةٍ      يَعْزِّبُهَا رُتْبًا مَنَ أَحَبًّا

وَأَتْرِكُ عَيْسَى عَلَى رَأْيِهِ      يَعْالِجُ فِي الغَرَبِ هَمًّا وَكَرْبًا

وَلَوْ كَانَ قَلْبِي عَنِ قَلْبِهِ      لَكُنْتُ لَهُ فِي القَرَابَةِ قَلْبًا

وَإِنْ أَحْدَثَ الدَّهْرُ مِنْ رِيْبِهِ      شِقَاقًا عَلَيْنَا وَأَحْدَثَ حَرْبًا

فإِنِّي أرى البَعْدَ سِتْرًا لَنَا      يُجَدِّدُ شَوْقًا لَدِينَا وَحُبًّا

وَلَمْ نَجُنْ قَطْعًا لِأَرْحَامِنَا      نُلاقِي بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ عَتْبًا

<sup>1</sup> - ابن الأبار : الحلة السيرة . ص 132 .

• لما توفي إدريس مسموما سنة 231 هـ . اجتمعت البربر على محمد ، فبايع له إخوته جميعا ، وه م عشرة . واتخذ مدينة فاس مقرا له ، وفرق عليهم بلاد الغرب ، لكن عيسى نكث البيعة وخرج عليه ، فكتب محمد إلى القاسم يأمره بمحاربة أخيه فأبى القاسم ذلك ، وكتب إليه الأبيات معتذرا . فأمر محمد أخاه عمر بحرب عيسى فخرج إليه وتغلب عليه ونفاه ، واستولى على ما كان تحت يده . ولم يلبث محمد أن أمر عمر بحرب القاسم ، فحاربه وتغلب عليه أيضا . تولى القاسم عما تحت يده لمحمد وعمر . وتزهد وبني مسجدا في أصيلا ولزمه . فلما عين البربر ذلك نهضوا إليه واسترجعوا له كل ما سلب منه أخواه محمد وعمر . المصدر نفسه ص 133



وتبقى العداوة في عَقْبنا      وأكْرَمُ به حين نَعْقِبُ عَقبا  
وأوفقُ من ذاك جَوْبُ الفلاة      وقطعُ المَخارِمِ نَقْبًا فَنَقبا

هذه المقطوعة المأثورة عن هذا الأمير الإدريسي ، وهو من جيل المولدين في المغرب الإسلامي والأندلس. لتبين أن المغرب كان منذ القرن الثاني على صلة مباشرة بالنماذج الأدبية والشعرية الرفيعة، مما يعني أن أجياله اغترفت الأدب من ينابعه مباشرة دون واسطة، وهو ما يفسر النبوغ المغربي المبكر في عالم الأدب. إذ المقطوعة رائعة في معانيها تكشف عن أصالة القاسم ونبل أخلاقه وشيمه. استمع إلى قوله : "سأترك للراغب الغرب نهبا" والراغب هو أخوه عيسى الذي نكث البيعة دون سائر إخوانه. سيترك هذا المغرب رغم ما حظي فيه من عز وجاه وإمارة ، سموًا بنفسه عن محاربة أخيه . و "أسمو إلى الشرق في همة " ومن العاني الجميلة المفعمة بالمحبة والنبيل قوله : " إنني أرى البعد سترا لنا يجدد شوقا لدينا وحبًا" إنه الأمل في استمرار عواطف الأخوة رغم الذي بدا ، وتأييا عن جَنِي قطيعة الأرحام "ولم نجن قطعا لأرحامنا نلاقي به آخر الدهر عتبا". فأصلح من ذاك وأنسب جوب الفلاة بعد الفلاة فرارا من العار.

وقريب من هذا المعنى مضمون أبيات الشاعرة المغربية خدوج

الرصفيّة<sup>1\*</sup> وجدها أ حدُ إخوتها تكتب رقعة فهمّ بها ، فكتبت إليه تعاتبه :

<sup>1\*</sup> - هي خديجة بنت أحمد بن كلثوم المعافري نسبت إلى رُصفة قرية ساحلية جنوب المهدية بتونس . وصفها ابن رشيق بقوله: " وهي شاعرة حاذقة مشهورة بذلك في شببتها ، وقد أسنت الآن وكفت عن كثير من ذلك . [ولها

أخي الكبيرَ وسيدي ورئيسي      ما بالَ حظي منك حظٌ نحيس  
أبغى رضاك بطاعةٍ مقرونةٍ      عندي بطاعةِ رَبِّي الفُدّوسِ  
فإذا زللتُ وجدتُ حلمك ضيقاً      عن زَلّتي أبداً لفرطِ نحوسي  
ولقد رجوتكَ بأن أعيشَ كريمةً      في ظلِّ طوْدٍ دائمِ التعريسِ  
ببقاءِ عزكَ لا عَدِمْتُ بقاءه      فإذا أنا أصلى بحرَّ شُموسِ  
يا سيدي ! ما هكذا حُكْمُ النَّهي      حقَّ الرئيسِ الرفقُ بالمرؤوسِ  
فإذا رضيتَ لي الهوانَ رضيتُهُ      وجعلتُ ثوبَ الذلِّ خيرَ لبوسِي<sup>(1)</sup>

هذا نموذج من الشعر النسوي في موضوع إظهار الود والإكبار للإخوة  
وإن جاوا ، حرصاً منها على استمرار وشائج الرحم التي على قدر استمرارها  
يتحقق العز لكل أفراد العائلة.

إنَّ حرصَ الشاعرة على قيم التسامح مع إخوتها لم يخف مسحة الأسي التي  
وُسِّحَ بها النصّ. تنطق بذلك عبارات النص التالية: ما بال حظي منك حظ  
نحيس ، فإذا زللتُ وجدتُ حلمك ضيقاً، ومسحة العتاب في : يا سيدي ما هكذا  
حكم النهي!. ومع ذلك فإيثار الإبقاء على مودة ذوي الأرحام هي القيمة الإنسانية  
الغالبة على نص الشاعرة وخاتمة. "فإذا رضيت لي الهوان رضيتُهُ".

---

ترسل لا يقع مثله إلا لحذاق المترسلين]. كانت على مودة برجل من الأندلس فأظهر بعض التشبيب بها فغار لذلك  
إخوتها فقتلوه من شعرها فيه:

جمعوا بيننا فلما اجتمعنا      فرقونا بالزور والبهتان  
ما أرى فعلهم بنا اليوم إلا      مثل فعل الشيطان بالإنسان  
لهف نفسي علي يالهدف نفسي      منك إن بنت يا أبا مروان

ابن رشيق : انموذج الزمان ص 123. و قوله : " قد أسنت الآن " . يرجح أنها من شعراء القرن الرابع . ويرجح ذلك قول  
محققي خريدة، القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني : محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي أن أبا مروان  
الأندلسي قتل 457هـ . ج 1 ص 327.  
<sup>1</sup> - ابن رشيق: انموذج الزمان ، ص 124.

## تاسعا: الوصف

الوصف في حقيقة الأمر داخل في كل الأغراض، بل هو الأساس الذي يبنى عليه الشعر أيا كان موضوعه. ومع ذلك فقد دأب الدارسون على إدراجه كغرض قائم بذاته. ومن هذا القبيل هذه المقطوعة التي قالها أبو الحسين، محمد بن إسماعيل الكاتب يصف فرسا أشقر: <sup>1</sup>

لي فرسٌ قد حَسُنَتْ حالُهُ      واستكَمَلَ الإعْجَابَ إكْمَالُهُ  
إِذَا تَوَلَّى رَاعَ إِدْبَارُهُ      وَإِنْ تَبَدَّى رَاقَ إِقْبَالُهُ  
تَقَابَلَتْ فِي الْعِتْقِ أَعْمَامُهُ      إِنْ وُصِفَ الْعِتْقُ وَأَخْوَالُهُ  
أَشْقَرُ كَالْتَبْرِ جَلالُهُ      عَنْ مَحْضِهِ بِالسَّبْكِ صَقَالُهُ  
كَسَاهُ بَارِي الْخَلْقِ دِيباجَةً      قَصَرَ فِيهَا عَنْهُ أَمْثَالُهُ  
كَأَنَّما الْبَدْرُ إِذَا ما بَدَا      غُرَّتْهُ وَالشَّمْسُ سِرْبَالُهُ  
كَأَنَّ فِي حَلْقومِهِ جُلْجُلًا      حَرَكَةُ لِلسَّمْعِ تَصْنَعَالُهُ  
جَانِبُهُ بَاءٌ وَمِنْ خَلْفِهِ      جِيمٌ، وَمِنْ قُدَامِهِ دَالُهُ  
يَعْجَبُ نَفْسِي إِذَا فَكَّرْتُ      فِي دَيْنِهَا أَعْجَبَهَا مَالُهُ

هذا وصفٌ بارعٌ ائمازٌ بالدقة واستغراق الموصوف من كل جوانبه، فقد وصفه

من حيث الاكتمال والأصالة واللون والصوت. فهو جميل مقبلا ومدبرا، واللون

<sup>1</sup> - ابن رشيق: انموذج الزمان، ص 361.

تبر أولونُ شمس غروبٍ، والغرة بدر. هذه الأوصاف تمّت للشاعر بأسلوب جزل جميل .

وقد عقب ابن رشيق عن هذا الوصف بقوله: " وهذا شعر قد جمع شذوذ الحسن ، واشتمل على فنون الملاحة ،حتى خلطت حقيقته بمجازه وطوي إسهابه في إيجازه، واشتبه حوكه بطرازه، ونهضت صدوره بأعجازه. وأما التجنيس والطباق والمقابلة والاتفاق فمن حلاه المشهورة ومن صفاته المذكورة."<sup>1</sup>  
ومن طريف شعر الوصف قصيدة الجراوي<sup>2</sup> هذه في وصف الديك:<sup>3</sup>

وكائن نفى النومَ عن عُتْرُفانٍ      بديع الملاحة حلو المعاني<sup>4</sup>  
بأجفان عينيه ياقوتتان      كأن وميضهما جمرتان  
على رأسه التاج مستشرفا      كتاج ابن هرمزفي المهرجان  
وقرطان من جوهر أحمر      يزينانه زين قرط الحصان  
له عنق حولها رونق      كما حوت الخمر إحدى القناني  
ودار بُرائله حولها      كما نورت شعرة الزعفران<sup>5</sup>  
ودارت بجوئنه حلة      تروق كما راقك الخسرواني  
فقام له ذنب معجب      كباقة زهر بدت من بنان

<sup>1</sup> - المصدر السابق ص 361.  
<sup>2</sup> - هو عبدالله بن محمد الجراوي (ت 415هـ) أشار محققا كتاب الأنموذج أن جُراوة موضع بين قسنطينة وقلعة بني حماد في حين قال الإدريسي أن جراوة مدينة لاتبعد كثيرا عن مدينة مليلة بالمغرب الأقصى. الإدريسي: المغرب العربي ص 189.  
<sup>3</sup> - الأنموذج، ص 218.  
<sup>4</sup> - العتْرُفان: الديك  
<sup>5</sup> - برائله: البرائل عُفرة الديك والحبارى الريش الذي يستدير في عنق الديك غيره. والجوؤ: الصدر. القاموس المحيط، ج 1 ص 10.

وقاس جناحا على ساقه كما قيس ستر على خيزران  
وصفق تصفيق مستهتر بمحمرة من بنات الدنان  
وغرد تغريد ذي لوعة يبوح بأشواقه للغواني  
طرافة هذه المقطوعة بدأت بإثبات البهاء والملاحة مجملة لهذا الكائن في  
البيت الأول، يقظة دائمة وجمال بديع باهر يُسر إليك بشتى معاني الحسن . ثم  
جاء تفصيل هذا المجمل معتمدا على دقة الملاحظة وخصوصية الخيال في  
استحضار الشبيه لتشكيل الصور المجسمة لجمال ذلك الكائن ، فاستعار له من  
الحلية والمعاني كلَّ بديع، فمن الجواهر الياقوت، فعيناه ياقوتتان أو جمرتان ،  
ومن أبهة ملوك الفرس في أسعد أعيادها التاج، ومن بهاء العربيات الصدغ  
المزين بالأقراط وقد أبدع حين دعّم بهاء صدغ الجميلة بالعفة، فأضاف القرط  
إلى الحصان العفيفة. وعن عفرته أي الريش الذي يعلو رأس الديك فقد شبهها  
بنبتة الزعفران. أما جمال العنق فأوحى إليه بصورة عنق زجاجة الخمر استقرت  
حولها فقايع صغيرة.

و في روعة جمال الصدر رأى القماشَ الخُسروانيَّ ماثلاً أمامه. كما استعار  
من الطبيعة باقة الورد للتعبير عن جمال الذنب، والخيزران للساقين. أما  
التصفيق والتغريد فهو كالشارب الذي غلبه الهوى فراح يبوح بمن يحب من  
غير ما تخرج.

هكذا أبدع الشاعر في وصفه المستوفي لكل مظاهر الروعة في الديك،  
بأسلوب موشح بالانسجام والتجانس، بين أجزاء الصورة الكلية، رغم سيطرة

الحس المادي القائم على الذكاء ودقة الملاحظة المتمثل في استقراء الشاعر لكل  
الجزئيات المشكلة لصورة الموصوف.

## **الفصل الثاني :**

## شعر الخوارج وملاحم تـمـذـهـبـه

أولاً: التبرم من متاعب الشيخوخة ومظاهرها

ثانياً : الصبابة والتشوق

ثالثاً : الرثاء:

أ- رثاء المدن

ب - رثاء الأعلام

رابعاً : التعريض والهجاء

خامساً : المدح

تمهيد

كان تسرب الخوارج إلى المغرب كمنطقة آمنة - إلى حد ما - ونائية عن مركز السلطة ، بعد الذي لحقهم على يد عبد الله بن الزبير، ثم على يد الحجاج من بعده ( 78هـ). وإذا كان من الصعب تحديد بداية نشاطهم السياسي السري بدقة ، فإن ثورة ميسرة المدغري سنة 122 هـ في عهد هشام بن عبد الملك، كانت البداية العلنية ، وتبين أن الدعوة السرية كانت مع مطلع القرن الثاني الهجري، وفي مناطق مختلفة من المغرب،(شرقه ، ووسطه ، وغربه). يقول صاحب كتاب سير الأئمة وأخبارهم : " فأول من حمل الدعوة إلى المغرب، كما ذكر أبو زكرياء، هو سلامة بن سعد وعكرمة بن سعد(الذي يعزى إليه نشر مذهب الصفرية) في أوائل القرن الثاني الهجري".<sup>1</sup> و نظرا لموافقة مذهبهم لطموح البربر وبعض الشعوب أثمر نشاطهم ذلك وبعد مراحل الدول التالية:<sup>2</sup>

- دولة أبي قرّة اليفريني، الصفرية في تلمسان وملوية، بالغرب الجزائري. وقد عمرت حوالي أربعين سنة؛ من سنة 122 - 162 هـ .

- دولة بني مدرار، في سجلماسة بالمغرب الأقصى وهي صفرية أيضا وقد عمرت أكثر من قرنين ، من سنة 140-366 هـ. وكانت موالية للعباسيين.

- دولة بني رستم، وهي إباضية، عاصمتها( تيهرت ) في وسط الجزائر، امتد سلطانهم على المنطقة ما بين تلمسان و بجاية إلى أقصى جنوب منطقة الزاب. وانضوى تحت لواء سلطانهم أيام ولاية عبد الوهاب جل المغرب يقول ابن الصغير: "وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم

<sup>1</sup> - أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، تحو تعليق إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية 1979. ص 6.  
<sup>2</sup> - صالح باجاية : الإباضية بالجريد، في العصور الإسلامية الأولى ، دار بو سلامة للطباعة والنشر. تونس. ط 1. 1976. ص 30.



يجتمع للإباضية قبله... واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد من قبله، ولقد حكى لي جماعة من الناس أنه قد بلغت سمعته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملا المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان...<sup>1</sup> . وغدت تيهرت حاضرة من حواضر العلم الكبرى يقصدها الطلاب على اختلاف مذاهبهم . يقول مبارك الملي: "أصبحت تيهرت معدن العلم والأدب ومحط رحال الطلبة حتى قال فيها أبو عبد الله البناء: "يفضلونها على دمشق وأخطأوا وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا." ولست أشك في أنها دونهما ولكن حضورها في الذهن بحضورهما يكفي دليلا على تقدمها ورقبها."<sup>2</sup> . عمرت هذه الدولة قرنا ونصف قرن من الزمن، من سنة 144-296هـ.

كان لهذه الدول أدباء وشعراء خلدوا مآثرهم، وأيامهم، كما صوروا رؤاهم وأفكارهم وعواطفهم بأساليب اختلفت مستوياتها الفنية من شاعر لآخر، ومن حقبة زمنية إلى أخرى. ومن الموضوعات التي عبر عنها شعراؤهم ما يلي:

### أولا: التبرم من متاعب الشيخوخة ومظاهرها.

<sup>1</sup> - ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ، تح: د. محمد ناصر ، والأستاذ إبراهيم بحاز. دار الغرب الإسلامي 1986. ص 45 .  
<sup>2</sup> - مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، 1350 ج 2. ص 69.

قال أحد شعرائهم: <sup>1</sup>

إذا رأيتَ صلَعًا في الهامةِ وَحدبًا بعد انتصابِ القامةِ  
وصار شعرُ الرأسِ كالثَغامةِ فأيسُ من الصحةِ والسلامةِ  
وعد إلى التوبةِ والندامةِ فقد عليكِ قامتِ القيامةِ

الأبيات وصف مادي خارجي لمظاهر الشيخوخة؛ من صلَع الرأس ،  
واحدوداب القامة أو اعوجاجها، وتحول شعر الرأس إلى مثل الثغامة ( شجر  
ينبت بالوديان أبيض الزهر)، وهي مظاهر تؤذن بالفناء ، بل لقد عدها الشاعر -  
بمثابة القيامة. وليس أمام من أدركه ذلك إلا ابتدار التوبة وإظهار الندم على  
سالف الذنب.

### ثانيا: الصبابة والتشوق

قال أحد شعراء تيهرت يذكر الهوى وما يتعلق به، معتمدا تجربته وفلسفته

للموضوع: <sup>2</sup>

فراعُ الهوى شغلٌ، ومَحْيَا الهوى قتلٌ  
ويومُ الهوى حولٌ، وبعضُ الهوى كل  
وجود الهوى بخل، ورسَل الهوى عدا وقرب الهوى، وسبق الهوى مطل  
سقى الله تاهرت المنى وسويقة بساحتها غيثا يطيب به المحل

<sup>1</sup> - صالح باجية : الإباضية بالجريد، ص 165.

<sup>2</sup> - محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان : إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، طبع، هـ. داود بريكسي تلمسان، ط1 / 1422 هـ - 2001 م، ص 35.

كأن لم يكن والدار جامعة لنا ولم يجتمع وصل لنا لا ولا شمل  
فلما تمادى العيش وانشقت العصا تداعت أهاضيبي الهوى وهي تنهل  
سلام على من لم تطق يوم بيننا سلاما ، ولكن فارقت و بها تكل  
وما هي آماق تفيض دموعها ولكنها الأرواح تجري وتنسل

الملاحظ على هذه القصيدة أن الشاعر قد اعتمد فيها طريقة القدماء في  
استهلال قصائدهم بمقدمات غزلية و ظللية، غير أنه بدل أن يصف ما تعود  
الشعراء على وصفه، عرج على إعطاء أحكام تخص الهوى وما يتعلق به من  
قرب وبعد، ووصل وهجر. كما التفت إلى الحديث عن الزمن خلال إحساس  
المحبين به. وهي التفاتة تنم عن تجربة الشاعر وخبرته في عالم الحب وفلسفته.  
ثم أردف ذلك بذكر الديار والدعاء لها، ثم ذكر أيام اجتماع الشمل مع التي أحبها  
، وما أعقب ذلك من فراق وبين يستلان الأرواح سلا. وقد وقعت الأبيات نحت  
طائفة التصنع المائل في تلك الأحكام التقريرية، التي أثرت على روح شعريتها  
إلى حد كبير.

ومن الغزل المغربي المادي هذه الأبيات من مقدمة قصيدة ، لأحمد بن

فتح التاهرتي<sup>1</sup> يصف جمال نساء البصرة المغربية:<sup>2</sup>

قَبَّحَ الإلهَ اللهُوَ إِلا قَينَةَ بصريةً في حُمرةٍ وبياض

<sup>1</sup> - قال عنه محمد الطمار " كان أدبيا شاعرا . انتقل إلى المغرب الأقصى ومدح صاحب " البصرة" أبا العيش عيسى بن إبراهيم بن القاسم بن إدريس. أنظر تاريخ الأدب الجزائري. ص 32.

<sup>2</sup> - أبو عبيد عبدالله البكري: المسالك والممالك، تح وفهرسة: د جمال طلبة ،دار الكتب العلمية بيروت. ط12003م/1424هـ مج2، ص293.

الخمرة في لحظاتها والورد في وجناتها والكشح غير مُفاض  
في شكل مرجي ونسك مهاجر وعفاف سنيّ وسمت إباح  
تاهرت أنتِ خلية وبرية عوّضت منك ببصرة فاعتاض  
لا عذرَ للحمراء في كلفي بها أو تستفيضَ بأبحرٍ وحياض  
ما عذرُها والبحر عيسى ربها ملك الملوك ورائض الرواض

الصورة الشعرية التي تضمنتها هذه الأبيات الغزلية والمشخصة لجمال نساء البصرة أو لنقل قيانها، مادية، قامت على استحضار الألوان، إلا ما تعلق بأثر العيون وسحرها. والطريف في الصورة دخول عنصر السلوك المذهبي في تشكيل تلك الصورة. قد يكون من قبيل الدعابة التي تعطي الصورة فضاء تأويليا واسعا.

إن حسن نساء البصرة ذائع مشتهر قال البكري : " ونساء البصرة مخصوصات بالجمال الفائق والحسن الرائق ليس بأرض المغرب أجمل منهن " <sup>1</sup> وهو الأمر الذي أنسى الشاعر بلدته، ويدعوها إلى نسيانه " عوضت عنك ببصرة فاعتاض "

مما قيل في ذلك أيضا هذه الأبيات قالها أبو حزر من أهل حامة قسطنطينية <sup>2</sup>، عالم فقيه وأديب شاعر. قال فيه الدرجيني مع ابن بلده والأكبر منه سنا، أبي

<sup>1</sup> - البكري: المرجع السابق، ص 293.  
<sup>2</sup> - ذكر البكري أن من مدن قسطنطينية توزر والحمة ونفطة . وتوزر هي أمها، و أرضها خصبة كثيرة البساتين والنخيل والثمار، والموز وقصب السكر. ومنه يفهم أن قسطنطينية منطقة مثل إفريقية والزاب . المسالك والممالك، ج 2 ص 225 .

القاسم يزيد بن مخلد الوسياني : "ولا يحتاج مع شهرتهما إلى زيادة التعريف،  
فإنهما إماما أهل التوحيد وبحر من نشأ قسطليلية وغيرها من بلاد الجريد"<sup>1</sup>.  
قالها حين عزم المعز لدين الله الفاطمي اصطحابه إلى القاهرة، العاصمة الجديدة  
لملكه مع صاحبه أبي القاسم خوفا منهما إن بقيا في المغرب، فدبر أبو القاسم  
حيلة خلصته من الرحيل. في حين لم يجد أبو خزر بدا من مرافقة الخليفة. فقال  
وهو في الطريق إلى القاهرة هذه الأبيات:<sup>2</sup>

عليكم سلام الله إني مسافر وما أدري بعد السفر إن كنت راجع  
عليكم سلام الله في كل ساعة سلام كثير دائم متتابع  
وإني إذا ما هجت ليلا بذكركم أبيت حزينا والنجوم طوالع  
أحب لقاء الإخوان في كل ساعة فإن لقاء الإخوان فيه نوافع  
فيارب فاجمع بيننا بسلامة فإنك أنت للمشتت جامع  
وإلا فصبرني على طول غربتي فأنت لمن يدعوك يارب سامع  
أجب دعوتي يا ذا الجلال فإنني دعوتك مضطرا إليك وطامع  
ألا ليت شعري عن غزال تركته إذا ما أتاه مصرعي كيف يصنع  
أيلبس أثواب السواد مجددا على مالك للبعل أم فيه مطمع<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - صالح باجية : الإباضية بالجريد، ص 127.

<sup>2</sup> - أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: سير الأئمة وأخبارهم، تح: إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية. الجزائر 1979-1399. ص 151.

<sup>3</sup> - في عجز البيت الأخير خلل يعطل المعنى، و يستقيم معناه إن جعلناه: على هالك أم للبعل فيه مطمع. بمعنى أتبقى أيما أم أنها استطع في زوج آخر.

الأبيات وإن غلبت عليها التقريرية أو النثرية، فهي مفعمة بالعاطفة الصادقة،  
عاطفة الألفة، ألفة الأهل والأصدقاء، وألفة الوطن. كما صورت عاطفة الاشتياق  
إلى العودة. إلى جانب عاطفة الخوف من الملاءعة، من خلال البيت الأخير.  
والأبيات عموماً تمثل شعر العلماء في صورته المشرقة، فأبو خزر هذا كان  
عالماً فقيهاً ذكياً، فأحله ذلك من قلب الخليفة المعز مكانة متميزة. ومما يدل  
على حدة ذكائه وحضور بديهته، أن المعز مر يوماً بزرع مع رفقته، إلا أبا  
خزر تجنب الزرع. فقال بعض حساده للخليفة: "إن أبا خزر لم يرض طريقك،  
وعدل عن إتباعك. فغضب المعز وقال له: لم ترض بطريقتنا يا يعلا؟!  
فقال: كيف لا أرضى بطريقك؟. قال فهلا تبعنتي حين سلكت الزرع؟!. فأجابه:  
إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (إذا غابت الثريا فلا يدخل الزرع إلا  
ساقيه أو واقيه أو ناقيه). فأنا لست بساقيه ولا واقيه ولا ناقيه. وأما أنت فواقيه.  
فتعجب أبو تميم من بديهته وعلمه، وأعجبه حسن جوابه. ثم قال لأصحابه:  
ألم أقل لكم لا تقدرّون على (يعلا) بشيء وأمرهم ألا يتكلموا عنده فيه بعد ذلك".<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - صالح باجبة: الإباضية بالجريد، ص 133.

## ثالثاً: الرثاء

### أ- رثاء المدن:

رثاء المدن وبكاؤها غرض أصيل في الشعر العربي ، يفرضه تعلق المرء بوطنه وربعه ، وهو دليل كرم المرء ووفائه. فقد قيل إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل فانظر حنينه إلى وطنه. فالوطن يبدأ من البيت فالقرية ثم المدينة فالإقليم. ومواطن الخوارج ومدنهم في المغرب كثيرة لعل أكثرها استحضارا للمذهب الخارجي: " تاهرت " أو تيهرت و سجلماسة، فالأولى عاصمة الدولة الرستمية منذ 160 هـ إلى 296 هـ . رثاها أحد الشعراء بعد ما خربها العبيديون سنة 296 هـ بقوله:<sup>1</sup>

خليليَّ عوجاً بالرسوم وسلّماً      على ظللٍ أقوى وأصبح أغبراً  
ألماً على رسمٍ بتاهرتَ دائرٍ      عَفَنَه الغواذي الرائحاتُ فأقفرأ  
كألمُ تكن تاهرتَ داراً لمعشرٍ      فدمرَها المقدورُ فيمنَ تدمراً

لقد صارت تاهرت ظللاً دارساً ، بعد أن ضاهت على مدى قرنين ونصف قرن من الزمن كثيراً من حواضر العالم الإسلامي، في عمرانها وكثرة علمائها وطلابها على اختلاف مذاهبهم، فكانت كما سيقول فيما بعد الشاعر الأندلسي

فكان ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ      كما حكى عن خيال الطيّفِ وسنانُ

<sup>1</sup> - المرجع السابق. ص 167.

## ب - رثاء الأعلام :

الرثاء قديم في الشعر العربي، مطرد في جميع الملل والنحل، لم يُنفّر منه أحد من العلماء، لأنه تعبير عن عاطفة الحزن الفطرية في كل إنسان. ومن المأثور عن شعراء المذهب الخارجي قصيدة أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم السدراتي في رثاء شيخه أبي سليمان أيوب بن إسماعيل. وهي واحد وثمانون بيتاً. أورد منها بعض ما يمكن أن يكون نموذجاً للشعر الإباضي في المغرب. ولا أعني بالنموذجية الاكتمال الفني. الأبيات:<sup>1</sup>

أيوب ، ما أيوب لا أيوب      أودى به قدر الردى المجلوب  
فتلونت أيامه فتصرمت      حيناً عليه وللردى تعقيب  
علقته أشراك الردى من بعد ما      أوفى على مائة وحاب الحوب  
ما خُط في المكتوب لا يُخطي الفتى      وكذا الفتى لم يُخطه المكتوب  
حكمت عليه يد المنية حكمها      قبل المنية ولوحت خطوب  
دبّ البلاء بجسمه بعد البلا      فله به طول الحياة دبّ  
ضاهى النبيّ سميّه في دائه      إذا البلايا بجانبه تدوب  
بكت عليه السماوات العلى ونجومها      حُزنا عليه والفلا والروب  
واستوحشت منه المساجد كلها      لما خلت منه وحان النيب  
ألف التقى فاعتاده حُباً له      وجفا الذنوب وقد جفته ذنوب  
يا غائباً ما تستقضي حسراتنا      أبداً عليه ولات حين يؤوب

<sup>1</sup> - صالح باجبة : الإباضية بالجريد، ص 170 - 178.



إن غبتَ عن أبصارنا وأسماعنا      لم تحتجِبكَ عن القلوب غيوب  
 فلئن رحلتَ وغبتَ عنا ميِّتا      لَلْحُزْنُ فِي الدنْيا على رَقيب  
 خطبُ أجَلٍ وغمرة مسفوحة      مُهْرَاقَةٌ إنَّ الخطوبَ تنوب  
 تبكي لمصرعه العَواني نوادبًا      عُونُ النِّساءِ وِغادة وِعيوب  
 طوبى له عمرًا طويلًا خالصًا      في طاعةِ الرحمن وهو أديب  
 من الصلاة بجوفِ ليلٍ مُظلمٍ      والليلُ أسودٌ حالِكٌ غريب  
 أو للصيام إذا تطاول يومه      وامتدَّ طرفاه وهاجَ لهيب  
 أو لليتامى والأرامل بعده      وتواترتُ في العالمين حُروب  
 أو للأمور إذا تفاقم هؤلها      أهلُ النَّهْيِ والرَّأيِ بعدُ غريب  
 أو للجموع إذا أنتت وتباينتُ      وعلا الكلامُ وفجَّحَ الخطيب  
 وترى الخلائقَ أفتحوا وتهافتوا      والناسُ مخطئٌ منهم ومصيب  
 فعليه رحمة ربه وسلامه      حتى القيامة والإله وهوب  
 سبقت الأقدار باقي دهرنا      فمضى وما أدراك ما أيوب  
 خلوا ابن آدم عرضة لمهالك      إن المنية يومها لصعيب

إن مستوى هذه القصيدة مختلف من حيث الروح الشعرية من مقطع  
 لآخر، شأن أغلب القصائد الطويلة، التي رام أصحابها الإحاطة بكل جوانب  
 الموضوع، جلية كانت أو دقيقة. فاستواء الأسلوب الشعري في الطوال لا يتأتى  
 لكل الشعراء، ولا في كل الأحوال مهما جَلَّ الموضوعُ وعَظُمَ. وقد سبقت

الإشارة إلى هذا في التعقيب عن قصيدة أحمد بن أبي سليمان (ثلاثمائة بيت) في رثاء العالم محمد بن سحنون. وإن كان ابن أبي سليمان أشعر. إلا أن محاولة الإحاطة ، بكل ما يتعلق بالمرثي وسم القصيدة بالثرية في بعض مقاطعها وأبياتها. هذا لا يعني أبداً خلو القصيدة من بعض الدفقات الشعورية التي كانت وراء رؤى صحيحة، وصور رائعة مفعمة بالروح الشعرية. كهذا البيت الذي شخص الحزن كأننا يرى، بل قائماً على مرقب لا يغيب على ذي بصر.

فلئن رحلتَ وغبتَ عنا ميتاً      للحننُ في الدنيا على رقيب

وقد وظف الشاعر كثيراً من الأخبار والمعاني التي تضمنها القرآن الكريم، كذكره لمعاناة أيوب - عليه السلام - المرضية، وطول رقود أهل الكهف. وهي أخبار بعضها يرفع من شأن المرثي ومرة يعزي المحزونين عنه. وهو ما يبين أن القرآن الكريم كان من أعظم الروافد التي اعتمدها الشعراء المغاربة في قرض أشعارهم؛ لأن الله عز وجل يسر على المؤمنين حفظه. "ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر"<sup>1</sup> ومنه تتناص معانيه مع كثير من المعاني التي يؤلفها الشعراء ، بما في ذلك الأساليب والصور. لذلك فآثر القرآن الكريم في الشعر المغربي خلال القرون الثلاثة الأولى كان أقوى بكثير من بقية الروافد الأخرى .

---

<sup>1</sup> - سورة القمر: آية 17.

ومن المرثي المنبثقة عن أواخر القرن الثالث الهجري ( 295 هـ) مرثية بكر

بن حماد الزناتي التيهرتي لولده عبد الرحمن، الذي قتل على مرآه من قبل

عصابة اعترضت طريقهما حين عودتهما من القيروان إلى تيهرت<sup>1</sup>، فقال: <sup>2</sup>

بكيت على الأحبة إذ تولوا      ولو أني هلكت بكوا عليا<sup>3</sup>  
فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا      وفقدك قد كوى الأكباد كيا  
كفى حزنا بأنى منك خلو      وأنك ميت وبقيت حيا  
ولم أك آيسا فيئست لما      رميت الترب فوقك من يديا  
فليت الخلق إذ خلقوا أطاعوا      وليتك لم تك يا بكر شيا  
نسر بأشهر تمضي سراعا      ونطوى في لياليهن طيا  
فلا تفرح بدنيا ليس تبقى      ولا تأسف عليها يا بنيا  
فقد قطع البقاء غروب شمس      ومطلعها علينا يا أخيا  
وليل التم يجلوه نهار      تدور له الفراقد والثريا

هذه مرثية شيخ هرم - أطل على مائة من السنين - في ولده، وقد شاهد

مصرعه على أيدي قطاع طرق. لذلك جاءت مفعمة بالحسرة والألم والصدق، وقد

<sup>1</sup> - ذكر المالكي " أن بكر بن حماد سمع من سحنون - رضي الله عنه - وغيره، وسعي به إلى إبراهيم بن أحمد الأمير فخرج هاربا من القيروان يريد بلده فلما صار بسباطة خرج عليه قطاع الطريق فقتل ولده عبد الرحمان وجرح بكر جراحات عدة، فمزال في بطنه فتق منها إلى أن مات". رياض النفوس ج 2، ص 21.

<sup>2</sup> - المالكي: رياض النفوس ج 2، ص 22

كان ذلك وراء ما تخلل القصيدة من صور حية و رؤى أصيلة جسمت تجربة الشيخ المأساوية ، مأساوية متابعة الأب الشيخ لانهيال صرح آماله وذخره فجأة، وعلى مشارف الوصول إلى مسقط الرأس' تيهرت' ، كما عبرت تلك الصور والرؤى عن أصالة شاعرية بكر بن حماد.

وإلى جانب مرثية ولده كفر، يمكن اعتبار هذه كمرثية لمصير الإنسان حيثما كان، وهي نزعة إنسانية في الشاعر. قد تكون إحدى نتائج فجيعة في ولده المقطوعة:<sup>1</sup>

زرنا منازل قوم لم يزورونا      إنالفي غفلة عما يقاسونا  
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم      حل الرحيل فما يرجوا المقيمونا  
الموت أجحف بالدنيا فخر بها      وفعلنا فعل قوم لا يموتونا  
فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم      فالحاملون لعرش الله باكونا  
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها      لو كان جمع فيها كنز قارونا

هذه المقطوعة يمكن اعتبارها جامعة بين الرثاء والزهد، فهي رثاء لكل الأموات. وتصور لما يقاسونه في قبورهم من عذاب الوحشة وطول المكوث والانتظار، ويرى أن لو قدر لهم النطق لقالوا شفقة على الأحياء : بادروا الزاد ويحكم. والفكرة مستوحاة من القرآن والسنة، فكثيرة هي الآيات والأحاديث المتضمنة ذلك الهول والمقاسات .

<sup>1</sup> - المصدر السابق ص23.

## رابعاً: التعريض والهجاء

الهجاء بتعداد المثالب والمناقص، والتهويل من شأنها قديم في الشعر العربي، وله أسلوبان؛ صريح مباشر، وهو الأكثر شيوعاً لأنه يوفر على القارئ الجهد والوقت معاً. ونوع آخر مقنع، ويسمى تعريضاً. ويعتمد الإيهام بالمدح فإذا ما أمعن فيه النظر تكتشف أنه هجاء وذم. وهو أشد وقعاً على النفوس وأكثر استتباعاً لسخرية الناس بالمهجو من الهجاء الصريح. وقد توسّعت دائرة الهجاء بنوعيه في العصور الإسلامية بإضافة فساد العقيدة أو المذهب إلى قائمة المعاييب التي يتهاجى بها. وهو ما يدخل في باب الصراع بين المذاهب، بحكم تجاورها وتداخل مصالح أصحابها، وتنافسهم على تولي الأمور واحتواء السلطات. هذا النوع من الصراع سجله الشعر المغربي بنسب تختلف حسب درجة احتدام الصراع بين تلك المذاهب. فإذا قلّ التهاجي بين السنة والإباضية، فإن الذي سجل بين السنة والشيعة كثير، وبخاصة ما صدر عن جماعة السنة المالكية.

من هذا القبيل قول أحد شعراء الإباضية يعرض بما في مذهب جماعة السنة من تساهل في بعض جوانب الشريعة. الأبيات (كامل):<sup>1</sup>

الشافعي يقول وهو إمامنا      اللعب بالشطرنج غير حرام

وأبو حنيفة قال وهو مصدق      في كل ما يروي من الأحكام

شرب المعتقة السلافة جائز      فاشرب على نغم من الأنغام

<sup>1</sup> - صالح باجية : الإباضية بالجريد، ص 73 .

والشيخ أحمد للمطابقة التي تؤتى طلاقاً عند كل غلام  
فاطماً مراكبها وارشفت ثغرها تنجو من التبعات والآثام  
والشيخ مالك للواط محلل وهم الشيوخ دعائم الإسلام  
فاشرب ولط وازن وقامر واحتجج في كل مسألة بقول إمام  
هذه المقطوعة الشعرية تعكس موقف الإباضية من المذهب السني أو  
لنقل هي محاولة النيل منها باتهامها بالتساهل في بعض قضايا الدين رغم  
خطورتها. جمعها في البيت الأخير " فاشرب ولط وازن وقامر ". كمحاولة لتنفير  
الناس عن تلك المذاهب بالافتراء على أئمتها.

مثل هذا التهجم من قبل الإباضية التي تعد أكثر الفرق الخارجية اطمئناناً  
إلى أهل السنة من المالكية في المغرب لدرجة أنهم كانوا " يؤمون نفس  
المساجد التي يؤمها أهل السنة ويملون تعاليمهم بكامل الحرية إلى جانب المالكية  
في كثير من الجهات بإفريقية. "<sup>1</sup>

سماح المالكية للإباضية بالجلوس إلى جانبهم للتدريس والعبادة دليل خلو  
عقيدتهم مما يسيء إلى الإسلام. علماً أن موقف علماء المالكية من مخالفي السنة  
كان صارماً إذ يعتبرونهم مرتدين .

جاء في المدارك عن حمديس القطان<sup>2</sup> أنه " كان لا يصلي خلف أهل البدع  
ومن يخالفه. وفعل ذلك هو وابن سحنون، ويحيى بن عمر حين ولي الصلاة ابن

---

<sup>1</sup> - عبد العزيز المجذوب: الصراع المذهبي بإفريقية، ص 117.  
<sup>2</sup> - هو أبو جعفر حمديس بن محمد القطان ، واسمه أمد، من أصحاب سحنون، مشهور بالفضل، رحل ولقي أبا المصعب ،  
وأصحاب عبد الرحمن بن القاسم وابن وهب، كان ورعاً ثقة مع شدة في مذاهب أهل السنة، توفي 289 هـ. عن أبي العرب:  
طبقات علماء إفريقية وتونس، ص 107.

أبي الحواجب، وفعل ذلك سحنون بغيره وترك الصلاة خلف القاضي سليمان بن  
عمران\* في جنازة"<sup>1</sup>

كما لم يرد في كتب المالكية شيء من الغرض في شأن الإباضية. على عكس  
ذلك الصفرية، فإننا نجد في تراجم بعض العلماء بهذه الكتب أن فلانا اتهم  
بالصفرية، فأعرض طلاب العلم عن السماع منه والأخذ عنه... أليس في هذا ما  
يدفع إلى القول بأن العلماء بإفريقية كانوا يعتبرون علماء الإباضية سنيين مثلهم  
، وأن جواً من الوثام والتعاون كان ربما يسود علاقات بعضهم ببعض. أظن ذلك  
أمراً ثابتاً.<sup>2</sup>

فالأبيات السابقة بناء على ما تقدم يمكن أن تكون من أحد المتعصبين، أو أنها  
موضوعة عليهم لتعكير صفو تلك العلاقات الحميمة.

وإلى جانب الهجاء الذي يقال في الأشخاص هناك - أيضاً - هجاء الأماكن  
والبلدان. قال سعد بن واشكل التيهرتي يتشوق إلى تيهرت، ويهجو مدينة تنس  
التي أصيب فيها بعلّة مات منها الأبيات:<sup>3</sup>

---

<sup>1</sup> - عبد الرحمن المجذوب: الصراع المذهبي بإفريقية، ص 47.  
\*سليمان بن عمران: أحد الأحناف المدعين بالسلطة ضد المالكية اقترح على الأمير محمد بن الأغلب ابتلاء سحنون  
بمحنة القضاء، فقبله سحنون وأصلحه فابتلى هو الآخر باستكتابه ثم ولاه قضاء باجة وبجاية والأريس. فأبعده بذلك عن  
أتباعه. المرجع نفسه ص 70-71.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه ص 117. بتصرف

<sup>3</sup> - سليمان بن الشيخ عبدالله الباروني النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، دار بوسلامة للطباعة  
والنشر والتوزيع - تونس (د،ت) ص 50-47.

نأى النومُ عني واضمّحتُ عرى الصبر

وأصبحتُ عن دار الأحبّة في أسر!

وأصبحتُ عن تيهرت في دار غربة وأسلمنيُ مرّ القضاء من القدر

إلى تنسُ ذاتِ النحوس فإيها يُساقُ إليها كلّ منتقصِ العمر

هو الدهرُ والسيّافُ والماءُ حاكمٍ وطالعتها المنحوسُ صمصامة الدهر

بلادُ بها البرغوثُ يحملُ راجلاً ويأوي إليها الذئبُ في زمن الحرِّ

يُرجفُ منها القلبُ في كل ساعةٍ بجيشٍ من السودان يغلب بالوفر

ترى أهلها صرعى دوى أم مدام يروحون في سكر ويغدون في سكر! <sup>1</sup>

هذه الأبيات تنم عن قدم راسخة في الشعر، بأسلوبها الجزل ومعانيها

الطريفة مثل: "نأى النوم" تشخيص معبر عن مدى الأرق الذي أصاب الشاعر

بسبب بعده عن بلده، وكذلك قوله: "واضمحت عرى الصبر" صورة جميلة

تبين نفاذ صبره. وقوله: "وأسلمني مر القضاء من القدر"، صورة رائعة تبين

مدى ما ناله من الهوان بعد العز. كذلك هجاؤه لأهل تنس بأنهم سكارى من غير

خمر، وذلك إما لصلف وتكبر متأصلين فيهم، وإما لطيش وقلة أدب وعلم. كما

هجاهم بالبخل والشح. ومدينة تنس هذه لم تهج من قبل هذا الشاعر فحسب بل

هجاهها شاعر آخر فقال فيها وفي أهلها: <sup>2</sup>

<sup>1</sup> - دوى : مرضى معلولين. القاموس المحيط، ج 4، ص 331.

<sup>2</sup> - سليمان الباروني : الأزهار الرياضية، ص 48-50.



أيها السائل عن أرض تنس      مقعد اللؤم المصفي والدنس  
بلدة لا ينزل القطر بها      والندى في أهلها حرف درس  
فصحاء النطق في (لا)أبدا      وهم في (نعم) بكم خرس  
فمتى يلتم بها جاهلها      يرتحل عن أهلها قبل الغلس  
ماؤها من قبح ما خصت به      نجس يجري على ترب نجس  
فمتى تلعن بلادا مرة      فاجعل اللعنة دأبا (لتنس)

يبدو أن حظ مدينة تنس سيء لدى الشعراء ، فإن يكن سعد بن واشكل  
هجاها ربما لافتقاده تيهرت المدينة التي فجع بنكبتها فلم يعد يستطيع بلدة  
غيرها. فإننا لا ندري لهجاء هذا الشاعر سببا.

يقول سليمان الباروني في تعليقه على هجاء الشاعرين لتلك المدينة ملتصا  
لابن اشكل شبه عذر، في حين لم ير لهجاء الثاني سببا معقولا : "قد بالغ هذان  
الشاعران في ذم هذه المدينة الممدوحة عند أرباب التاريخ، وقد علمنا السبب  
الحامل للأول منهما على ذمها فعذرناه، إذ لا مصيبة تعادل الداء العضال  
المفضي بصاحبه إلى الهلاك، كالذي أصابه ولم نعلم للثاني سببا قويا غير ما  
يفهم من كلامه من أنه كان سائلا وكأنه لم يقنع بما ناله فيها. وقد ورد أن النفس  
جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها..."<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص48.

هكذا هو الشعر! فقد بنى لقوم بيوتا شريفة، وهدم لآخرين أبنية منيفة كما قال الشاعر:

وما هو إلا القول يسري فتعتدي له غرر في أوجه ومواسم

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: سمعت أبا عمرو بن العلاء ورجل يقول: إنما

الشعر كالميمس. فقال: وكيف يكون ذلك كذلك؟ والميمس يذهب بذهاب الجلد

ويدرس مع طول العهد، والشعر يبقى على الأبناء بعد الآباء، ما بقيت الأرض

والسماة!<sup>1</sup>. فالشاعر إن غضب اختلق مالا يخطر على بال مغضبه، كسعد بن

اشكل في هجاء أهل تنس، وطبيعة تنس؛ من ماء وتراب. وإن رضي اختلق من

المحامد والمحاسن ما يجعل الناس يحملونها محمل الواقعة، إذ ليس يسأل

الشاعر: أصدقا ما قلت أم كذبا؟ كمدح الأعشى للملحق ذكر ابن رشيق قصته

مبدوءة بقوله: "فممن رفعه ما قيل فيه من الشعر بعد الخمول الملحق، وذلك أن

الأعشى قدم مكة، وتسامع الناس به، وكان للملحق امرأة عاقلة - وقيل بل أم -

فقالته: "إن الأعشى قدم، وهو رجل مفوه، مجدود في الشعر، ما مدح أحدا إلا

رفعته، ولا هجا أحدا إلا وضعه، وأنت رجل - كما علمت - فقير حامل الذكر ذو

بنات، وعندنا لقحة نعيش بها، فلو سبقت الناس إليه فدعوته إلى الضيافة،

ونحرت له، واحتلت لك فيما تشتري به شرابا يتعاطاه؛ لرجوت لك حسن العاقبة،

فسبق إليه الملحق، فأنزله ونحر له، ووجد المرأة قد خبزت... فلما أكل الأعشى

<sup>1</sup> - أبو إسحاق إبراهيم الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، ص. 57.

وأصحابه... سأله [الأعشى] عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه، وذكر

البنات، فقال الأعشى كُفَيْتَ أَمْرَهُنَّ . وأصبح بعكاظ ينشد قصيدته: <sup>1</sup>

أرقتُ وما هذا السَّهَادُ المُرَّوقُ      وما بي من سَفَمٍ وما بي مَعشَقُ

ورأى المحلق اجتماع الناس، فوقف يستمع، وهو لا يدري أين يريد الأعشى

بقوله، إلى أن سمع:

نَفَى الذَّمَّ عن آلِ المَحَلِّقِ جَفَنَةً      كجَابِيَةِ الشَّيْخِ العِرَاقِيِّ تَفَهَقُ

تري القومَ فيها شارِعينَ وبينهم      مع القومِ وُلْدَانٌ من النَسْلِ دَرَدَقُ

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة      إلى ضوءِ نارِ باليِّفَاعِ تَحَرَّقُ

تَشَبُّ لمقْرُورِينَ يَصْطَلِيَانِهَا      وباتَ على النَّارِ النَّدى والمُحَلِّقُ

رضيَعِي لِبَانِ ثَدْيِ أمِّ تَحَالِفَا      بأَسْحَمِ دَاجِ عَوْضُ لا نَتَفَرَّقُ

تري الجودَ يَجْرِي ظاهراً فوقَ وجْهه

كما زانَ مَتَنَ الهُنْدُوانِي رَوْنَقُ

فما أتمَّ القصيدة إلا والناسُ يَنْسِلُونَ إلى المحلق يهنئونه، والأشرافُ مِنْ كُلِّ

قبيلة يتسابقون إليه جرياً يخطبونَ بناتِه؛ لِمَكَانِ شِعْرِ الأعشى ، فلمْ تُمَسْ مِنْهُنَّ

واحِدَةً إلا في عِصْمَةِ رَجُلٍ أَفْضَلُ مِنْ أْبِيهَا أَلْفَ ضِعْفٍ. <sup>2</sup>

<sup>1</sup>الأعشى: الديوان شرح مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1 / 1407 هـ - 1987.  
<sup>2</sup> - ابن رشيقي: العمدة، ج 1، ص 49-48.

وفي كتب الأدب وتاريخه كثير من الأخبار المتعلقة بمن رفعهم الشعر بعد  
ضعة، أو بمن وضعهم وسلب عنهم ما كانوا فيه من مجد وعز، كبني نمير، وبني  
العجلان، والربيع بن زياد، نديم النجاشي الذي أفسد عنه لبيد ذلك باختلاق مثلية  
هجاه بها. فاعتذر زياد إلى النجاشي من ذلك. فقال له النجاشي: <sup>1</sup>

قَدْ قِيلَ مَا قِيلَ إِنْ حَقًّا وَإِنْ كَذِبًا      فَمَا اعْتِدَارُكَ مِنْ قَوْلِ إِذَا قِيلًا!؟

نعم فالناس لا يسألون عما تتناقله الأشعار أصدق هو أم كذب حتى ولو تعلق  
ذلك بأشرف الناس وأعظمها. كالذي قيل في المعتصم الخليفة العباسي الثامن.  
من قبل بكر بن حماد محمولا على دعبل الخزاعي <sup>2</sup> مع إنكار دعبل لذلك.  
القصيدة: <sup>3</sup>

بكى لشباب الدين مكتئبٌ صبَّ      وفاضَ بفرطِ الدمع من عينه غُربٌ  
وقام إمامٌ لم يكن ذا هدايةٍ      فليسَ له دينٌ وليسَ له لبٌّ  
وما كانتِ الأنبياءُ تأتي بمثله      يملك يوماً أو تدينُ له العُربُ  
ولكنْ كما قال الذين تتابعوا      من السلفِ الماضي إذ عَظُمَ الخطبُ  
ملوكُ بني العباسي في الكتب سبعةٌ      ولمْ تأتنا عن ثامنٍ لهمْ كُثبُ

<sup>1</sup> - المصدر نفسه ص 52.

<sup>2</sup> - دعبل الخزاعي شاعر متشعب غلا في الرفض وأنكر على الرشيد ما كان يتناول به العلويين من الحبس والأذى حتى أنساه معروفه، فهجاه ومن بعده من الخلفاء والوزراء والقواد، عاش مشردا طريدا. قال: أنا أحمل نعشي على كتفي منذ خمسين سنة لست أجد أحدا يصلبني عليها. " أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي، ط 6، مكتبة النهضة المصرية 1403 هـ 1983 م ص 246.

<sup>3</sup> - إبراهيم الدسوقي جاد الرب: شعر المغرب، ص 247.

كذلك أهل الكهف في الكهف سبعة<sup>1</sup> خيارٌ إذا عدّو وثامنهم كلب  
وإني لأعليّ كلبهم عنك رفعةً لأنك ذو ذنبٍ وليس له ذنب  
لقد ضاع ملكُ الناس إذ ساسَ ملكهم وصيفٌ وأشناسٌ وقد عظمَ الكرب  
وفضلٌ بن مروان سيثلمُ ثلثة يظلُّ لها الإسلام ليس له شعب

إن الإقدام على هجاء الخليفة بمثل هذه الفضائح (لا دين ولا لب، والكلب  
أفضل منه، وأنه وصيف) لينم عن كره واحتقار حقيقيين للخليفة، مما يجعلنا  
نستبعد مغامرة التلفيق من قبل بكر، خصوصاً وأن هناك مقطوعة تنسب إلى بكر  
تتضمن تحريضا للخليفة على الثأر من دعبل صاحب الهجاء :<sup>1</sup>

أيهجو أمير المؤمنين ورهطه ويمشي على الأرض العريضة دعبل  
أما والذي أرسى ثبيراً مكانه لقد كادت الدنيا لذلك تزلزل  
ولكن أمير المؤمنين بفضله يهم فيعفو أو يقول فيفعل  
وهو التحريض الذي استنكره أبو تمام فعاتب بكراً بقوله: "قتلته والله يا بكر!".  
وقد ذكر بكر هذا العتاب في قوله:

وعاتبني فيه حبيبٌ وقال لي لسانك محذور وسُمَّك يقتل  
وإني وإن صرفتُ في الشعر منطقي لأُصِفُ فيما قلتُ فيه وأعدل

---

<sup>1</sup> - المرجع السابق 248

فالببيتان يرفع بهما الشاعر الحرج عن نفسه فيما قاله من تحريض لأنه  
محق. فإن يكن شاعر تاهرت هو مُخْتَلِقُ الأبيات فهو -حقا- داهيةٌ كبرى ، ومثل  
هذا الدهاء ترفضه كل الديانات والقيم الإنسانية على أي درجة كانت، مهما كانت  
طبيعة الشخص الذي حيكَ ضده، وبخاصة وهو الأديب الشاعر والعالم المدرس  
للحديث.

ومن هجاء بكر بن حماد ذي الباعث السياسي الذي أخذ شكل النقيضة قوله  
في عبد الرحمن بن ملجم الخارجي قاتل الإمام علي بن أبي طالب ، ينقض مدح  
عمران بن حطان لفعلته:<sup>1</sup>

قلْ لابن ملجمٍ - والأقدارُ غالبَةٌ - هدمتَ - ويَلِكُ - للإسلامِ أركاناً  
قتلتَ أفضلَ من يمشي على قدمٍ وأوّلَ الناسِ إسلاماً و إيماناً  
وأعلمَ الناسِ بالقرآنِ ثم بما سنّ الرسولُ لنا شرعاً وتبياناً  
وكان منه - على رغم الحسود له - مكانَ هارون من موسى بن عمراناً  
وكان في الحروبِ سيقاً صارماً ذكراً لبيثاً إذا لقي الأقرانُ أقراناً  
ذكرت قاتله - والدمعُ منحدر - فقلتُ سبحانَ ربِّ الناسِ سبحاناً  
إبني لأحسبه ما كان من بشرٍ يخشى الميعادَ ولكنْ كان شيطاناً  
أشقى مُرادٍ \* إذا عدت قبائلها وأخسرُ الناسَ عند الله ميزاناً  
كعاقِرِ الناقةِ الأولى جَلَبتْ على ثمودَ بأرضِ الحجرِ حُسْراناً  
قد كان يُخبرهم أنْ سوف يخضبها قبلَ المنيةِ أزماناً فأزماناً

<sup>1</sup> - محمد بن رمضان شاوش والغوثي بن حمدان: إرشاد الحائر إلى آثار أديباء الجزائر، طبع وإشهار هـ . داود بريكسي تلمسان، ط 1 / 1422هـ - 2001 / ص 32-33.

فلا عفا الله عنه ما تحمله ولا سقى قبر عمران بن حطان  
لقوله في شقي ظل مجترماً ونال ما ناله ظلماً وعُدواناً:  
يا ضربة من تقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا  
بل يا ضربة من غوي أورثته لطي مخلداً قد أتى الرحمن غضباناً  
كأنه لم يرد قصداً بضربته إلا ليصلى عذاب الخلد نيراناً

يكشف هجاء بكر بن حماد لا بن ملجم ونقضه لمدح ابن حطان له عن  
جريمته تلك بعض التقارب القائم بين فرقتي الإباضية والصفوية وبين جماعة  
السنة والشيعة في التعاطف مع آل البيت فيما يتعلق باغتيال الإمام علي - كرم  
الله وجهه - فالشاعر من تاهرت عاصمة الإباضية في القرنين الثاني والثالث ،  
مما يرجح كونه إباضي المذهب. يقول سليمان الباروني - تحت عنوان  
المشكوك فيه - : " وأما الذين لم نتحقق مذهبهم فمنهم العلامة الأديب صاحب  
النظم العجيب والإنشاء الغريب المشهور في الشرق والغرب بين أرباب العلم  
والأدب( وهو إما أباضي أو صفري على الغالب) بكر بن حماد بن سهل بن أبي  
إسماعيل الزناتي " .

إن انتماء الشاعر لأحدى الفرقتين - والأرجح أنه إباضي - هو الذي جعله  
يقف من الجريمة موقف جماعة السنة والشيعة ؛ فبكى المغتال وأبّنه تأبيناً يشف  
عن محبة وولاء . وما استعماله لصيغ التفضيل إلا دليل ذلك الإكبار والإجلال.

"أفضل، أول بمعنى أسبق، وأعلم. وكذا رفع منزلته على سائر منازل الصحابة -

رضوان الله عليهم - بجعله من محمد بمثابة هارون من موسى البيت:

" وكان منه - على رغم الحسود له - مكان هارون من موسى بن عمران"

وما الحزن الذي ينتابه لذكر مقتله إلا رمز محبة و ولاء. ترجم ذلك قوله

" ذكرت قاتله والدمع منحدر...".

ثم قابل هذا الحب والولاء للإمام بـبغضٍ مَقِيَّتٍ لابن ملجم، تفصح عن ذلك

العبارات " ويلك "؛ الخطاب موجه لابن ملجم، و " ما كان من بشر...ولكن كان

شيطانا " و "أشقى مراد إذا عدت قبائلها " و " أخسر الناس عند الله ميزانا".

كل هذه المعاني وغيرها تترجم صدق الشاعر فيما عبر عنه وتجعله أكثر قربا من

مذهب الشيعة في ولاءه ومحبته للإمام. رغم كون الإباضية إحدى فرق

الخوارج وهم الذين كان بعضهم وراء تدبير الاغتيال.

ومما يدل - أيضا - على صدقه أن القصيدة قيلت في زمن العباسيين

، وهم من حاربوا التشيع خاصة ، والتحزب لغيرهم عامة. ولكن صدقُ الولاء

منع الشاعرَ من استحضار العواقب .

يقول الدكتور عبد العزيز نبوي عن موقف الشاعر المجانب لمبادئ

الخوارج : " يبدو أن شاعرنا كان صاحب شخصية معتدلة ، ومزاج مستقيم



لا تصرفه المغريات عمّا استقر في نفسه ووجدانه ، إذ يخلو شعره خلوا من أي أثر لحياة اللهو والمجون والشراب رغم مروره بالقيروان ، وإقامته ببغداد،الذين كانا يموجان بهذه المجالس ، فهو نموذج لشخصية أهل المغرب الأوسط..."<sup>1</sup>.

عن اعتدال الشاعر في مذهبه ومواقفه واستقامته أمر ثابت ينطق به شعره.أما عن جعل القيروان في مستوى بغداد من حيث شيوع المجون فهذا أمر يتحفظ تجاهه ، إذ القيروان عاصمة المغرب كانت تحكمها القيم وتطبق فيها أحكام الشريعة الإسلامية من قبل قضاة سنيين لا يخشون في الله لومة لائم ،فكانت تهابهم عامة الناس وخاصتهم بما في ذلك الأمراء وحاشيتهم.<sup>2</sup>

---

<sup>1</sup> - د عبد العزيز نبوي : محاضرات في الشعر المغربي القديم ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر / 1983 ،ص130 .  
<sup>2</sup> - ذكر المالكي : " أن إبراهيم بن أحمد أظهر يوما في قصره عزفا ولهوا ، فدخل رجل من المتعبدين إلى المسجد الجامع من بابيه الغربي فقال لأصحابه: قوموا إلى هذا الرجل ،فقد أحدث علينا أمورا لا نعرفها، و لا نصير عليها،فإما أن يزيل عنا هذا الأمر وإلا فنحن نخرج وأرض الله واسعة .ونحن إنما سكنهاها لله الواحد القهار". فخرج من باب الجامع الشرقي فصحبه نحو سبعين رجلا من المتعبدين ،فتوجهوا إلى قصر إبراهيم ، فملأوا الفضاء الذي بين يدي القصر مع من تبعهم فوجدوا الأمر الذي يكرهونه قائما من اللهو والعزف، فقبل لهم : ما تريدون؟. قالوا :نريد الأمير لنجتمع به"،فقبل لهم : الأمير في شغل لن تصلوا إليه في يومكم " فقالوا :[لن نبرح المكان حتى نجتمع به ،فاضطروه إلى تلبية مطبهم "بألا يروا شيئا مما يكرهونه . [ رياض النفوس ص 486-487.

## خامسا: المدح

مدح العلم في حقيقته مدح للعلماء و ترغيب في طلبه. وهو أبلغ من الحث المباشر عليه. إذ وصفك مزايا الشيء أدعى إلى التعلق به، وهذا ما تواضعت عليه المناهج التعليمية السليمة. وبذلك يكون هذا الأمير الرستمي، أفلح بن عبد الوهاب (208-285هـ) قد أدرك نفسية المتعلم كما أدركته المدارس التعليمية الحديثة القائمة على فلسفات عديدة ، وتجارب طويلة. إن مصدر أفلح في هذا الفهم السليم هو القرآن الكريم والسنة الشريفة. مدح العلم بقصيدة طويلة، أثنى عليها الباروني بقوله: "...فمن شعره الرائق تلك المنظومة المشهورة بين التلامذة الجامعة لحكم ونصائح هي جديرة بالحفظ والاعتناء بل يحق لها أن تُكتب بمداد التبر على صفحات اللجين وأن يجعلها كل من كان ذا اعتناء بالعلم والعمل به من مكثونات فؤاده ومن دُرر محفوظاته... وقد عنيَ بتشطيرها ذلك الرحالة الشهير الأديب الكامل العلامة المفلح الشيخ علي بن أحمد العُماني من علماء أباضية الشرق في أثناء سياحته بالقارة الإفريقية في أوسط القرن الثالث عشر من الهجرة."<sup>1</sup>

والقصيدة أربعة وأربعون بيتا. وصارت بعد تشطيرها ثمانية وثمانين بيتا.  
القصيدة:<sup>2</sup>

العلمُ أبقى لأهل العلم آثارًا      يريكُ أشخاصهم رَوْحًا وأبكارًا  
حييٌّ وإن مات ذو علمٍ وذو ورعٍ      ما مات عبدٌ قضى من ذاك أوطارا

<sup>1</sup> - سليمان الباروني : الأزهار الرياضية، ص189.  
<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص 190.

وذو حياةٍ على جهلٍ ومنقصةٍ كميتهٍ قد ثوى في الرّمسِ أعصاراً  
 لله عصبه أهل العلم ! إنّ لهم فضلاً على الناس غيابةً وحضّاراً  
 العلمُ علمٌ، كفى بالعلم مكرمةً والجهل جهلٌ، كفى بالجهل إدباراً  
 العلم عند اسمه أكرمٌ به شرفاً والجهل عند اسمه أعظمٌ به عاراً  
 يشرفُ العلمُ للإنسان منزلةً ويرفع العلمُ للإنسان أقداراً  
 العلم دُرٌّ له فضلٌ ولا أحدٌ في الناس يدري لذاك الدرُّ مقداراً  
 للعلم فضلٌ على الأعمال قاطبةً عن النبيّ رويّنا فيه أخباراً  
 يقول طالبُ علمٍ بات ليلته في العلم أعظمٌ عند الله أخطاراً  
 من عابدٍ سنةً لله مجتهداً صام النهار وأحْيَى الليلَ اسهارةً  
 وقال إنّ مداد الطالبين على ثيابهم وعلى القِرطاسِ اسطاراً  
 مثل دم الشهداء المكرمين لهم فضل فأكرم بأهل العلم أختياراً  
 وقال هم يرثون الأنبياء كذا فيهم رويّنا أحاديثاً وأخباراً  
 أكرمُ بهم من ذوي الفضل المبين لهم

إرثُ النبوةِ في أيديهم صاراً  
 الكاشفين معاني كلّ مشكلةٍ والمظهرين خفيّ الغمضِ إظهاراً  
 أشدُّدُ إلى العلم رَحلاً فوق راحلةٍ وصلٌ إلى العلم في الآفاق أسفاراً  
 واصبرُ على دلجِ الأغساقِ مُعتسفاً مهامةً الأرض أحرزناً وأقطاراً  
 حتى تزورَ رجالاً في رحالهم فضلاً فأكرمُ بأهل العلم زواراً  
 والطف بمن أنت منه العلمُ مقتبسٌ جدّله كلّ يوم منك ابراراً

فالأطفُ مستخرجٌ منه فوائده      وكن لصواته إن صال صبارا  
فصدر ذي العلم إن راجعته حرجُ      فقد برى الله هذا الخلق أطوارا  
وارُصد خواطِرَ ساعاتِ النشاطِ له      إذا أردت لبعض القول تكرارا  
وأحسن الكشفَ عن علم تطالعه      وألزمَ دراسته سرا وأجهارا  
ولا تكن جامعاً للصحف تخزنها      كالعير يحمل بين العير أسفارا  
نعمَ الفضيلةُ نعم الذخرُ تورثه      لنفسك اليوم إن أحسنت آثارا  
وإن هممتُ بخير الناس تألفهم      ألفتَ بالعلم أبراراً وأخيارا  
فاطلب من العلم ما تقضي الفروضَ به

وأردفَ به عملاً في القلب نوراً  
واطلبه ما عشتَ في الدنيا ومدتها      لموقف العرض ألا تورد النارا  
واجعله لله لا تجعله مفخرةً      ولا ترائي به بدواً وأحضارا  
تعساً لكل مُراءٍ غير مقتصدٍ      وقد تَقَلَّدَ أثاماً وأوزارا  
يَسطادُ بالعلم أموالَ العبادِ كما      يسطادُ مُقتنِصٌ بالبازِ أطيّاراً  
لو كان في فلواتِ الأرضِ معترضا

وللدرّاهم في الأسواقِ طرّاراً  
فلا تُخادِعْ بما تُبديه خالقنا      واللهُ يعلمُ ما تُخفيه إضماراً  
مولاك يعلم ما تخفي الصدور فلا      يكن لك الحلم من مولاك غرّاراً  
ولا تداهنُ إذا ما قلت مسألةً      أضرتَ بالدين إن داهنت إضراراً  
واجعل لنفسك حظاً من مذاكرةٍ      مع الصديق إذا استوحشت أسماراً

وانشط لعلمك إذ لا بد من مللٍ      ولا تن من جميع الناس فرارا  
وعاشر الناس وانظر من تعاشره      قصداً ولا تكثرن الصّحبَ إكثارا  
فرُبُّ مُكثرٍ صحبٍ لا يزال يرى      لنفسه قرناء السوء أشرارا  
الخير في الناس معدومٌ وفاعله      إلا القليلَ وذلك القلّ قد بارا  
وكن برّبك لا بالناس معتصماً      كفى بربك رزاقاً وغبّارا  
خيرُ العبادِ عبادُ الله إن له      لُطفاً خفياً يرُدُّ العُسرَ أيسارا  
سبحانه صمداً لاشيءٍ يُشبهه      أقررتُ لله بالتوحيد إقرارا

أوردت القصيدة كاملة كي تتضح أبعادها التي لاشك تفيدنا في التقرب من معالم شخصية هذا الأمير الشاعر، وحتى تكون رؤيته للعلم والعلماء أكثر وضوحاً، وكذا لتمكين القراء والطلبة من هذا النص المهم، وبخاصة فهو من النصوص النادرة في كتب الأدب وتاريخه، إذ المثبت منها في بعض الكتب لا يتجاوز الأربعة أبيات أو الخمسة. وما وجدتها كاملة إلا في الأزهار الرياضية لسليمان الباروني. ومن جانب آخر أثبتتها كاملة لتأكيد الفكرة التي مهدت بها، من أن الأمير أفلح قد ضمّن قصيدته هذه حقيقة العلم وأفضل الطرق وأسلمها لتمكينه من نفوس المتعلمين. فسبق بذلك - كما يقال - عصره بكثير، بل بأعصر كثيرة. وحتى يعلم المنتقصون من قيمة وشأن تراثنا بأنه متنوع متنوع مناحي الحياة. بما في ذلك طرق التعليم وأساليبه، فكثير مما نصح به هذا العالم وغيره، قد صيغَ كنظرياتٍ للتعليم تُسبب إلى علماء الغرب في العصر الحديث،

وتطبق في مدارسنا - ولا عيب - لأن الفكر ميراث الإنسانية جمعاء " الحكمة ضالة المؤمن " شرط ألا يُنسى ذلك ما يزرع به تراثنا من فكر أصيل متنوع، يجب الإشادة به كلما سنحت الظروف بذلك. من ذلك إشارته إلى اقتناص فرص انشراح الصدر للعلم ونشاط النفس له: " وارصد خواطر ساعات النشاط له". فالنظريات الحديثة جعلت ذلك شرطاً لنجاح العملية ؛ فعملت على درء الملل بتنويع النشاطات التعليمية، وتجنب كل ما من شأنه إملال المتعلم وإضجاره، واعتماد الراحة والعطل وكذلك نصح بالذاكرة الثنائية أو في مجموعة محدودة العدد: " واجعل لنفسك حظاً من مذاكرة مع الصديق..". والحق أن القصيدة لا يخلو بيت من أبياتها من فكرة صائبة تفيد المتعلم في تبين جانب من جوانب فضل العلم ، أو ترشده إلى أسلوب من أساليب اكتسابه. إن القصيدة تقدم إلينا الأمير أفصح شاعراً متمكناً من فنه. سواء من حيث اللغة أو من حيث ثراء الفكر وتنوعه . إلى جانب طواعية الأسلوب وانسيابه، وتلاؤمه مع البحر البسيط ؛ فمن حيث التمكن من اللغة يبدو ذلك في انصياع اللغة له وجعلها تتلاءم مع السياق والوزن. كهذه الاشتقاقات "روحا وأبكاراً، أعصاراً، أثماراً، أسهاراً، ابراراً، التي تدل على سعة علمه بالصيغ الشائع منها والنادر. فالشائع من هذه الصيغ هي: رواحا، وبكرة، وعصور، وثمار، وسهر، وبراً. وقد تجانست تلك الصيغ مع العبارات التي تضمنتها.

ومن حيث معاني القصيدة فقد جاءت خصبة مشبعة بالحكمة الدالة على أصالة فكر ورصانته. من ذلك: يريك أشخاصهم بالعشي والإبكار، والعايش على جهل

بعيد عن الدنيا كميت منذ أحقاب. وحقيقة أخرى أن أفضال العلماء على الناس جارية حُضَّارًا كانوا أم غُيَّابًا، على حد سواء، وهذا ثناء على العلم وأهله عظيم. وقد وردت هذه المعاني مشبعة بقيم الدين الإسلامي، حيناً بالاعتباس من بعض آيات الذكر الحكيم، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة. كحديث: " فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب." و" العلماء ورثة الأنبياء ". وحيناً بالتضمن والتناص مع كثير من النصوص الدينية إن معنى وإن أسلوباً. ومن الوجوه الفنية المطردة في النص التشبيهي والتمثيل فمن التشبيه قوله: " وذو حياة على جهل....كميت" و" العلم در" ومن التمثيل، مماثلته ثياب المتعلمين بثياب الشهداء فيما نالها من تغير، تلك بالحبر وهذه بالدم ولكليهما منزلة عظمية عند الله تعالى . وكذا تمثيله لجامع الكتب من غير إفادة منها بالغير يحمل أسفارا، وهذا مقتبس من قوله تعالى في حملة التوراة غير العاملين بها "مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بيس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين"<sup>1</sup>.

ومن وجوه البيان الواردة في النص الاستعارة المكنية في قوله : "يريك أشخاصهم روحا وأبكارا" الضمير عائد على العلم. وكذا قوله : "ويرفع العلم لإنسان أقدارا". والملاحظ أن فنون البيان باستثناء التشبيه قليلة. أما البديع فأول فنونه التصريح في البيت كما هو جارفي جل القصائد بين نهاية الصدر ونهاية العجز "ثارا ،كارا" نفس القافية ونفس الروي ، فقد ورد منه

---

<sup>1</sup> - سورة الجمعة : آية 5.

الطباق بكثرة، جاء في البيت الأول بين "روحا وأبكارا" وفي الرابع بين "غيابا وحضارا" وفي الحادي عشر بين النهار والليل، وفي الرابع والعشرين بين "سرا وأجهارا" وبين "مضطرا ومختارا". وهو كثير مطرد.

ومن ألوان البديع كذلك المقابلة بين "حي وإن مات" في البيت الثاني. وبين شطري البيت "العلم علم كفى بالعلم مفخرة ، والجهل جهل كفى بالجهل إديارا" وكذا بين شطري البيت "العلم عند اسمه أعظم به شرفا ، والجهل عند اسمه أعظم به عارا".

هذا عن موضوع مدح العلم كوسيلة إلى العزة والرفي المادي والمعنوي. أما عن المدح كغرض مرتبط بمدح الأشخاص إعجابا بأخلاقهم وبأدوارهم في الحياة، أو طمعا في صلاتهم فذلك قليل في الشعر المغربي خلال الفترة المعنية بالبحث.

من ذلك القليل هذه المقطوعة لبكر بن حماد يمدح أحمد بن القاسم، حاكم مدينة (كرت) من أمراء الأدارسة بالمغرب<sup>1</sup>:

إن السماحةَ والمروءةَ والندى      جمعوا لأحمد من بني القاسم  
وإذا تفاخرتِ القبائلُ وانتمتُ      فافخرُ بفضلِ محمدٍ وبفاطم  
وبجعفر الطيّارِ في درج العلا      وعليّ العضبِ الحسامِ الصارم  
إني لمشتاقٌ إليك وإنما      يسمو العقاب إذا سما بقوادم  
فابعث إليّ بمركب أسمو به      عليّ أكون عليك أول قادم

<sup>1</sup> - سليمان الباروني: الأزهار الرياضية، ص 74.



واعلم بأنك لن تنال محبة إلا ببعض ملابس ودرهم  
المقطوعة على قصرها حملت فكرتين أساسيتين؛ مدح مباشر من غير تقديم،  
واستجداء الأمير. فالمدح تم ببعض القيم كالسماحة والكرم والمروءة، وبشرف  
النسب، فهو من أشرف الأسر من أشرف القبائل. أما الاستجداء فجاء عاريا كذلك  
ومباشرا مثل المدح. لذلك بدت هذه المقطوعة مفارقة ومخالفة لبقية شعره بل  
بدا لي صدور مثل هذه المقطوعة عن بكر بن حماد أمرا غريبا. ذلك لأنها  
لا تمثل شخصية الشاعر التيهرتي لا من حيث الجوانب الفنية ولا من حيث زهده  
وإباؤه، فمن حيث الجانب الفني تساوى عدد أبيات المدح بأبيات الاستجداء السافر.  
هذا التساوي لا يصدر عن شاعر كبير جاب المغرب والمشرق، وزاحم خلال  
ذلك شعراء كبارا. إلى جانب خلو المقطوعة من بصمات الشاعر المتمثلة في  
التلقائية الممتعة، فالمطلع مثقل بالعطف الذي هو أبرز الأساليب النثرية "إن  
السماحة والمروءة والندى"، بل هو دليل التكلف وغياب الصدق.  
أما الجانب الثاني فالمقطوعة لا تمثل شخصية الشاعر الزاهد في عرض  
الدنيا، فهي تقدمه مستجديا وبأسلوب بشع، واعلم أنك لن تنال محبة إلا ببعض  
ملابس ودرهم. وهناك عدة قراءات لتفسير هذا الضعف الطارئ على هذه  
المقطوعة منها:

- إن تفاوت شعر الشاعر قوة وضعفا أمر مطرد.
- احتمال كون المقطوعة بقية من قصيدة ضاع أهمها فبقيت على هذه الحال.
- ليس بمستبعد أن تكون قد حملت على الشاعر من قبل بعض المتشاعرين.

شعر الخوارج أو بالأحرى شعر الإباضية قليل إذا ما قيس بشعر جماعة السنة  
وشعر الشيعة الفاطميين بالمغرب، وغم أن الفترة الزمنية التي استغرقها  
الإباضيون في المغرب أطول من الفترة التي استغرقها الشيعة الفاطميون. فهل  
يكون وراء تلك القلة طبيعة المذهب أم شيء آخر؟  
الإجابة عن هذا السؤال يحتاج في حد ذاته إلى بحث يتعمق دقائق المذهب  
الإباضي وخصوصياته التشريعية والنفسية والظروف السياسية والبيئية  
الزمكانية.

- يمكن اعتبار حرص الأئمة الرستميين على التزام الشريعة وميلهم الشديد إلى  
التقشف والبساطة سببا في ذلك. يقول الفرد بل : "استطاع الأئمة الرستميون  
بفضل بساطتهم وتقواهم وعملهم ، وبفضل من أحاط بهم من ناس بسطاء ومن  
علماء وفقهاء أن يكتسبوا ثقة البربر واحترامهم فأحاط بهم هؤلاء وتعلقوا  
بدعواهم الدينية القاسية"<sup>1</sup>

- التطبيق الصارم لمبادئ الشريعة دون تمييز بين الناس، حكما كانوا أو  
محكومين، تلك الصرامة سوف تجعل العقل يسود العاطفة فتنمو الفنون النثرية  
والشعر الموضوعي، لأنها الأكثر اعتمادا عليه . قصيدة أفلح نموذج للشعر  
الموضوعي. أما الشعر الغنائي فسينحصر في الرثاء والزهد والتأمل ، شعر بكر  
بن حماد صورة لذلك.

<sup>1</sup> - الفريد بل: الفرق الإسلامية بالشمال الإفريقي، ص 149

هذا الاتجاه الديني سيكون يكون هو المحدد للنوع الأدبي سيستقطب اهتمام القاصدين حاضرة الدولة التي "نفق سوق العلوم والأدب في ظلها" <sup>1</sup> لكن في جانب التأليف في مختلف العلوم . لأن التزام الأديب باتجاه الدولة سوف شرط نجاحه. لذلك قيل: لم يكن الخوارج شعراء في المقام الأول، بل كانوا مناضلي سياسة وحرب...ولسنا نجد من بينهم من يمكن أن يعد من شعراء ذلك العصر إلا الطرماح بن حكيم وعمران بن حطان.<sup>2</sup> إذا كان هذا عن شعرهم في المشرق أو ما يكن وصفه بمنبع الشعر الأصيل. إن الموضوعية تجعلنا نقول : وليس ثمة في المغرب من يمكن أن يعد من الشعراء في الإمارة الإباضية إلا بكر بن حماد في الشعر الغنائي وأفلح بن عبد الوهاب في الشعر الموضوعي.

– يمكن اعتبار الفترة الزمنية سببا مباشرا في تلك القلة، فهي تمثل مرحلة التكون والنشوء بالنسبة إلى كل العناصر المكونة للشعر.

– يمكن اعتبار البيئة الاجتماعية وراء تلك القلة، فهي لم تنهيا بعد لاستقبال الشعر كفن ممتع.

---

<sup>1</sup> – محمد الطمار : تاريخ الأدب الجزائري، ش.و. للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981 م، ص30.

<sup>2</sup> – د.عبد القادر القط : في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979 ص376.

## الفصل الثالث:

أغراض الشعر الشيعي وملامح تميزه

أولاً: الشعر المتعلق بالنشأة:

- شعر الكهان ومستطعي الغيب

ثانياً: الشعر المنبثق عن الواقع:

أولاً: المدح

ثانياً: الحماسة

ثالثاً: الفخر

رابعاً: الهجاء

خامساً: الرثاء

سادساً: الوصف

سابعاً: الغزل

## تمهيد :

يرجع أصل الفاطميين إلى إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - من فاطمة الزهراء - رضي الله عنها- . ورأس الفاطميين هو عبد الله الذي تلقب بالمهدي، على أنه المهدي المنتظر. وسماه السنيون : عبيد الله، تصغير تحقير لطعنهم في نسبه. وهو الذي سمي دولته ودعاها: " الدولة الفاطمية " إثباتا لنسبه، وإعلانا بانتصار الأحفاد وعودة الإمامة إليهم.

أسس عبيد الله أول دولة شيعية فاطمية بالمغرب بفضل داعيته المحنك أبي عبد الله الصنعاني الشيعي الذي قدم إلى المغرب بعد أن تعرف على الحاج الكتاميين<sup>1</sup> \* سنة 280 هـ واستقر في بلدة "إيكديجان" قرب جيجل بالمغرب الأوسط الجزائر. على أنه مستقدم لتعليم الأطفال، بعد أن أخذ منهم ميثاق الحماية من أي كان.

ومن إيكديجان بدأ نجم دعوته يتألق يوما بعد يوم، وأتباعه يزدادون كثرة يوما بعد آخر، وخطره على الأغلبية خاصة يزداد مع الأيام وتزايد الأتباع إعجابا بشخصه .

لقد حماه مستقدموه وأتباعه من والي العباسيين بالقيروان. ومن بعض رؤساء كتامة الذين حاولوا إخراجه بعد أن اقتنعوا بأن الرجل يطمح إلى السيادة على

<sup>1</sup> - \* كتامة قبيلة بربرية قوية تسكن المغرب الأوسط في فحوص وسهول وجبال مابين قسنطينة وبجاية وتعمر جبال الأوراس منذ عهد قديم، وهي من قبيلة البرانس المشهورة. كانت مستحوذة على بلاد الزاب بها مدنها وإليها سيادتها. ومنها من لم يكن يؤدي لابن الأغلب أي طاعة على الإطلاق لما كان لها من قوة وصوله سلطان. من مدنها إقجان وسطيف وباغاي ونقاوس وبلزمة وتيفيست وميلة وقسنطينة وسكيكدة والقل وجيجل. أنظر: عثمان الكعك : موجز تاريخ الجزائر. ص 150

المنطقة، فلم يتمكنوا. وما لبث أن استقطب كل قبائل كتامة الأمر الذي شجعه على بدء حملاته على القبائل المجاورة، وحملها على الولاء له بالقوة متحديا بذلك كلا من الأغلبية والرستميين، الرستميين الذين أنهكهم الخلاف وشغلهم عما يجري لهم. ولم يلبث أن حول حملاته تجاه الأغلبية فقضى عليهم نهائيا بعد وقعة الأربس شمال شرق القيروان سنة 296 وهي الوقعة الفاصلة بينه وبين آخر أمراء بني الأغلب، زيادة الله بن أبي العباس الذي فر إلى المشرق بعد الوقعة.

بعد القضاء على الدولة الأغلبية، قدم عبيد الله المهدي - متخفيا ومتنكرا في صورة تاجر - من سوريا عبر مصر فطرابلس ثم سجلماسة حيث اكتشف أمره فحبس. من قبل اليسع بن مدرار. توجه أبو عبد الله الصنعاني بجيش إلى سجلماسة لتخليص مولاه من الأسر. وكان له ذلك بعد معركة انهزم فيها الأمير المدراري. عاد الصنعاني ومعه عبيد الله قاصدا إيكديجان دار الهجرة ومنطلق الدعوة. ومنها أمر داعيته بكتب كتاب مما ورد فيه: " أما بعد فالحمد لله ناصر دينه ومعز وليه الذي أظهر دينه على سائر الأديان، ووليه على من ناصبه من أهل الظلم والعدوان. وكتابي هذا إليك من إيكديجان دار الهجرة ومستقر الإيمان. وقد وصل الإمام مولانا وسيدنا المهدي بالله (صلوات الله عليه) وولده - بلغ الله به أفضل أماله - في جميع أولياء الدين وكافة من معه من المؤمنين، أحسن وصول وأهنأه وأسره وأرضاه، فأضاء بقدمه دار هجرة أوليائه وسر المؤمنين والمؤمنات الذين خلفهم العذر عن جهاد العدو ومن كنا أقمناه لضبط المكان به، وأقبلوا من كل حدب وصوب ينسلون إليه ومن كل أفق يسعون نحوه يتبركون بالنظر إليه

ويتشفون برؤيته... ووضعت بحمد الله الحرب أوزارها... وأمير المؤمنين إلى النهوض إلى إفريقية يقدر... أن يكون وصوله يوم الخميس لعشرين من ربيع الآخر من سنة سبع وتسعين ومائتين إن شاء الله. فاعلم ذلك وكن على أهبة منه ومن قبلك،...<sup>1</sup>

كان وصول المهدي إلى رقادته ( قرب القيروان ) في نفس اليوم الذي حدد في الكتاب المرسل من إيكجان الخميس 20 ربيع الآخر سنة 297هـ. وفي صباح يوم غده الجمعة أخرج توقيعا وأنفذه إلى خطيبي رقادة والقيروان للدعاء به على المنابر بعد الصلاة على محمد - صلى الله عليه وسلم - وآله. ومن نص الدعاء ما يلي: "اللهم فصل على وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك عبد الله أبي محمد الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين الذين كانوا يقضون بالحق وبه يعدلون! اللهم وكما اصطفتيه لولايتك واخترته لخلافتك وجعلته لدينك عصمة وعمادا ولبريتك موثلا وملاذا، فانصره على أعدائك المارقين واشف به صدور المؤمني، وافتح به مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته وأيده على العصاة الظالمين إله الخلق رب العالمين!<sup>2</sup>

إن في الدعاء جوانب من عقيدة الشيعة المخالفة لعقيدة المغاربة السنية المتأصلة في نفوسهم مثل الصلاة على عبيد الله وآله، وادعائه أنه مفوض للإمارة من قبل المولى عز وجل. إلى غير ذلك من مظاهر عقيدتهم.

<sup>1</sup> - القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص 289-290 .  
<sup>2</sup> - القاضي النعمان. المصدر السابق ، ص 293-294.

هكذا تأسست الدولة الفاطمية في المغرب، في زمن قياسي لتضافر مجموعة

من العوامل لعل أهمها:

- عبقرية أبي عبد الله الصنعاني الشيعي في الدعوة والسياسة والحرب.

- تعسف إبراهيم بن الأغلب وجوره، فقد كان سفاكا لدماء الناس، فرادى

وجماعات، متقننا في أساليب القتل. لم يسلم من ساديته تلك حتى ابنه<sup>1</sup>، ومن

لهم عليه أفضال كفرسان بلزمة المخمدين لثورات كتامة كلما تأججت. كل ذلك

جر عليه بغض الأمة ونقمتها.

- ضعف الأمير زيادة الله بن أبي العباس بن إبراهيم الذي تولى الأمر بعد مقتل

أبيه سنة 190 هـ وقيل أنه الذي دبر قتله ثم قتل من إخوته وعمومته كل من ظن

أنه سينافسه في الملك. وانغمس في الملاهي وأهمل الدولة.<sup>2</sup>

- قوة القبائل الكتامية وإخلاصها للداعي الصنعاني .

- ضعف الدولة الرستمية جراء الفتن بين أبناء البيت الحاكم، فقد قتل الأمير

أبوها تم فاستتجدت بنته بأحد موالي الشيعي ليثأر لها، فقدم إلى تيهرت وطلب

أميرها أبا اليقظان فخرج إليه مع أبنائه وإخوته بلا سلاح، فأمر بقتلهم جميعا.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - ورد في كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب "كان إبراهيم بن أحمد قد بدأ حياته بحسن السيرة... ثم عاد في الحافرة وانقلب إلى ضد ما كان عليه، وفسد فكره لغلبة ميزاج سوداوي... فأسرف في القتل، وأفنى أصحابه وكتابه وحجابه، حتى قتل ابنه المكنى بأبي الأغلب! وقيل إنه افتقد مندبلا صغيرا كان يمسح به فمه من الشراب وقد سقط من يد بعض جواربه وألقاه خادم له فقتل بسببه ثلاثمائة خادم! ولما قتل ابنه أبا الأغلب لظن ظنه به فضربت عنقه بين يديه! وقتل ثمانية إخوة له رجالا ضربت أعناقهم صبورا بين يديه!... ثم قتل بناته! وأتى بما لم يأت به أحد قبله، وكانت أمه إذا وُلدت له ابنة من إحدى جواربه أخفتها وربتها حتى اجتمع عندها منهن ست عشرة جويرية (وحين أعلمته بأنهن بناته أمر سيفا فاضرب أعناقهن جميعا) "أعمال الأعلام ص 29.

<sup>2</sup> - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر، ج 2 ص 108.

<sup>3</sup> - عثمان الكعاك: موجز تاريخ الجزائر، ص 153.



هذه بعض العوامل التي سهلت عملية قيام الدولة الفاطمية بالمغرب العربي في ظرف وجيز.

أما الشعر المغربي فمنذ أواخر القرن الثالث الهجري وتزامنا مع ظهور التيار الشيعي فقد تميز بالوفرة والكثرة، وهذا أمر منطقي تفره السنن الكونية؛ كون الأدب العربي يزداد تمكنا وتألقا كلما تقدمت به السنون والقرون تبعا لتمكن المغاربة من روافده المختلفة.

يمكن تصنيف النصوص الشعرية الشيعية إلى صنفين: صنف يبشر بقيام دولة الشيعة، وصنف نتج عن الظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشها المغرب في ظل الخلافة الفاطمية الشيعية كدولة جل العناصر الفاعلة فيها مغربية.

### أولاً: الشعر المتعلق بالنشأة

الصنف الأول من الشعر الشيعي المتعلق بالنشأة نصوصه معدودة وغير معلومة القائل، الأمر الذي يجعلنا نقف منها موقف طه حسين من بعض الشعر الجاهلي، فنقول - ربما - هي منحولة من قبل الشيعة أو أنصارهم، لأغراض سياسية ودعائية ساهم بقسط كبير في إرباك الخصوم وعجلت إليهم بفكرة اليأس من عدم جدوى الدفاع. وبخاصة في السواد الأعظم من الرعية، إذ إيمانها بنبوءات الكهنة والعرافين متجذر في ثقافتها وفي نفسياتها بل هو جزء من عقيدتها. يتأكد هذا أكثر عندما نقف على أخبار للأمراء ولعوا بتقصي تلك

النبوءات عند العارفين بها أو رواتها. ذكر القاضي النعمان :<sup>1</sup> أن إبراهيم بن أحمد انتهى إليه خبر أحد العارفين بتلك الأخبار فمال زال يطلبه حتى جيء به إليه شيخا فانيا. فمال زال يلاطفه ويلح عليه فقال الشيخ و يدعى (التونسي):<sup>2</sup>

أقول وأسلمت القريض لأهله      وعشت زمانا وهو خير مكاعب  
أمن بعد تسعين سنيناً أعدها      وأربعة من بعد ذلك رواتب  
أزاحم أهل الشعر بالشعر ناجزاً      أبى الله هذا بعد أن جب غاربي  
ولكنني أرجو من الله عفوهُ      بأوبة مأمون السريرة تائب  
وآمل غفراناً بفضل تلاوةٍ      أرددها ليلى بفكرة آيب  
صرقت أموري للذي أنا عبده      إلهي ربّ العرش مُعطي الرغائب  
فلمست حياتي سائلاً غير ذي العلا      وإلاً قحفت من يميني رواجبي  
ألا يا أمين الله وابن أمينه      وعاشر سادات الملوك الأغالب  
وجدت كتاباً قد تقادم عهدهُ      رواية أشياخ كرام المناسب  
رواية وهب عن سطيح ودنيالٍ      مشايخ علم صادق غير كاذب  
تتابع رايات من الشرق سبعةٌ      إلي الغرب سود خافقات الذوائب  
يسير بها خزر العيون تراهم      مباسمهم سيمط طوال الشوارب  
ولاه بني العباس عشرون والياً      تدين لهم بالرغم أرض المغارب  
وفي الست والتسعين تهبط رايةٌ      من العرب في جمع كثيف المواب  
يُمزق أرض البربرية جمعهم      بخيل كأمثال القطا المسارب

<sup>1</sup> - القاضي النعمان: افتتاح الدعوة. ص 62.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه ص 63-66.

وتطلعُ شمسُ الله منْ غربِ أرضه فلا توبةَ تُرجَى هناك لتائب  
 ويظهرُ من أبناءِ فاطمةِ امرؤٌ      تقيُّ نقيِّ العِرضِ جمَّ المواهبِ  
 سَميُّ نبيِّ اللهِ وابنُ صَفِيِّهِ      وأكرمُ مَولودِ وأشرفُ طالِبِ  
 فيملاً أرضَ اللهِ عدلاً ورحمةً      لأيامِ صِدْقِ طَيِّباتِ المَكايبِ  
 وبالأعورِ الدَّجَالِ يَنهَدُ جمْعُهُ      سوى عُصْبَةٍ في بَاذِخِ الطَّودِ رايبِ  
 ويقتلُهُ منْ بعدِ عيسى\* بنِ مريمِ      بقدرِةِ ربِّ ماله منْ مُغالِبِ  
 ومنْ بعدها موتُ ابنِ مريمِ مَقْضِيًّا      إلى اللهِ في حُكْمِ منِ اللهِ واجبِ

القصيدة تضمنت مقدمة عبر فيها الشاعر عن تركه الشعر لأهله من ذوي  
 الفتوة، إذ لا يليق به وقد تجاوز التسعين مزاحمة الشعراء ومناجزتهم، وقد أناب  
 إلى ربه مخلصاً عساه يحظى برحمته. في هذه المقدمة نوع من تخرج الشيخ  
 من إسماع الأمير نبوءة اقتراب نهاية دولته - ربما - اتقاء لشره فقد قال: "إن  
 الملوك إذا استُرجموا قتلوا!"<sup>1</sup>

وبعد المقدمة جاءت النبوءة المستمدة من كتب المنجمين ذوي الشهرة، من  
 أمثال وهب الصنعاني (ت 114 هـ) صاحب الإسرائيليات في التفسير والحديث.  
 وسطيح بن ربيعة كاهن معروف في الجاهلية. ومفادها موجزا أن نهاية الأغلبة  
 ، ولاة العباسيين في المغرب قد أزفت نهايتهم التي ستكون في 296 هـ . موعد  
 طلوع شمس الله من الغرب، والمقصود بالشمس هنا هو عبيد الله المهدي. رمز

<sup>1</sup> - لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام ص 32.

الحق والهداية. وقد كان قدومه من الغرب، (سجلماسة). ثم بينت أن هذا الطالع من أبناء فاطمة، من أبناء الموصى له بالخلافة، وهو علي كرم الله وجهه - وسيملاً الأرض عدلاً وخيراً، وسيقتل الثائر الخارجي مخلد بن كداد أبو يزيد صاحب الحمار، وابن مريم هو المنصور الخليفة الفاطمي الثالث.<sup>1</sup>

القصيدة قرئت على إبراهيم بن أحمد السفاك بعد توبته وزهده. وصدقت النبوءة فقد انتهت دولة الأغالبة بعد ثماني سنوات، فقد مات السفاك سنة 289 هـ ولم يتول الإمارة بعده إلا أبو العباس عبد الله وبعد مقتله تولاها ابنه زيادة الله الذي فر من أبي عبد الله الشيعي إلى المشرق سنة 297 هـ.

وهذه نبوءة أخرى لشاعر يدعى ابن عقبة أكثر تعبيراً عن تشوق الناس إلى ظهور المهدي، وانزياح ليل الأغالبة الذي طال فأذى وأنهك. وهي أكثر صدقا والروح الشعرية فيها أوفر. الأبيات:<sup>2</sup>

قد قلتُ لمَّا طار عني الكرى      حتى متى ذا الليل لا يُصبحُ  
عَدْبني الحزنُ وفقدُ الكرى      كلاهما أفسَمَ لا يَبْرَحُ  
وكيف لا يحزنُ من لا يرى      بأئه يَبْلُغُ يا مَسْطَحُ  
دهراً يرى فيه إمامَ الهدى      باللهِ بالمغرب يُسْتَفْتَحُ  
ويَبْتَنِي البيضاءَ في لُجَّة      خضراءَ فيها نُؤنُّها يَسْبَحُ  
ينجو من الأهوالِ سكائِها      والأرضُ منها كُلُّها تُفْتَحُ  
لو مُدَّ من عُمري إلى عُمُرِه      لكنْتُ في القرنِ الذي يَفْلُحُ

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط 1986/1 ص 16. هامش.  
<sup>2</sup> - ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 67.

هيهاتَ ماذا العُمُرُ مِمَّا أَرَى      فيما أَرَى الموتَ به يَسْمُحُ

نعم وكيف لا يحزن من رأى أن عمره لا يبلغه زمن الفلاح المشروط  
بمبعث المهدي. إنه التعبير عن ضجر الرعية من طول ليلها. وهذا أحد أسباب  
تمكن الشيعة من المنطقة في ظرف وجيز. يبدو على هذا الشعر أثر الشيخوخة  
سواء من حيث الأسلوب أو من حيث قوة التخيل " وبيتتي الخضراء في لجة " .

نبوءة أخرى تنسب إلى نفس الشاعر، الشاعر الشيخ ، وقد سماه  
اليعلاوي:(ابن عقبة) تحدد الزمان والمكان اللذين سيحتضنان الدعوة بدقة.  
كما تضمنت مواصفات الداعية. وبأسلوب فيه من الصرامة ما يوحي بقرب  
حينه. قد يكون هذا النوع من الشعر منحولا وضع من قبل دعاة الشيعة كنوع من  
الحرب النفسية، لإرباك أصحاب الإمارات القائمة وحلفائهم من ناحية، ورفع  
معنويات أنصارهم واستقطاب المزيد من الأنصار من ناحية أخرى.

الأبيات: <sup>1</sup>

استمعُ الحقَّ ودعْ عنكَ اللَّعب      وهَاكَ قَوْلًا صَادِقًا غَيْرَ كَذِبُ  
إِذَا أَرَى الكوكبُ طَوِيلَ الذنْبُ      فَذَاكَ حَدَثٌ ظَاهِرٌ قَدْ اقْتَرَبُ  
فِي السّتِ وَالتّسعِينِ يَأْتِيكَ العَجَبُ      بَعْدَ كَمَالِ المائتينِ مِنْ رَجَبُ  
مَنْ جِجَلٌ يَنْقُضُ جَيْشُ ذُو لَجَبُ      أَمْضَى مِنَ الجمرِ إِذَا الجَمْرُ التّهَبُ

<sup>1</sup> - القاضي النعمان : افتتاح الدعوة، ص68.

من بربر يسعون في كل حدبٍ      ركباً رجلاً ما يملون التعبُ  
 قد ملأوا المشرقَ خوفاً ورهباً      وأنزلوا بالعربُ ذلاً ونصباً  
 تسعون ألفاً بين رأسٍ ودنْبٍ      سيماهم الحقدُ وإظهارُ العصبِ  
 وفيهم خلطُ قريشٍ وعربُ      بكل سيفٍ قاطعٍ إذا ضربُ  
 حتى إذا جازوا صعوداً وصببُ      في كل جيشٍ رايةً من العصبِ  
 يُغرزها الراكبُ في عُود الركبِ      يقودُهُم كهلاً عليهم بالكُتبِ  
 يأوي إلى الحزمِ إذا الخطبُ اضطربُ      ويأخذُ الأمرَ البعيدَ عن كُتبِ  
 تنقلبُ الدولةُ فيما تنقلبُ      مهديةً في نصِّ أسفار الكُتبِ

### عن دانيالٍ وسطيحٍ في العربِ

اعتمدت هذه القصيدة أسلوباً جزلاً، يشبه إلى حد كبير أساليب الشعراء القادة  
 المتلذذين بمشاهدة رايات النصر خفاقة. فقد تضمنت تاريخ استحكام الدعوة  
 الشيعية من المنطقة، رجب 296 هـ وكذا ذكر جيجل، مقر الدعوة في قلب بربر  
 كتامة وكل الحاقدين على الأغلبية من أمثال البلزميين<sup>1</sup>. كما ذكر الشاعر عدد  
 ذلك الجيش تسعون ألفاً، وهو العدد الذي خاض به أبو عبد الله معركة الأربس<sup>2</sup>.  
 ثم ذكر الشاعر حنكة القائد وعلمه وحزمه. كل هذه الحقائق تبين مما لا يدع

<sup>1</sup> - ذكر القاضي النعمان: أن إبراهيم بن أحمد حبس رجلاً يقال له كريم بن زرزور من أهل باغاي فهرب من حبسه، ولجأ  
 إلى أهل بلزمة مستجيراً فأجاروه، فلما طلبه منهم منعه، فخرج إليهم بنفسه في عسكر، فلم يستطعهم. فانصرف مظهره  
 الصبح إلى أن أتاه قوم منهم فأحسن إليهم وأجزل لهم، وولاهم الولايات، فتساربت إليه القوم فجعل يحسن إليهم. وأنزلهم  
 برقادة قرب فندق البلزميين في مكان محاط بسور، فلما بلغ عددهم الألف و توقف توافدهم. باغتهم ليلاً بالعبيد فما أبقى منهم  
 أحداً. القاضي النعمان. افتتاح الدعوة ص 70.  
<sup>2</sup> - الأربس: شمال غرب القيروان شهدت أعظم معركة بين عبد الله الشيعي وبين زيادة الله 296 هـ إثرها انتهى حكم الأغلبية.

مجالاً للشك أن القصيدة وصف لما حدث ويحدث في المنطقة. صحيح هناك علم التنجيم، وهناك منجمون، وهناك ما يسمى بالحدس أو قراءة ما سيكون انطلاقاً من معطيات معينة. تحدث عن ذلك كثير من العلماء ومنهم ابن خلدون في مقدمته<sup>1</sup>. لكن ما ينبئ به المنجمون وغيرهم من أهل العلم والخبرة لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون بمثل هذه المطابقة التي تضمنتها القصيدة.

هذا عن شعر الصنف الأول والذي يمكن تسميته بشعر النبوءات، والمبشر بقيام الدولة الفاطمية. وقد جاء من حيث الجوانب الفنية متفاوتاً من نص إلى نص. مرتكزه الأساسي الفكرة، لذلك فهو يلتقي مع أصناف الشعر الموضوعي الأخرى في التقريرية والوضوح ومحدودية الخيال وفتور العاطفة ورتابتها إلا في بعض المقاطع التي يكون تفاعل الشاعر معها كبيراً.

ذكر محمد اليعلاوي من تلك النماذج في كتابه "الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي" ستة نماذج منها نص لمحمد بن رمضان يذكر حادثة الغدر بالفرسان الألف من البلزميين:<sup>2</sup>

جَلَّ المصابُ لئن كان الذي ذكروا      مما أتننا به الأنبياء والخبرُ  
عن ألف أروع كالأسادِ قد قتلوا      بساعةٍ في سواد الليل إذ غدروا

<sup>1</sup> - قال ابن خلدون: "ثم أنا نجد في النوع الإنساني أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس... وذلك مثل العرافين والناظرين في الجسم الشفافة كالمرايا وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها، وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى، وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع

أحداً جدها ولا إنكارها." المقدمة. الدار التونسية للنشر 1984. ج 1 ص 147.  
<sup>2</sup> - محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ص 23.

لو كان مَنْ بَيَّتَ الآسَادَ أَيْظَهُمْ      حَلَّتْ بِهِ مِنْهُمُ الْأَحْدَاثُ وَالْغَيْرُ  
هذه الأبيات تعبير عن تذرر الناس من سياسة الغدر والقمع التي انتهجها  
الأغالبة في حق الرعية. مما جعلها أي الرعية تنتظر تحقق تلك النبوءات بشغف  
كبير.

### ثانياً: الشعر المواكب للدولة

الصنف الثاني من الشعر الشيعي هو المتمخض عن واقع وأحداث الدولة  
الفاطمية ، ويتمثل في الأغراض والموضوعات التالية :

#### أولاً: المدح:

إن شعر المديح في العهد الفاطمي وبخاصة الذي قيل في الخلفاء  
الفاطميين يمكن تصنيفه إلى صنفين؛ صنف جاء بجانب الغلو فيما تضمنه من  
المعاني، وجل هذا الصنف قيل من قبل شعراء لم يعتنقوا العقيدة الشيعية ، أو  
أنهم اعتنقوها ولما يدركوا بعد أبعادها. والصنف الثاني تميز بالمبالغة والغلو في  
مدح أولئك الخلفاء، غلو وصل بالبعض منهم إلى حد الكفر. وشعراء هذا الصنف  
شيعية خُلُص، أو أنهم ذهبوا ذلك المذهب إرضاء لأهواء ممدوحهم.

من الصنف الأول، المتميز بالاعتدال، قصيدة سعدون الوريثيني، أول  
شاعر مدح عبيد الله المهدي عقب وصوله إلى رقادة، أول مقر للدولة الفاطمية  
بالمغرب. قال القاضي النعمان: " وكان أول من مدحه منهم ، وأنشده من شعراء



إفريقية سعدون الورجيني، وكان شاعرا يمدح بني الأغلب ويلى أعمالهم ، وكان

قد أسر ببلد الروم وفدي، واستؤذن له في الدخول عليه وأنشده<sup>1</sup>:

قف بالمطيّ على مرابع دُورٍ      لبست معالمهنّ ثوبَ دُورٍ  
لعبت بها حتى محت آثارها      ريحان: ريحُ صبا وريح دُورٍ  
وسفيهة هبت تصدُّ عن النَّوى      ويدُ النوى ملكتُ عنانَ مسيري  
خافتُ عليّ من الخطوب لأتني      من قبلُ غبتُ فأبتُ بعد دُهورٍ  
ثم اجتمعنا بعد ذلك فيآلها      مأسورة جُمعتُ على مأسور!

\* \* \*

أعن ابن فاطمة تصدين امرؤا      بنتِ النبي وعِثرةَ النّطهير؟  
كفيّ عن التّثبيطِ إني زائرٌ      من أهل بيتِ الوحي خيرَ مزورٍ  
هذا أمير المؤمنين تضعّعتُ      لقدمه أركانُ كلِّ أميرٍ  
هذا الإمامُ الفاطميّ ومن به      أمّنتُ مغاربها من المَحذورِ  
والشرقُ ليسَ لِشامِهِ وعِراقِهِ      من مَهْرَبٍ من جيشه المنصُورِ  
حتىّ يفوزَ من الخلافةِ بالمُنَى      ويفازَ منهُ بعدلِهِ المنشورِ

\* \* \*

يا مَنْ تخيّرَ من خيارِ دُعائه      أرجاهمُ للعُسرِ والميسورِ  
حتىّ استمالَ إليه كلُّ قبيلةٍ      ورمى إليه قيادَ كلِّ عثورِ

<sup>1</sup> - القاضي عياض افتتاح الدعوة. ص 300-302

أشْبَهْتَ موسى وَهُوَ حَيْثُكَ التي تُتَلَقَى فتَتَقَفُ كُلَّ إِفْكِ سَحُور

ذكر القاضي النعمان أن المهدي تفاعل مع هذه القصيدة تفاعلا كبيرا، حيث ذكر أنه استعبر وتلقى دموعه بكمه عند نهاية المقطع الأول من القصيدة، والمتضمن صورة عن محاولة زوجة الشاعر ثنيه عن الخروج لاستقبال عبيد الله المهدي، خوفا عليه من الوقوع في مثل ما وقع فيه من قبل، فقد أسر من قبل الروم، وما عاد إلا بعد لأي ومعاناة، كانت الزوجة فيها طرفا. فتوقف الشاعر عن الإنشاد لما لاحظته من استعباره. فأوما إليه المهدي: أن واصل. فاستأنف الشاعر إنشاده، فلما وصل إلى قوله:

كُفِّي عن التَّنْبِيْطِ إِيَّيْ زَائِرٌ مَنْ أَهْلَ بَيْتِ الوَحْيِ خَيْرَ مَزُور

قال أبو عبد الله - وكان قائما بين يدي المهدي - : صدقت ! هو أفضل العالمين !  
فقبل سعدون الأرض بين يدي المهدي. ولما وصل إلى البيت المعبر عن تفاؤل الشاعر في أن يفتح الله عليه المشرق كما فتح له المغرب قال المهدي :

" ما شاء الله ! " <sup>1</sup>

ولم يغفل الشاعر في قصيدته مدح أبي عبد الله الشيعي بطريقة ذكية، حيث جاء مدح هذا مدحا للمهدي، من حيث نفاذ البصيرة في انتداب أبي عبد الله الذي شبه عبقريته في التخطيط والتنفيذ والتمكن من قلوب الناس بالسحر، الذي يشبه سحر عصا موسى

<sup>1</sup> - القاضي النعمان: افتتاح الدعوة، ص302.

في التمكن من قلوب الناس وسرعة قهر الأعداء. عند ذلك قبّل أبو عبد الله الداعية الأرض وقال للشاعر : أنا دون ذلك ! بُعد ما بين السماء والأرض !

لقد كانت قصيدة سعدون الورجيني هذه رائعة، في معانيها وصورها وفي موسيقاها الداخلية والخارجية(بحر الكامل). الأمر الذي جعل عبيد الله المهدي وهو الآخر شاعر يتفاعل معها لدرجة الاستعبار أي البكاء، مما يدل على خبرة الشاعر في اقتناص المعاني والصور التي تنفذ إلى قلب الممدوح فتأخذ بمجامعه. و في خضم الإعجاب والتقدير يأمر له بصلة جزيلة وبأن يجرى له مثلها كل عام. كما وصله أبو عبد الله. كل ذلك تقديرا لشاعرية الورجيني وتأسيسا لسنة بعث الشعر الأصيل.

لقد جاءت معاني هذه القصيدة معتدلة بريئة من الغلو، مثلها مثل المديح السني ، كما برئت كذلك من كل ما يسيء إلى العقيدة، باستثناء تشبيه المهدي بالنبي موسى - عليه السلام - والداعية أبي عبد الله بالحية المنقلبة عن عصا موسى فالتهمت كل سحر وإفك ،حاول به السحرة إبطال معجزة موسى - عليه السلام - إرضاء لكبرياء فرعون الطاغية. وهذا من باب المبالغة التي لا حرج فيها بل هي أساس الشعر وركنه.

أما النوع الثاني من المدح فهو الموسوم بالغلو المؤدي إلى الشرك - في بعض الأحيان - عن قصد أو عن غير قصد. إيماننا بذلك من قبل الشاعر إن كان معتقدا عقيدة الشيعة الغالية، أو إرضاء لنزعة الغلو وسوء الاعتقاد عند بعض أئمة الشيعة. من ذلك هذه الأبيات التي تنسب إلى الشاعر محمد البديل ، كما نسبت إلى ابن

هانئ، في حين يرى محمد اليعلاوي أنها ملفقة لتأليب الناس على الفاطميين، فهي وإن كانت شائعة فقائلها غير معروف<sup>1</sup>. ورأي اليعلاوي هذا على جانب كبير من الصحة، كون زمن حلول المهدي برقادة لا يسمح بإظهار مثل هذا الاعتقاد الفاسد.

إذ الأبيات قيلت في مدح عبيد الله المهدي أول قدومه إلى رقادة. الأبيات: <sup>2</sup>

حَلَّ بِرَقَادَةَ الْمَسِيحُ ، حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوْحُ

حَلَّ بِهَا أَحْمَدُ الْمَصْطَفَى ، حَلَّ بِهَا الْكَبِشُ وَالذَّبِيْحُ

حَلَّ بِهَا اللهُ ذُو الْمَعَالِي ، وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ رِيْحُ

بغض النظر عن المحتوى السخيف لهذه الأبيات، أرى أنها موضوعة من قبل شخص لا يمت بصلة إلى الشعر، لخلوها من أي ملمح من ملامح الشعر، وطغت عليها الركاكة والتكرار وعدم التجانس. لذلك فوصف اليعلاوي لها بالملفقة في محله وعدها من باب ما يدعو إلى العجب، ورواية مثل هذا أعجب، حتى وإن كان من باب التفكه والتندر. لأن التندر بمثل هذا يرفضه الذوق السليم، بغض النظر عن العقيدة والمذهب. ناهيك عن الإباء المجبول عليه الأسوياء من البشر.

لعل البحث عن الشعر الموسوم بالخلو يسوقنا إلى محمد بن هانئ، متنبى

المغرب كما قال عنه ابن خلكان: " هو أشعر شعراء المغرب على الإطلاق من

المتقدمين والمتأخرين ولأجل ذلك يقال عنه متنبى المغرب." <sup>3</sup>

فقد مدح بعض الخلفاء الفاطميين وأمرائهم، فأجاد وأحسن غير أنه غالى في بعض

ذلك ففتح على نفسه باب القيل فأفاض فيه حساده. قال عنه صاحب الجذوة :

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي. الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي. ص 34.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه. ص 34.

<sup>3</sup> - د. زاهد علي: تبیین المعاني في شرح ديوان ابن هاني مطبعة المعارف بمصر 1352 هـ ص 19.

" شهر شعره في الغربية وصحب المعز أبا تميم معد بن إسماعيل صاحب المغرب  
قبل وصوله إلى مصر، ومدحه غالى باستيـجاز \* أو صاف أنكرت واستعظمت،

وهو كثير الشعر محسن ومجود، إلا أن قعقة الألفاظ أغلب على شعره." <sup>1</sup>

أثبت له هذين البيتين في مدح جعفر بن حمدون أمير المسيلة: <sup>3</sup>

المُدَنَّفان من البرية كلها جسمي وطرفُ بابليٍّ أحورُ

والمشركاتُ النيراتُ ثلاثةُ الشمسُ والبدرُ المنيرُ وجعفرُ

قال يمدح الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (314-365 هـ/ 953-975 م).

القصيدة من الطوال عدد أبياتها تسعة وتسعون بيتاً، ذكرت منها ما يمكن أن يدل  
على أبرز سمات ابن هانئ، شاعر المغرب والأندلس، ارتبط اسمه بالفاطميين في  
المغرب. والملاحظ أن هذه القصيدة أغفلها محمد اليعلاوي فيما أورده للشاعر من  
قصائد في كتابه الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، رغم أهميتها وروعيتها فهي  
أولى قصائد الديوان الذي شرحه زاهد علي تحت عنوان: "تبيين المعاني في شرح  
ديوان ابن هانئ الأندلسي المغربي".

وما رتبة القصيدة إلا دليل أهميتها وروعيتها. مطلع القصيدة: <sup>2</sup>

الحبُّ حيثُ المَعَشَرُ الأعداءُ والصَّبْرُ حيثُ الكِلَّةُ السِّيراءُ

ما للمهارى الناجياتِ كأنها حَتَمٌ عليها البينُ والعُدوَاءُ

<sup>1</sup> 3- الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر جنوة المقتبس. الدار المصرية للتأليف والترجمة. 1966 ص 96.  
\* ذكر شارح الديوان أن العبارة في البغية: "بأوصاف استجازها" أما العبارة المثبتة فالأصوب باستجازة.  
<sup>2</sup> د. زاهد علي. تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ. مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر. 1352 هـ. ص 1-36.

يقول في مدح المعز بعد مقدمة غزلية مراعاة لنمط قصيدة المديح، وقد

كانت جميلة طويلة (ستة وعشرون بيتاً) طولاً تناسب مع حجم القصيدة<sup>1</sup>:

- 27- وطِفقتُ أسألُ عن أغرٍ محجَّلٍ      فإذا الأنامُ جبَّلةٌ دَهَمَاءُ  
28- حتى دُفِعتُ إلى المعزِ خليفةً      فعلمتُ أنَّ المطلبَ الخلفاءُ  
29- جودٌ كأنَّ اليمِّ فيه نُفائِثَةٌ      وكأنَّما الدنيا عليه عُثَاءُ  
30- ملكٌ إذا نطقتُ علاهُ بمدحه      خرسَ الوفودُ وأفجمَ الخطباءُ  
31 - هو عِلَّةُ الدنيا ومن خُلقتُ له      ولعلةٌ ما كانت الأشياءُ  
32- من صَفوماءِ الوحيِّ وهو مُجاجةٌ      من حوضِهِ الينبوعُ وهو شفاءُ  
33- من أَيْكةِ الفردوسِ حيثُ تفتَّتْ      ثمراتها وتَفِيًّا الأفياءُ  
34- من شُعلةِ القبسِ التي عُرِضتْ على      موسى وقد حارتْ به الظلماءُ  
35- من معدنِ التقديسِ وهو سِلالةُ      من جَوْهرِ الملكوتِ وهو ضياءُ  
36- من حيثُ يُقتبسُ النهارُ لمبصرٍ      وتُشَقُّ عن مكنونها الأنبياءُ  
37- فتيقظوا من غفلةٍ وتنبَّهوا      ما بالصباحِ عن العيونِ خفاءُ  
38- ليست سماءُ الله ما تَرَأوتُها      لكنَّ أرضاً تحتويه سماءُ  
39- أما كواكبُها له فخواضعُ      تخفي السجودَ ويظهرُ الإيماءُ  
40- والشمسُ ترجعُ عن سناه جفونها      فكأنها مطرُوفَةٌ مرَّهًا  
41 - هذا الشفيعُ لأمةٍ يأتي بها      وجُدوده لجدودها شفعا

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص14

- 44 - هذا الأغرُّ الأزهرُ المتألقُ المتدققُ المتبلجُ الوضاء
- 45- فعليه من سيمًا النبي دلاله وعليه من نور الإله بهاء
- 63- نزلت ملائكة السماء بنصره وأطاعه الإصباح والإمساء
- 64- والفلكُ والفلكُ المُدارُ وسَعْدُه والعَزْوُ في الداماءِ والدَّامَاءُ
- 65- والدهرُ والأيامُ في تصريفها والناسِ والخضراءِ والغبراءِ
- 67- ولكِ الجوارِي المنشآتُ مواخرا تجري بأمرِك والرياحُ رُخاء
- 84 - قد جالت الأوهامُ فيك فدقت الأُفكارُ عنك فجالت الآلاءُ
- 85- فعنت لك الأبصارُ وانقادت لك الأقدارُ واستحيت لك الأنواءُ
- 86- وتجمعت فيك القلوبُ على الرضى وتشيعت في حُبِك الأهواءُ
- 91- فاسلمُ إذا رابَ البريةُ حادثٌ وأخذُ إذا عمَّ النفوسَ فناء
- 92 - يفديك شهرُ صيامنا وقيامنا ثم الشهورُ لهُ بذاك فِداء
- 96 - حسبي بمدحك فيه نُخرًا إنه للسنك عند الناسكين كِفاء
- 97- هيهاتَ ما شكرُ ما تُولي ولو شكرتكَ قبلَ الألسنِ الأعضاء
- 98- واللهُ في عليكِ أصدقُ قائلٍ فكأنَّ قولَ القائلين هُذاء
- 99- لا تسألنَّ عن الزمانِ فإِنَّه في راحتِكِ يدورُ كيفَ تشاء

أوردت أرقام الأبيات كما جاءت في الديوان لغرض تبين موقع البيت من القصيدة لتمكين قارئ القصيدة من تعليل ما قد يترتب عن ذلك من خلل في نسق القصيدة . ولأجل الحفاظ على شيء من ذلك النسق أوردت هذا الكم من

الأبيات التي تساعد على تصور الفكرة أو الصورة رغم مما في بعضها من توافق أو إلحاح على المعنى من قبل الشاعر لأسباب متعددة ، وربما ننطلق منها لإثبات ميزة الإلحاح على المعنى واستغراقه من أغلب وجوهه.

القصيدة مثقلة بكثير من اعتقادات الشيعة الفاطميين في إمامهم خاصة من ذلك:

- اعتقادهم أن الإمام هو أكمل خلق الله تعالى، جسدا وروحا، وهو جامع الفضائل منزه كل عيب أو نقص. هذا الاعتقاد تشخصه الأبيات: من 27 إلى 30 حيث غالى في التهويل من عملية البحث في الناس عن الجامع لكل المثل العليا، وما اهتدى إلى المعز إلا بعد لأي. حينها أدرك أن ذلك لا يكون إلا في الخلفاء.

لذلك غالى وأسرف في تشخيصه لما احتواه المعز من تلك القيم، الأمر الذي أوقعه في المحذور دينيا وفي اللامعقول منطقيا وفي الغلو المقيت بلاغيا.

- الشيعة يعتقدون أن الإمام سبب وجود المخلوقات في الدنيا، كما أن الجسم خلق للنفس فالعالم بأسره شخص روحه الإمام. عبر عن ذلك البيت 31 " هو علة الدنيا... " وهذا اعتقاد مستغرب يسم الشاعر بنوع من المروق عن المتعارف عليه في مدح الملوك والأمراء والأجواد.

- اعتقاد آخر في الخليفة تضمنته هذه القصيدة، وهو مخالف لمعتقد جماعة السنة، هو أن الإمام مظهر الله ونوره في هذا الكون. عبرت عن ذلك الأبيات من 32 إلى 36 فهو من صفو ماء الوحي، ومن أيقة الفردوس، ومن شعلة القبس، ومن معدن



التقديس، ومن حيث يقتبس النهار. فهو جوهر مستخرج من عالم القدس الذي هو نور كله.

- معتقد شيعي آخر في أئمتهم، هو أن صفاتهم من كمال وعصمة وشفاعة موروثة عن النبي صلى الله عليه وسلم فهم يشاركونه في كل الصفات عد في الرسالة يشير إلى ذلك البيتان 44 و45 .

ولعل آخر اعتقاد تضمنته الأبيات هو اعتقاد الشيعة أن معرفة الإمام من قبل أتباعه من المعارف الدينية الواجبة والتي يثاب عليها ، بل هي شرط قبول بقية العبادات الأخرى من صلاة وصيام وزكاة. تشير إلى ذلك الأبيات الأخيرة من 96 إلى 99.<sup>(1)</sup>

ومهما تكن العقيدة المتبناة من قبل الشاعر فالإفراط في الرفع من قدر نسب الممدوح، من معدن التقديس، من جوهر الملكوت. تبقى أسقطت ابن هانئ في درك المحضور مهما كانت التفسيرات والتأويلات والتخرجات البلاغية والفلسفية المجيزة لها ، حتى ولو تعلق الأمر بمدح نبي أو رسول فإن هذه المعاني مخصصة بذات الله جل جلاله.

كما أفرط في تصوير علو قدر ممدوحه، حين اعتبر الأرض التي تحمله ويَدْرُجُ فوقها سماءً بل أسمى من سماء الله التي جعلها سقفا لكوكبنا الأرضي. وإفراط آخر تمثل في سجود الكواكب له أو إيمانها بذلك تعظيما له وإكبارا. علما أن

<sup>1</sup> - عقائد الشيعة الإسماعيلية مستخلصة من مقدمة كتاب تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ لزاهد علي بتصريف أما تحديد الأبيات المناسبة لتلك العقائد فتم انطلاقا من معاني الأبيات .

ذلك لا يقع منها إلا لله عز وجل. من غلو الشاعر وإفراطه في تصويره لسلطة الخليفة أن جعل الكون بظواهره وما فيه، من ناس، وأرض وهواء خاضعا له يعمل وفق أمره و مراده.

وعلى كل فإن هذا الإفراط الملامس للمحضور من الوجهة الدينية ، وبالذات من وجهة نظر أصحاب المذهب السني لا يلغي تألق ابن هانئ و سموقه في سماء الشعر العربي عامة والمغربي خاصة، كما لا يلغي أشعاره المتضمنة لهذا الغلو، بل هي على جانب من الأهمية، لأنها تمثل غلو الشيعة في إضفاء الصفات القدسية على أئمتهم بل وتألّيهم من قبل كثير من فرقهم المغالية، والتي من بينها الإسماعيلية<sup>1</sup> والسبئية التي أحرق بعضها مما جعل أحد الشعراء يقول: " <sup>2</sup>

لترم بي الحوادث حيث شاءت إذا لم ترم بي في الحفرتين

<sup>1</sup> - "الإسماعيلية هم الشيعة الذين أوقفوا سلسلة الأئمة عند إسماعيل بن جعفر الصادق، ويصفون أنفسهم بأنهم أهل توحيد، دفاعا عن أنفسهم ضد الطعون التي توجهها إليهم الفرق الإسلامية الأخرى بأنهم أهل شرك." د. عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص66.  
<sup>2</sup> - عبد القاهر البغدادي. الفرق بين الفرق. ص 181.

## ثانيا : الحماسة والفخر

### أ- الحماسة:

الحماسة غرض عتيق في الشعر العربي مطروق من قبل الشعراء الفرسان،

تعلق به النفس وتنشط له، فهو مدرسة لتخريج الأبطال، وقد صنفت فيه كتب

عديدة، مثل حماسة أبي تمام، وحماسة البحتري، والحماسة المغربية. وطبيعي أن

ينظم الشعراء الشيعة في الحماسة ل، لأن دولتهم قامت على أساس القوة وقهر

الخصوم .

يقول أبو عبد الله الشيعي<sup>1</sup> (ت 298هـ):<sup>2</sup>

من كان مُغْتَبِطاً بِلينِ حَسِيَّةٍ فَحَسَيْتِي وَأَرِيكَتِي سَرَجِي

من كان يُعْجَبُهُ وَيُبْهَجُهُ نَقْرُ الدُّفُوفِ وَرَنَّةُ الصَّنَجِ

فأنا الذي لا شيءَ يُعْجِبُنِي إِلَّا اقْتِحَامِي لُجَّةِ الرِّهْجِ\*

سَلُّ عَنْ جُبُوشِي إِذْ طَلَعْتُ بِهَا يَوْمَ الخَمِيسِ ضُحَىً مِنَ النَفْجِ\*

الأبيات أنشودة ، يهون بها الشاعر ما يلقي في سبيل المجد من مشاق إذ شغفه

بحب المجد صده عن كل اللذائذ التي يخلد إليها الكثير ؛ من أفرشة وثيرة وأرائك

<sup>1</sup> - هو الحسين بن زكريا، كان - مع قوده الجيوش وخوضه الحروب - عالما أديبا شاعرا، وهو الذي حارب جيش زيادة الله بن الأغلب وهزمه نائبا عن عبيد الله المهدي زحف إلى القيروان فدخلها واستولى على رقادة، دار ملك الأغلبية وهو الذي فك أسر عبيد الله من سجلماسة وقتل أسره اليسع بن مدرار ، وقدم بالمهدي إلى إفريقية بعد أن أسس له ملكا ودولة فبويغ أميرا للمؤمنين. قتل مع أخيه الأكبر أبي العباس من قبل عروبة بن يوسف الملوسي الكتامي بإذن من عبيد الله المهدي سنة 298هـ لو شاية حبكها قاتلها. الذي لم يلبث أن قتله المهدي هو الآخر. الحلة السبراء ص 195.

<sup>2</sup> - ابن الأبار. الحلة السبراء ص 195.

\*الرهج : هو غبار الحرب . ويرى الوهج

\*الفج هو فج زيدان المطل على طينة، حسب البكري، وإن يك كذلك فهو الممر الرئيسي بين منطقة بلزمة ونقاوس إلى طينة جنوب غرب. وقد فتحت طينة سنة 295 هـ .

فخمة وسماع الألحان وما إلى ذلك من مظاهر الترف والنعيم . لقد غدت لذة  
الشاعر ماثلة في الركوب واقتحام وهج الوغى بجيوش لا تكل و لا تمل.  
إن التلذذ بالركوب وخوض الوغى أصيل في الشعر العربي ، ولعل مذهب  
الشاعر هذا يذكرنا بثلاثة الثلاث التي هي سر التشبث بالحياة عند طرفة بين  
العبد، الشاعر الجاهلي أحد أصحاب المعلقات، فقد قال :<sup>1</sup>

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى      وجدك لم أحفل متى قام عودي  
فمنهن سبق العاذلات بشربة      كميت متى ما تعل بالماء تزبد  
وكري إذا نادى المضاف محنبا      كسيد الغضى نبهته المتورد\*

فا لتلذذ بالموقف البطولي هو الجامع بين أبي عبد الله الشيعي وبين طرفة، فهذا  
يتلذذ بدلف الجيوش إلى المعارك لقهر الأعداء. وذاك يلتذ بكر جواده إنجازا  
للمهموم المستغيث من غلبة الرجال وقهرهم. فالتباهي بالشجاعة والنجدة ثقافة  
موروثة مشتركة بين كل أبناء الأمة العربية والإسلامية. بل بين كل الأحرار من  
بني البشر.

## ب - الفخر:

الفخر قريب من الحماسة في نغمه وإيقاعه وجزالته، فهو أيضا نشيد المعجبين  
بأصولهم وأمجادهم ونبل أخلاقهم. هو أيضا مدرسة لتعليم الناشئة النبل

<sup>1</sup> - الخطيب التبريزي .شرح القصائد العشر .تح .فخر الدين قباوه.دار الآفاق الجديدة بيروت. ط 3/1399هـ  
1979م.ص133-134.

\*كري :عطي .و المضاف : الذي أضافته الهموم وأحاطته . و المحنّب : فرس ألقى الذراع معروف بالسرعة . والسيد  
الذئب . والغضى : شجر ذئابه أخبث الذئاب . نبهته : هيجه . و المتورد : الذي يطلب ورود الماء .

والحفاظ على كرم الأصل وصفاء الأخلاق. وفي الشعر العربي نماذج تهز

النفوس إلى الخلق الكريم هذا من ذلك قول لبيد: <sup>1</sup>

إنّا إذا التقتِ المِجامعُ لم يزلْ      منّا لِرِازٍ عَظِيمَةٍ جِشَامُهَا

وَمُقَسَّمٌ يُعْطِي العَشيْرَةَ حَقَّهَا      وَمُعْذِمِرٌ لِحَقْوِقِهَا هَضَامُهَا

فَضلاً وَذو كَرَمٍ يَعيْنُ على الندى سَمْحٌ كَسُوبِ رَغَائِبِ غَنَامُهَا

مِنْ مَعَشِرٍ سَنَّتْ لَهُم أبَاؤُهُمْ      وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

فمن ذا الذي لا يطمح أن يكون مثل هؤلاء في أخلاقهم؛ شجاعة وإباء وعدلا

وسماحة. ذكر ابن رشيق أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى أبي

موسى الأشعري: " مر من قبلك بتعلم الشعر؛ فإنه يدل على معالي الأخلاق،

وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب." <sup>2</sup>

من هذا الجانب يجب أن ينظر إلى شعر الفخر الذي يعد سجلا للسجايا

الحميدة والقيم الإنسانية العليا، المتسمة بالثبات والاطراد في معظمها عبر مختلف

العصر. فهل مفاخر الشيعة الفاطميين في المغرب كذلك أم أنها مفارقة لهذا

المطرده؟ سنتبين ذلك من خلال نموذج أو نموذجين.

يقول القائم بن عبيد الله المهدي يفتخر بميله الفطري إلى المغامرة وحب

الفروسية:

من كان يَرْضَى بِحِصْنٍ يَسْتَجِيرُ بِهِ      وَقَلْعَةٍ ذَاتِ أَجْرَاسٍ وَأَحْرَاسٍ

<sup>1</sup> - الخطيب التبريزي: المرجع السابق. ص 256.

<sup>2</sup> - ابن رشيق: العمدة ج 1 ص 28.

فإنني رجلٌ لم ترضِ هِمَّتُهُ      إلا ببيضٍ وأرماجٍ وأفراس  
 مُسَوِّماتٍ جعلناها معاقِلنا      دُونَ المعاقِلِ فِي الضَّرَاءِ وَالْبَاسِ  
 تَرَى الْغَبَارَ عَلَيْهَا فِي سَنَابِكِهَا      مِثْلَ الدَّرِيرَةِ فَوْقَ النَّحْرِ وَالرَّأْسِ  
 وَقَائِلٍ لِي وَالسَّيْفُ فِي يَدِهِ:      لَا تَقْعُدَنَّ قَعُودَ الطَّاعِمِ الْكَاسِي  
 لَعَزَّ يَوْمٍ، وَمَاتَى الْمَوْتِ فِي غَدِهِ      خَيْرٌ مِنَ الْعَيْشِ فِي ذُلٍّ وَأُنْكَاسِ

إلى جانب هذا التّعني بالبطولة من قبل الخلفاء الفاطميين. هناك جانب التفاخر بالنسب المنتهي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . يقول القائم في قصيدة لعلها لا تختلف عن المقطوعة السابقة في كونها نظماً مرصوفاً يفتقر إلى حرارة الشعر. وهي ثلاثة وأربعون بيتاً، اخترت منها هذه الأبيات :

سَلامٌ عَلَى آلِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ      وَشِيعَتِهِ أَهْلَ النَّهْيِ وَالْفَضَائِلِ  
 تَحِيَّةٌ مَنْ أَمْسَى بِنَاهِرَتِ قَائِمًا      بِحَقِّهِمْ بَيْنَ الْمَلَأِ وَالْقَبَائِلِ

\* \* \*

أنا ابنُ رسولِ اللهِ جَدِّي وَجَدِّهِمْ      إِذَا ذُكِرَ الْأَقْوَامُ عِنْدَ التَّفَاضِلِ  
 وَجَبْرِيلُ مَنْ أَمْسَى فَمُنَّا وَعُصْبَةُ      إِلَى اللهِ نَدْعُوا عِنْدَ ذِكْرِ النَّبَاهِلِ  
 وَمَا كَانَ مِنْ مَجْدٍ وَفَخْرٍ فَإِنَّا      حَوَيْنَاهُ قَسْرًا بِالْقَنَا وَالْمَنَاصِلِ  
 أَنَا ابْنُ رَسُولِ اللهِ وَالْبَيْتِ وَالصَّفِيِّ      أَنَا ابْنُ عَلِيٍّ ذِي التَّقَى وَالْفَضَائِلِ  
 وَفَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ أُمِّيِّ وَمَنْ بِهَا      سَمَوْتُ إِلَى الْعَلِيَاءِ أَعْلَى الْمَنَازِلِ

وقد قمتُ أدعو الناسَ حقًا إلى الذي يُنَجِّيهُم من كلِّ إفكٍ وباطلٍ

وتستمر القصيدة على هذا النهج التقريري النثري لأفكاره وإنجازه فيقول:

عَمَرْتُ بلادَ الغربِ بعدَ فساده      وطَهَّرْتُهُ من كلِّ غاوٍ وجاهلٍ

فلم يبقَ في سهلٍ من الغربِ فاسقٌ      وفي الوعرِ إلا في أسَى وبلايلٍ

الملاحظ على هذه القصيدة أن الشاعر استبدل فيها المقدمة الوجدانية غزلية

أو طلبية أو تشويقية بالسلام على آل النبي ورهطه وشيعته.

ليس شرطاً أن يكون كل شعر هؤلاء الأمراء رائقاً، فشأنهم في الإبداع شأن كل

باقي الشعراء.

ومن شعر الفخر الرائق قصيدة مقداد بن حسن الكتامي التي قالها بمناسبة

دخول القائد جوهر إلى مصر. القصيدة:<sup>1</sup>

ونحنُ جلبنا الخيلَ شُعْتًا ضوامراً      من الغربِ تَجْتَابُ المفاوزَ أشهراً

عليها الكتاميون من آلِ حميرٍ      ومن لَفٍّ لَفٍّ الجيشِ من آلِ بربرا

نهزُّ الرماحَ السُّمرَ ما كان ذابلاً      طويلاً، و مَرَبُوعَ الأنايبِ جَحْدَراً\*

إذا ما نزلنا منزلاً حَسَدَ الدُّجَى      إلينا نُجُومَ اللَّيْلِ فيه مُعَسْكَرا

كتائبُ لا تَأَلُو النبيَّ حَفِيظَةً      لها، وعلياً ومعزاً وجوهراً

ثمانون ألفاً يَلْبَسُونَ إلى الوَعَى      ملابسَ حَزْمِ خِلْعَةٍ وَسَنُوراً\*

يَحْفُونَ طُوعَ الأَمْرِ أَرُوعَ يَعْتَلِي      إلى النَّصْرِ مَيْمُونَ النَّقِيْبَةَ أَزْهَرا

تِلَادُ المُلُوكِ الصَّيِّدِ مِنْ آلِ هاشمٍ      صغيراً، ومُولاها كبيراً مُؤَمَّراً\*

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي . المرجع السابق ص 336.  
\* الجحدر: القصير ، السنور: ما يلبس من سلاح كالدرع والخوذة و المغفر ، تلاد القوم: هو ولد فيهم أو نشأ عندهم. فجوهر مولى الأسرة منذ الصغر.

تَلَبَّسَ لِلْحَرْبِ الْمُغِيرَةِ وَارْتَدَى إِلَى الْحَرْبِ بُرْدًا نَثْرَةً وَتَأَزَّرًا<sup>1</sup>  
سَمًا فَحْشًا مَا بَيْنَ مِصْرٍ وَبَرْقَةٍ رِعَالًا وَأَسَادًا ضِرَاغِمَ هُصْرًا<sup>2</sup>  
كَمَا اعْتَصَمَ الطَّوْدُ الْمُقَطَّمُ لَيْلُهُ يَوْمُ إِلَى الْجُنْدِ الَّذِي قَدْ تَمَصَّرًا<sup>3</sup>  
رَمَى كُلَّ ثَعْرٍ مِنْ فِضَاهَا بِصَخْرَةٍ وَسَوَّمَ تَسْوِيمًا إِلَى الشَّامِ جَعْفَرًا  
فَسَلَّ أَيَّ رَأْسٍ مِنْ كِتَامَةِ جَحْدَرٍ يُدَخِّرُ مَنْ فِي الشَّامِ هَامًا مُطِيرًا  
أَقَامَ بِهَا سُوقًا مِنَ الضَّرْبِ فِي الطَّلَى فَنَاجَزَ مَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَدُمَّرًا  
فَلَا تَكْذِبِينَ ، لَسْتَ الْغَدَاةَ بَوَاجِدٍ بِأَنْصَرَ مِنْ قَوْمِي رِجَالًا وَأَصْبِرًا

القصيدة حماسية تجسد شاعرية الشاعر وتمكنه من فنه ؛ لغة وأسلوبا

وصورة ، فشعره قوي جزل في مستوى هذه المفاخر التي هزته ، فقال هذه  
القصيدة المخلدة لمآثر قومه ؛ من شجاعة وإخلاص وكثرة. القصيدة جميلة فخمة  
في معانيها الحماسية. من ذلك هذه الصور الرائعة: "سما فحشا ما بين.... ضراغم  
هصرا" و "تلبس للحرب المغيرة..." و "اعتصم الطود... يوم إلى الجند". وهي  
صور روائع أعطت القصيدة قوة تعبيرية هائلة، ناهيك عن روعة البيت الذي  
ختم به القصيدة:

فَلَا تَكْذِبِينَ ، لَسْتَ الْغَدَاةَ بَوَاجِدٍ بِأَنْصَرَ مِنْ قَوْمِي رِجَالًا وَأَصْبِرًا  
بهذا يمكن اعتبار القصيدة ممثلة لنغم الفخر البطولي المغربي خلال النصف  
الثاني من القرن الرابع الهجري.

<sup>1</sup> تلبس المغيرة: ركب الخيل المستعدة للإغارة ، والنثرة: الدروع.  
<sup>2</sup> الرعال : الكوكبة المتقدمة من الخيل. وهصر:كواسر مفرده كاسر الذي يكسر فريسته  
<sup>3</sup> - المقطم : هو جبل القاهرة ، وتمصر الجيش : دخل مصر .



## ثالثاً: الهجاء

الهجاء كغرض قائم على التعبير بمساوى الأخلاق، وسوء الحال وغموض النسب، وقصر اليد، وكلال الأجداد عن طلب المجد وغيرها من العيوب من بين الأغراض الأولى التي قال فيها المغاربة منذ عرفوا الشعر. ومنها في كتب التاريخ والسير والأدب نماذج وإن كانت أقل مما أثر في المدح والثناء والحماسة. ويمكن إضافة موضوعي التحريض على الأعداء أو الأشخاص والتشفي فيهم إلى غرض الهجاء لأنهما غالباً ما يتضمنان مساوى المحرض عنهم أو المتشفى فيهم. كما سيتبين من النماذج المنتخبة فيما بعد.

من المعاني الهجائية المتداولة في الشعر المغربي في العهد الفاطمي؛ الغدر، الكفر، الزندقة، السحر، وغيرها من الأمور المستقبحة دينياً. من ذلك هذه المقطوعة التي هجا بها أحد المغاربة عبيد الله المهدي. الأبيات:<sup>1</sup>

الماكرُ الغدارُ الغاوي لشيعته      شرّ الزناديق من صَحْبٍ وتَّبَاعِ  
الناكثينَ عهدَ الله، كلهم      قوم إلى سفهٍ في الناس أوضاع  
العابدين إذا عجلَّ يخاطبهم      بسحر هاروتَ من كفرٍ وتَّبْدَاعِ  
لو قيلَ للروم: أنتم مثلهم لبكوا      أو اليهودِ لسدّوا صمخَ أَسْمَاعِ  
ولو عزونا إلى إبليسَ ما مكروا      لقال إبليسُ: ما هذا من أطبَاعِي!

<sup>1</sup>، - محمد اليعلاوي : المرجع السابق ص 39.

إن الشاعر في هجائه هذا قد ركز على الجانب الديني، وهو عند علماء

الدين أسوأ المعايير وأقبحها بالنفس من العيوب الأخرى ، خصوصا عندما يتعلق الأمر برجل يزعم أنه مبعوث لإنقاذ الأمة من الظلال والتهيه ، وفي حقيقة الأمر هو عدو الأمة والدين. بذلك أفتى أبو الفضل عباس بن عيسى الممسي، أحد فقهاء القيروان.

ذكر ذلك صاحب الرياض: "... ورأى - رضي الله عنه - أن الخروج مع

أبي يزيد [الخارجي] وقطع دولة بني عبيد فرض لازم لأن الخوارج من أهل القبلة ولا يزول عنهم اسم الإسلام ويورثون ويرثون وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام فلا يتوارث معهم ولا ينسب إليهم..."<sup>1</sup>

وانضم هذا الفقيه إلى أبي يزيد الخارجي في حربه العبيديين، فاستشهد

مع خمسة وثمانين رجلا كلهم فاضل في معركة وادي المالح قرب القيروان

سنة 333هـ. فرثاه أبو محمد بن أبي زيد الفقيه بقصيدة منها:<sup>2</sup>

يا لوعة طرقت فؤادي إذ أتى ناع بفقدك إذ فُقدت شهيدا

ورثاه الفزاري بقصيدة منها:<sup>3</sup>

عليك أبا الفضل استباق دموعي وشغلي بأنواع الأسى والهجوم

هكذا كان موقف علماء السنة من العبيديين موقفا جهاديا في سبيل حماية العقيدة

الإسلامية السنية من البدع أيا كان مصدرها.

<sup>1</sup> - المالكي : رياض النفوس ج 2 ص 297.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه ص 301.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه ص 303.

ومن الهجاء الذي كان بين الشعراء - وإن كان قليلا - هذان البيتان لعلي

الإيادي يهجو أبا القاسم الفزاري:<sup>1</sup>

دعي فزارة من لؤمه إلى طلعة اللؤم ما أسبقه:

أب هارب بخراج الإمام وجد قتيل على الزندقة

لقد هجا الإيادي خصمه ومنافسه ومخالفه في المذهب - فالإيادي شيعي

والفزاري سني - هجاه بالطعن في نسبه ، بجعله دعيا في فزارة وليس منها حقيقة. وهذه إحدى أقبح معاني الهجاء. كما هجاه بسرقة والده أموال الخراج وهروبه إلى مصر. ثم هجاه بمقتل جده على الزندقة. فأى فضل يبقى مع هذه العيوب المجتمعة.

لقد عُرف الفزاري بسلاطة لسانه ، هجاء للشعراء، الأمر الذي جعل بعضهم يستعدي عليه العبيديين ويحرضهم عليه ، رغبة في التخلص منه، مستغلين هجوه العبيديين . قال الشاعر أبو محمد عبد الرحمان العتقي يحرض الخليفة الفاطمي الثالث المنصور(334-341 هـ/946-954م) على الفزاري:<sup>2</sup>

أمنصور هاشم من لا يُحبُ حياتك لا صحبته الحياة  
وعاجله قبل أن ينتهي إلى أمد يبتغيه ، الممات  
أيمشي الفزاري فوق التراب وأظفاره فيكم داميات

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي . الأدب بإفريقية ص 136 .

<sup>2</sup> - المرجع نفسه ، ص 203 .

وسَبَّكُمْ زَلَلٌ لَا يُقَالُ      فهلْ تَغْفِرُ الزَّلَلَ الموبقاتُ  
فأينَ بوادِرُكَ المَهْلَكَات      وأينَ عزائِمُكَ المُنْجِزَات  
أزحُ عنه عفوكَ لا تَبْقُه      فأفعاله فيكمْ مُنْكَرَات  
وجازَ اللعينَ بأفعاله      فآثارُه فيكمْ باقياتُ

هذا التحريض المعتمد على تهويل أقوال الفزاري في العبيديين ،ليعد تعبيراً عما يكنه الشاعر من حقد وبغض لعدوه. انظر إلى هذه الصورة المهولة لأقواله فيهم: "وأظفاره فيكم داميات". وكذا قوله في تصوير قدرة الخليفة عليه "أزحُ عنه عفوك". وقوله: "فآثاره فيكم باقيات". كل هذا يبين أن الشاعر ما استبقى من أجل الإيقاع بغريمه شيئاً.

إن أسلوب الشاعر ليعد ممتعاً حقاً بما فيه من قوة بيان وسحر،جسد ذلك التجانس القائم بين العبارات والمعاني وما أنتجه خيال الشاعر من صور رائعة مناسبة للمقام من ذلك: "من لا يحب حياتك لا صحبته الحياة" و"أينشي الفزاري وأظفاره فيكم داميات" صور مقززة مقرونة بهذا الاستفهام الإنكاري المستفز على الثأر. إلى جانب صورة:أزحُ عنه عفوك. استعارة تصور القدرة التي ما حقها أن تعطل والعفو الذي لم يصادف بيئته. كل هذا جاء موشحاً بوشاح الطبع الأصيل.

ومن التشفي الذي يعد هجاء، قصيدة محمد بن المنيب، قالها حين هزمَ

الخليفة المنصورُ أبا يزيدَ الخارجي وأسيرَه مُثخناً بجراح مات منها فوضع في

قفص مع قردين. القصيدة: <sup>1</sup>

حلّ البلاءُ بمخلدٍ<sup>2</sup> وجميع شيعته التواكر

أمسى بأرض كيانة قد بان عنه كل ناصر

يرئو بطرفٍ خاشع نظرَ المحاصر للمحاصر

يرئو إلى عدد الحصى والرمل من تلك العساكر

يا مخلد بن سبيكة يا شرّ بيت في العشائر

انظرُ إلى القفص الذي لا بُدَّ أنت فيه صائر

وانظرُ إلى نديك فيه ومؤنسك ومن تجاور

قد طال شوقهما إليك فزُرهما يا شرّ زائر

يبدو أن القصيدة قد انفرطت منها هذه الأبيات التي قال عنها مبارك

الميلي أنها لشاعر مجهول يتشفي في موت أبي يزيد ، ويذكر بعض جرائمه

<sup>1</sup> - المرجع السابق ص 243

<sup>2</sup> - هذا الثائر هو أبو يزيد مخلد بن كداد من بني واركو من يفرن، إباضي نكوري. خرج من توزر إلى أوراس فنزل بين ظهراني هوارة. بويع إثر مؤتمر الثورة - على مذهب الدولة - المنعقد بأوراس سنة 331هـ. حارب العبيديين وحصرهم بالمهدية، واستولى على سائر إفريقية والمغرب الأوسط. كان أول أمره زاهدا يلبس الخشن، ويركب حماراً أهدي إليه فسمي بصاحب الحمار. ثم أساء السيرة حين كثر أتباعه (هوارة وزناتة ونفوسة وغيرها) فركب الخيل وأتى المنكرات، ضجت منه الأمة وخذلته بتحالفها ضده مع المنصور العبيدي، فتغلب عليه بعد معاركة طاحنة، ثم انحصر بجبل كيانة (قلعة بني حماد). أسر في معركة "ادنة" - قرية 12 ميلاً عن مدينة المسيلة - شعبان 336هـ. مثخناً بالجراح مات منها. فأمر المنصور بسلخه والطواف به في البلاد.

مبارك الميلّي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص 122-125. وفي الروض المعطار في خبر الأقطار: كيانة: جبل بمقربة من المسيلة في البلاد الإفريقية وهي جبال شاهقة ضيقة المسالك لا يستطاع الوصول إلى من فيها، وفيها تحصن أبو يزيد مخلد بن كداد النكار، ص 504.

فيقول:<sup>1</sup>

يا مَخْلِدَ بنِ سَبِيكةِ      يا شرَّ بيتٍ في العَشائرِ  
ذُقْ ما جنته يداك قبـ      لُ من الصغائرِ والكبائرِ  
ذق هَوْلَ شَقِّكَ للبطون      وما ارتكبتَ من الجرائرِ  
يا شرَّ مَنْ بِكَيانَةٍ      وكيانَةٍ شرُّ البرابرِ

هذا النوع من الشعر زيادة عن كونه فنا ممتعا يعد توثيقا تاريخيا مهما  
للأحداث والثورات التي عاشها المغرب العربي خلال العهد الفاطمي. سجل تلك  
الأحداث منسوبة إلى الأماكن التي جرت فيها، أو إلى أسماء الأشخاص  
الأساسيين فيها، أما الجوانب الفنية فهي تتراوح بين التصوير الشعري الممتع  
وبين التقرير النثري. كما أنها أي تلك الأشعار تتفاوت من حيث النضج الفني  
وقوتها البيانية من شاعر لآخر ومن زمن إلى زمن . إلى جانب تصويرها بعض  
الأساليب الحربية المعتمدة ، من التزام للقيم الإنسانية أو ما فيها من همجية، كبقر  
البطون وقتل الأبرياء والتنكيل بالأسرى. كالذي قيل عن أبي زيد .  
قد يكون ذلك من باب تهويل جرائم هذا الثائر لتأليب الناس عليه ،كأسلوب  
من أساليب الحرب التي استخدمها العبيديون. إذ ما كان علماء القيروان ليفتوا  
بوجوب الانضواء تحت راية أبي يزيد الإباضي الخارجي لجهاد العبيديين وهو  
على تلك الصورة من الهمجية .

<sup>1</sup> - مبارك الملي. تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ص. 125.

وفي الأبيات هجاء لسكان منطقة كيانة قرب المسيلة. ومنطقي أن يقول الشاعر ذلك إرضاء للعبيديين الناقلين على المغاربة وبخاصة سكان المغرب الأوسط وبصفة أخص سكان منطقة الأوراس وما جاورها. يقول مبارك الملي في ختام حديثه عن ثورة أبي يزيد ومن خلفه: "...وهكذا شقي العبيديون بجبل أوراس كما شقوا بتيهت. وأصبح تاريخهم بالمغرب حربيا خرابيا أكثر منه مدنيا عمرانيا".<sup>1</sup>

وقد كانت تلك الحروب والثورات وراء رحيل العبيديين عن المغرب إلى مصر ، التي فتحت لهم سنة 358 هـ . وعندئذ فكر المعز في من سيسند إليه أمر المغرب ويكفيه هم زناتة. كان يعلم أن ليس من بين قبائل البربر أصدق تشيعة من كتامة إلا أنها غير مجاورة لزناتة، وكثيرا من أبطالها أنفقتهم في تأسيس الدولة وتسكين الثورات. ثم في فتح مصر والشام . فاختار للمهمة صنهاجة ولم يجعل لها على كتامة سبيلا تقديرا لدورها.<sup>2</sup> وفي صفر 362هـ يرحل المعز عن المغرب ليتولاه المغاربة بأنفسهم.

---

<sup>1</sup> - مبارك الملي. المرجع السابق. ص 126.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه ، ص 132.

## خامسا : الرثاء

الرثاء أحد الأغراض التي لا تتخلف عن إقليم من الأقاليم أو مجتمع من المجتمعات، هو صورة من صور المدح بصيغة الماضي، وهو تعداد لمناقب الأموات، وإعظام لمصيبة الموت فيهم، وتصوير مدى الفراغ الذي خلفه في الحياة. يقول ابن الصيقل عثمان بن سعيد (أو سعد) يرثي عبيد الله المهدي

(ت322هـ/934م):<sup>1</sup>

وَهتَ مِررُ الصَّبْرِ فَانْحَلَّتْ      وَرَتَّتْ عُرَى الحَزْمِ فَاجْتُنَّتْ  
وَأَيُّ سَبِيلٍ إِلَى سَلْوَةٍ      وَأَوْعِيَّةُ الدَّمْعِ قَدْ فُضَّتْ  
وَكَيْفَ العِزَاءِ وَقَدْ خُدِّدَتْ      خُدُودُ الخَرَائِدِ وَارْبَدَّتْ  
جُنُودُ التَّجَلُّدِ قَدْ وَلَّتْ      وَأَلْوِيَّةُ الوَجْدِ قَدْ صُقَّتْ  
وَدَاهِيَّةٌ قَدْ أَتَتْ فَجَاءَةً      فَمِنْهَا المِسامِعُ قَدْ سُكَّتْ  
أَلَمَّتْ فَلَمْ أَرِ مَذْهَبًا      كَأَنَّ المِسالِكَ قَدْ سُدَّتْ  
فَأَوْمَأَتْ أَرْمُقُ نَحْوَ السَمَا      وَأَرْنُو إِلَيْهَا هَلْ انشَقَّتْ

\* \* \*

أَلَيْتَ شِعْرِي هَلْ مَيَّزَتْ      أَكْفُ المَنِيةِ مَنْ بَزَّتْ؟  
وَهَلْ عَلِمْتَ مَنْ رَمَتْهُ الخُطُوبُ      وَهَلْ دَرَّتِ الأَرْضُ مِنْ ضَمَّتْ؟  
إِمَامِي الَّذِي اخْتَرَمْتَهُ المَنُ      نَ، لَوْ قَدْ تَرَى أَنَّهُ، اسْتَحْيَتْ<sup>2</sup>  
فَلَيْتَ الحِوَادِثَ لَمْ تَحْتَرِمَهُ      وَلَيْتَ يَدَ الدَّهْرِ قَدْ شُلَّتْ

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي . الأدب بإفريقية . ص 75.  
<sup>2</sup> - توفي عبيد الله المهدي في 15 ربيع الأول 322هـ / 3مارس 934. والتركيب فيه صعوبة ولعله يعني: لو ترى الموت أنه هو المهدي لاستحيت منه وتراجعت عنه.



وقائلةٍ إذ رأتْ عَبرتي سِجَماً على الخدِّ قد سُحَّتْ  
جَزَعَتْ وَقَدْ كُنْتَ جَلداً على صُرُوفِ الخطوبِ إذا كَرَّتْ  
وكيف العزاءُ ولم تدرِ ما تَضَمَّنَ قلبي وما قَضَّتْ  
لأيةِ أحوثةٍ أَسْعِدَتْ شُؤنَ جُفونِكَ فانهلتْ؟  
أَكُوِّرَتِ الشمسُ أمْ زُلزِلتْ جبالُ البسيطةِ أمْ دُكَّتْ؟  
فقلتُ لها : الخَطْبُ فوقَ الذي ظننتِ وأضعافه فاصمُتي  
فلا غرَواً أنْ سَفَحْتَ عَبرتي ولا عذرَ إنْ لم تَفِضْ مُهجتي

\* \* \*

ثوى علمُ الأرضِ فارتجَّتْ ومالتْ من الوجدِ فانهتتْ  
وكادتْ تزلزلُ بالراسياتِ لإحدى الكبائرِ إذ حَلَّتْ  
فلَمَّا تجلَّى إمامُ الهدى عليه السلامُ لها، قرَّتْ  
ولو لمْ يَسُسها بتدبيره أبو القاسمِ المصطفى، خرَّتْ  
وألبستِ الأرضُ جلبابها لفقدِ الخليفةِ فاسودَّتْ  
ولما بدا القائمُ المرتضى وقابلها نورُهُ، ابْيَضَّتْ  
وأقسمتِ الرياحُ إذ بانَ مَنْ أقسمتِ الرياحُ إذ بانَ مَنْ  
فلما سرتْ نفحاتُ الإمامِ م واستنشقتْ عَرْفَهُ حنَّتْ  
وأزمنتِ المزنُ إذ غابَ مَنْ لَهُ يَنْزِلُ الغيثُ: لا دَرَّتْ!  
فلَمَّا رأتْ سيبَ كَفِّ الإمامِ م لم تتمالكِ بأنْ أروَّتْ  
فأولعَ بالجوِ إظلامُهُ وأخفقتِ الأرضُ فاغبرَّتْ

وذابت نفوسُ الورى رقةً لفرطِ الرزيةِ فاعتلت  
فلولا الإمامُ وإنعاشهُ قلوبَ الرعيةِ لا نفئت  
فيا حجةَ اللهِ في أرضه عزاءُك عنها وإن جئت  
ليهنأَ الخلافةَ ما أحرزتُ منَ المجدِ والشرفِ المُصنلت

\* \* \*

هذا نموذج من شعر الرثاء في العهد الفاطمي ، قيل في رثاء عبيد الله المهدي، مؤسس الدولة الفاطمية ، والنص يصور مدى التطور الذي مس الشعر المغربي خلال النصف الأول من القرن الرابع الهجري؛ سواء من حيث فخامة الأسلوب وجزالته ، أو من حيث حيوية الصورة وتعبيريتها، سواء منها المتعلقة بوقع النبأ على نفس الشاعر، أو المتعلقة بتصوير حزنه الأليم . وقد تظهرت عبقرية الشاعر وقدرته في تعميم تلك الأحزان على كل مظاهر الطبيعة - وهذا مظهر من مظاهر الإبداع -؛ من أرض وشمس وهواء ومطر. فالكون كله حزن ولا سبيل إلى السلو والعزاء.

في القصيدة مظهر آخر لعبقرية الشاعر تمثل في تبريره لعودة الحياة إلى مختلف الظواهر الكونية باستبشارها بطلعة الإمام الخلف، القائم بأمر الله.

فكانت القصيدة جامعة بين الرثاء والتهنئة بكيفية رائعة ونادرة، إذ ينذر أن يوفق الشاعر في الجمع بين الرثاء والمدح أو بين التعزية والتهنئة، فلا يتأتى ذلك إلا لفحول الشعراء.

من الصور الدالة على خصوبة خيال الشاعر - وهي كثيرة وفي كل مقاطع القصيدة مثل : "وهت مرر الصبر" و"أوعية الدمع قد فضت" "جنود التجلد قد ولت" و "ألوية الوجد قد صفت" وهي كلها تشخص فداحة الخطب، و ما استتبعه من أحزان.

وهناك صور أخرى شكلها الحوار الذي دار بين الشاعر وزوجته، وهي صور شخصت مدى الحزن المخيم على الشاعر. كل ذلك يبين أن الشاعر مطبوع يميل إلى التهويل والمبالغة، مع سمح العبارة وحلاوتها من ذلك:

وأقسمت الريح إذ بان من تباريه بالجود: لا هبت!

مثل هذه العبارات السمحة ذات الجرس الرفيع ذات الطابع التخيلي كثيرة، لا تكاد تتخلف عن بيت من أبيات القصيدة ويصدق عليها قول هازلت: "إن الشعر هو اللغة الدقيقة للخيال، والخيال هو الملكة التي تمثل الأشياء، لا كما هي في ذاتها، ولكن تشكل بأفكار ومشاعر أخرى متباينة."<sup>1</sup>

باستثناء نزعة المبالغة التي طغت على القصيدة، - والتي هي ملمح مشترك بين جميع الشعراء على اختلاف مذاهبهم بنسب مختلفة - فليس ثمة أثر لملامح العقيدة الشيعية باستثناء لفظة "الإمام" .

إن القصيدة جديرة بأن تُعدّ ضمن جواهر الشعر العربي عامة والمغربي خاصة. وتجسد فكرة أن الإبداع والنبوغ المغربي كان مبكرا.

<sup>1</sup> - د. محمد مصايف: جماعة الديوان في النقد، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر 1974 م، ص 86. عن مهمة الناقد لهازلت.

## سادسا: الوصف

الوصف أحد أقدم الأغراض الشعرية وأهمها على الإطلاق، إذ هو مدار الأغراض كلها، لا تقوم إلا به وعليه. إلى جانب ذلك فقد يستقل به الشعراء في موضوع ما فيسهبون في إبداع الصور الروائع. والشعراء فيه طبقات ومنازل، منهم من برع في وصف الخيل كامرئ القيس وزيد الخيل، ومنهم من برع في وصف الأطلال كذي الرمة، وطرفة في وصف الإبل. وإحراز قصب السبق في مجال من مجالاته ليس بمتاح لكل شاعر.

ومن المغاربة النابهين في مجال الوصف في العهد الفاطمي، أذكر علي بن

محمد الإيادي<sup>1</sup> ومحمد ابن هاني. يقول علي الإيادي يصف أسطولا للقائم<sup>2</sup>. القصيدة:<sup>3</sup>

أعجِبُ بأسطول الإمام محمدٍ      وبحسنه وزمانه المُستَعْدَبُ

ليست الأمواجُ أحسنَ منظرٍ      يبدو لعين الناظر المتعجّبُ

<sup>1</sup> - شاعر ينسب إلى تونس مسقط رأسه قرية (ترشيش) التي صارت عاصمة تونس فيما بعد عمر طويلا حتى أدرك المعز وامتدحه، وكان قد تخلف عنه بالقيروان وخرج يريده في البحر فأسر ببلاد الروم ثم تخلص إليه. توفي بالقاهرة سنة 365هـ.

\* انظر ابن رشيق : قراضة الذهب، نح الشاذلي بويحي، الشركة التونسية، 1972، ص102.

<sup>2</sup> - هو محمد بن عبيد الله المهدي، وهناك من يقول هو ابنه بالتبني. يكنى أبو القاسم، عهد إليه أبوه حرب محمد بن خزر الزناتي فسار إليه في صفر 315 هـ وفي طريقه اختط مدينة المسيلة وسماها المحمدية. يقال أنه أخفى موت أبيه سنة كاملة. بويح بالخلافة في ربيع الأول سنة 322 هـ. غزا الأُسكندرية مرتين؛ الأولى سنة 301 هـ والثانية سنة 307 هـ فملكها كتب إلى أهل مكة ومن حولها يدعوهم إلى طاعته. فبعثوا بالكتاب إلى المقنتر فأرسله إلى أبي بكر الصولي لأجابته عنه فكتب إليه الصولي:\*

عجبت وما يخلو الزمان من العجب      لقول امرئ قد جاء بالمين والكذب  
وجاء بملحون من الشعر ناقص      فسحقا له من مدح أفضل النسب  
فمن أنت يا مهدي السفاهة والخنا      فقد قمت بالدين الخبيث وبالريب  
بويح بالخلافة في ربيع الأول سنة 322 هـ

\* انظر: ابن الأبار . الحلة السبراء ص 285-288.

<sup>3</sup> - محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص117-120.

من كلّ مُشْرِفَةٍ على ما قَابَلَتْ إِشْرَافَ صَدْرِ الأَجْدَلِ المُتَنَصِّبِ  
دَهْمَاءُ قد لَبِستُ ثِيَابَ تَصْنَعُ تَسْبِي العُقُولَ على ثِيَابِ تَرَهَّبُ  
من كلّ أبيضَ في الهواءِ مُنْشَرِّ منها ، وأُسْحَمَ في الخَلِيجِ مُعَيَّبِ  
كَمَلَاءَةٍ في البَرِّ يَقْطَعُ شَدُّها في البَحْرِ أنْفَاسَ الرِّيحِ الشَّدْبِ  
مَحْفُوفَةٌ بِمَجَادِفٍ مَصْفُوفَةٍ في الجَانِبِينَ دُوَيْنَ صُلْبِ صُلْبِ  
كقوادم النسر المرفرف عُرِيَّتِ من كَاسِيَاتِ رِيَاشِهِ المُتَهَدَّبِ  
تَحْتَنُّهَا أَيْدِي الرِّجَالِ إِذَا وَنَتْ بِمُصَعَّدٍ مِنْهُ بُعِيدَ مُصَّوبِ  
جوفاءُ تحمَلُ موكبًا في جوفِها يَوْمَ الرَّهَانِ وتَسْتَقِلُّ بِمَوَكِبِ  
ولها جَنَاحٌ يُسْتَعَارُ يُطِيرُها طَوْعَ الرِّيحِ وِراحَةَ المُتَطَرِّبِ  
يَعْلُو بها حُدْبَ العُبابِ مُطَارَةً في كلِّ لُجٍّ زَاخِرٍ مُغْلُولِبِ  
تَسْمُو بِأَجْرَدٍ في الهواءِ مُتَوَجِّ عُرِيَّانَ مَنْسُوجِ الذَوَائِبِ شَوَذِبِ  
يَتَنَزَّلُ المَلِاحُ مِنْهُ ذَوَابَةٌ لَوْ رَامَ يَرْكُبُها القَطَا لَمْ يَرْكَبِ  
فكأنما رَامَ اسْتِراقَةَ مَقْعَدٍ لِلسَّمْعِ إِلا أَنَّهُ لَمْ يُشْهَبِ  
وكأنما جَنَّ ابنُ داوُدِ هُمُ رَكِبُوا جَوَانِبِها بِأَعْنَفِ مَرَكَبِ

سَجَرُوا جَوَاحِمَ نارِها فَتَقادِفُوا

مِنْها بِالسُّنِّ مَارِجٌ مُتَلَهَّبٌ

مِنْ كلِّ مَسْجُورِ الحَرِيقِ إِذا انْبَرَى

مِنْ سَجِنِهِ انْصَلَّتْ انْصِلَاتِ الكَوْكَبِ

عُرِيَّانُ يَقْدُمُهُ الدُّخَانُ كَأَنَّهُ صَبِحُ يَكْرُ على الظلامِ الغَيْهَبِ

ولو اُحِقَ مِثْلَ الْأَهْلَةِ جُنْحٍ      لُحِقَ الْمَطَالِبِ فَائِتَاتِ الْمَهْرَبِ  
يَذْهَبْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ لَطَافَةً      وَيَجْنُنَ فَعْلَ الطَّائِرِ الْمُتَقَلِّبِ  
كَنْضَانِضِ الْحَيَّاتِ رَحْنَ لَوَاعِيًا      حَتَّى تَقْعَنَ بِيَرْدِ مَاءِ الْمِيزَابِ<sup>1</sup>  
شَرَعُوا جَوَانِبَهَا مَجَادِفَ أَثْعَبَتِ      شَأَوَ الرِّيَاحِ وَلَمَّا تَتَعَبِ  
تَنْصَاعُ مِنْ كَنْبِ كَمَا نَفَرَ الْقَطَا      طَوْرًا وَتَجْتَمِعُ اجْتِمَاعَ الرَّبْرَبِ<sup>2</sup>  
وَالْبَحْرُ يَجْمَعُ بَيْنَهَا فَكَأَنَّهُ      لَيْلٌ يُقْرَبُ عَقْرَبًا مِنْ عَقْرَبِ  
وَعَلَى مَرَاقِبِهَا أَسْوَدُ خِلَافَةٍ      تَخْتَالُ فِي عُدَدِ السِّلَاحِ الْمُرْهَبِ  
فَكَأَنَّمَا الْبَحْرُ اسْتَعَارَ بَزِيَّهُمْ      ثَوْبَ الْجَمَالِ مِنَ الرَّبِّيعِ الْمُعْجَبِ

القصيدة ثمانية وعشرون بيتا في وصف الأسطول، وهو موضوع صعب لا يتسع فيه القول إلا للمقتدر من الشعراء، فالأسطول جماد، والجماد يصعب على النفس التفاعل معه بالصدق الذي يجعل الشعر ينساب له ويتدفق فيه. لذلك فغالبا ما قيل في الأشياء لا يتعدى المقطوعات، وإن زاد فهو إعمال للفكر وإجهد له. إذ الشعر شعور. وهذا ما جعل الشعراء المعاصرين يسكتون عن القول في مخترعات العصر ومبتكراته، وما قيل فهو من باب الدعابة والتسلية. وشعر أمير الشعراء أحمد شوقي في الغواصة والدبابة وغيرها من مخترعات العصر خير دليل على ذلك.

<sup>1</sup> - الحية النضناض: التي لا تستقر في مكانها  
<sup>2</sup> - الربرب: القطيع من المها

يقول محمد اليعلاوي في تعليقه عن قصيدة الإيادي: " إن عناصر الجمال في هذا الوصف كثيرة، من عظمة السفن، إلى تنوع ألوانها إلى رشاقة حركتها ، إلى طرق تسييرها..."<sup>1</sup>

غير أن متأمل النص بروية يصل إلى أن الصنعة طاغية عليه إلى حد بعيد.

وأن الروح الشعرية غائبة لا تكاد تظهر، وكل الصور وليدة الفكر.

النص الثاني من نصوص الوصف لابن هانئ أبيات في وصف قصر أمير

منطقة الزاب بالمسيلة، جعفر بن علي بن حمدون<sup>2</sup>، وردت ضمن قصيدة طويلة

(90بيتاً) في مدح هذا الأمير. وأبيات الوصف تبدأ من البيت 29 إلى البيت 63.

مطلع القصيدة: (طويل)<sup>3</sup>

خليليَّ أين الزابُ مِنيَّ وجعفرُ      وجنةُ خُلدٍ بنتُ عنها وگوثرُ

فقبلي نأى عن جنة الخلدِ آدمُ      فما راقه من جانب الأرض منظرُ

خليليَّ، ما الأيامُ إلا بجعفرِ      وما الناسُ إلا جعفرُ، دام جعفرُ!

ثم يقول في وصف القصر:

ألكني إلى القصر المشيد تحيةً      فقد حدّث الركبانُ عنه فأكثرُوا

فرغتَ له من بعض شغلكَ في الوعى      ومثلكَ في إغفائه ليس يعذرُ

[ وجدّدته وهو الجديدُ بناؤه      وواصلتَ منه ما كنتَ تهجرُ ]

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية ص 121.

<sup>2</sup> - لما قتل علي بن حمدون سنة 334هـ/945م أثناء معركة بين الجيوش الفاطمية وأنصار أبي يزيد بقيادة أبي أيوب ابن صاحب الحمار. خلفه على إمارة المسيلة ابنه جعفر ويساعده أخوه يحيى. وكانا قد نشأ ببلاط القائم ثم المنصور. يقول ابن خلدون إن أم معدّ، أي المعز كانت قد أرضعت جعفرًا. فلما ولي المعز الخلافة سنة 341هـ/953م، أقر جعفرًا على ولاية الزاب. وكان جعفر يضمّر عداوة للصنهاجيين ورئيسها زيري بن مناد ثم بلقين (بلقين) لما بينها وبين زناتة - المدعمة لجعفر - من عداوة قديمة. أنظر محمد اليعلاوي : ابن هانئ المغربي الأندلسي ، شاعر الدولة الفاطمية، دار الغرب الإسلامي ، بنان. 1985. ص 85-86.

<sup>3</sup> - محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، ص 275-281.

ليشركك في تأسيسه آل جعفر  
 فمثل الذي يُبقي لها الفخر يشكر  
 نتيجة رأي تستفيد ذوو النهى  
 ويعجز عنها كل رأي ويقصر  
 كأن أكف القوم كانت عقولهم  
 فصاعته رفعا والسعود تدبر  
 [وإنك لو لم تهتد لبنائه  
 بنته الليالي والقضاء المقدر]  
 لأن غبت عنه إنني حاضر له  
 بفكر تنام العين عنه ويسهر  
 وقلت وقد أفنيت فيك تعجبي  
 وبت كأي قائم فيه أنظر  
 من المبتني فوق الكواكب مظهرًا  
 وما فوق أعنان الكواكب مظهر؟  
 وما كان فيه نقص شيءٍ تيممه  
 ولم يبق ما أثرت شيئًا يؤثر  
 وما مثله إلا الكمال مصورًا  
 يُناغيك لو أن الكمال يُصور  
 وسله إذا ما شئت يُنطقه حسنه  
 فما هو إلا ناطق ليس يشعر  
 ولم يبق إلا أن تظلل به الورى  
 وتتركه من بعد هاروت يسحر  
 كأن لم يكن إلا كما أنت أهله  
 وكل عظيم عند قدرك يصغر  
 [لئن كان إكبارًا يُعظم شأنه  
 فأعظم شأنًا من بناء وأكبر]  
 هو الحرم الرحب الذي أوتى العلى  
 إليه ، وأيام الوغى وهي تؤثر  
 بحيث يرى جذل الطعان وروضة البيان  
 وينبوغ الندى المتفجر  
 [فما للعلى من خلفه متقدم  
 وما للعلى من بعده متأخر]  
 ولولا تشق المكرمات على الورى  
 فيحدث في وادٍ من العرف منكر  
 لما حظ فيه الرحل عام وفادة  
 من الناس إلا من يهل ويحمر  
 فقد عظم الله السماح وإنني  
 لتعظيمه ممن برى الله أجدر



إذا ما أتاه المستجيرُ من الردى      فقد أمنَ الخطبَ الذي كان يحذر  
 فكم نشأتُ منه غمامةٌ رحمةٍ      فراحتُ به الأرضُ العريضةُ تُمطرُ  
 أجرٌ ذيولَ العزِ بينَ عِراضِهِ      وأنشُرُ ما حاكَ الثناءُ المحبّرُ  
 فأشفعُ فيه للوفودِ إلى الثناءِ      لي الإذنُ فيه والمقامُ المشهرُ  
 وأبهجني أتيَ تذكرتُ عهده      وقد يحفظُ العهدَ الكريمُ ويذكرُ  
 نظرتُ إليه نظرةً فازدهى بها      وإن كان لا يُزهِى ولا يتكبرُ  
 وكم شغلنكَ الحربُ عنه بل الندى      بل المجدُ تبنيه دياراً وتعمُرُ  
 وكم لك من قصرٍ سواه مشيدٍ      تسيرُ به البُزْلُ العناجيحُ تهدرُ\*<sup>1</sup>

هذه القصيدة جاءت خالية من مظاهر العقيدة الشيعية، رغم أن صاحب القصر  
 الموصوف شيعي كما ورد في التعريف به في هامش الصفحة المتقدمة. والأمر يفسر بأن  
 مظاهر العقيدة مقصور إضفاؤها على الخلفاء دون سواهم.  
 أما عن ملامح شخصية الشاعر فالنص زاخر بها، ككثرة الصور، والمبالغة المراد منها  
 التفخيم من أمر القصر وبانيه. من ذلك إضفاء طابع القداسة على الوادي الذي بني فيه  
 القصر. فبدا للشاعر أن لولا أن يشق على الناس أو أن يعد من البدع لوجب على نازليه من  
 النسك ما يجب على نازلي وادي منى من التهليل والنحر، وأن لنازليه من الأمن ما لنازلي  
 الحرم الشريف لا يخشون فيه غيلة ولا عادية.  
 وملح آخر من ملامح شخصية الشاعر يتمثل في كثرة الصور؛ من تشبيه واستعارة وكناية

<sup>1</sup> - العناجيح : جمع عُجُوجُ: الجمل أو الفرس الطويل العنق، السريع الجري.

ومجاز، والغاية منها التشخيص والتفخيم والإطراف، وهو ما يبين ترفع الشاعر عن  
التقريرية، كما أن ذلك الوسيلة الأكثر تعبيراً عن سموق الشاعر في فنه وجودة الشعر.

فمن الصور الجميلة المشرقة - وهي كثيرة - قوله:

هو الحرمُ الرَّحْبُ الذي أوتِ العلى إليه ، وأيامُ الوغى وهي تُؤثر

ففي البيت تشبيه بليغ " هو الحرم " واستعارة مكنية "أوت العلى إليه" و"أيام الوغى"

فالمتمعارف أن العلى يُؤوى إليها و يُلاذ بها غير أن الشاعر جعلها تلوذ بالقصر لعظمته

ومناعته. وصورة أخرى لا تقل تعبيرية وحيوية. هي في قوله:

أجرُ ذبولِ العزِّ بينِ عِراضِهِ وأنشُرُ ما حاكَ الثناءُ المُحَبَّر

ففي البيت صورتان، بالاستعارة المكنية؛ الأولى عبر بها الشاعر عن منزلته المرموقة

لدى صاحب القصر، والثانية عبر بها عن روعة شعره الذي يفيض به الثناء و الشكر.

والملاحظ على وصف الشاعر لقصر أمير المسيلة، أنه وصف قائم على التفخيم الذي

لا يرتكز على ذكر الجزئيات المشكلة لتلك العظمة، باستثناء التركيز على ضخامة القصر

علوا ورحابة "تسير به البزل العناجيج تهدر" وكذا ما حف به من خيام الآوين إليه، وكذا

عظمة أبوابه التي توصل ليلاً وتفتح صباحاً محدثة صريراً. ولعل هذه إحدى التفاتاته

القليلة إلى بعض جزئيات القصر إذ الغالب على وصفه العموميات. لذلك فقول أحدهم عنه

أنه من " أصحاب جلبة وقعقة بلا طائل معنى إلا القليل النادر: كأبي القاسم ابن هانئ

ومن جرى مجراه؛..."<sup>1</sup> قد تصدق على بعض مقاطع القصيدة. فرغم عدد الأبيات

المخصص لوصف القصر فإننا لا نخرج من كل ذلك بصورة لهذا القصر، وقد يفسر ذلك

<sup>1</sup> - ابن رشيق : العمدة ، 1 ص 124 .

بسيطرة فكرة المدح على الشاعر فهو وصف يؤدي لأجل المدح. نقيض ما نجده في بعض استهلالاته التي وصف فيها الطبيعة. " أكثر القصائد تفتتح بمقدمة غزلية، أو ظلية كما يقولون، من نوع النسيب. ولكن هناك سبعا وعشرين قصيدة يدخل فيها الشاعر إلى الموضوع مباشرة... وقد يفتتح شاعرنا القصيدة بتأملات حكمية أو مشاهد وصفية...<sup>1</sup> من ذلك هذا الاستهلال الذي مثل مشهدا طبيعيا جمع بين المطر الخفيف ومطاردة الريح للسحب، والعشب والعطر، والنسيم الرقيق مشكلا صورة بديعة. يقول:<sup>2</sup>

أولؤُ دمعُ هذا الغيثِ أم نُقطُ؟ ما كان أحسنَه لو كان يُلتَقَطُ!  
بين السحابِ وبين الريحِ ملحمةٌ قعاقعٌ، وظبىً في الجو نُخترَطُ  
كأنه ساخطٌ يرضى على عجلٍ فما يدومُ رضىً منه ولا سَخَطُ  
أهدى الربيعُ إلبناروضةً أنفأً كما تنفَسَ عن كافوره السَّفَطُ  
غمائمٌ في نواحي الجو عاكفةٌ جعدٌ، تحدَّرَ منها وابلٌ سَبَطُ  
كأنَّ بهتانها في كلِّ ناحيةٍ مدٌّ من البحرِ يعلو ثمَّ يَنهبطُ  
والبرقُ يظهر في الألاءِ عُرتُ قاضٍ من المزنِ في أحكامه شَطَطُ

فالمقطوعة رغم قصرها إلا أنها مفعمة بالمعاني البديعة التي تكشف عن عبقرية الشاعر وقدرته في استقصاء جوانب الموضوع محل الوصف ببنية رائعة، إحدى ميزات

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي: ابن هاني المغربي الأندلسي شاعر الدولة الفاطمية، ص 204.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 215.

الوصف الجيد. يقول حازم القرطاجني: " فالمحاكاة التامة في الوصف هي استقصاء

الأجزاء التي بموالاتها يكمل تخييل الشيء الموصوف." <sup>1</sup>

إن السر في تباين القدرة الوصفية لدى الشاعر في النصين هو أن الشاعر في النص

الأول شغله تكلف الفخامة على حساب موضوعه. أما في النص الثاني فقد كان الشاعر

أقرب إلى نفسه وإلى الطبع. هذا يدل على موضوعية نقد ابن رشيق لشعر ابن هانئ، حيث

قال: "...وكانت عند أبي القاسم - مع طبعه - صنعة؛ فإذا أخذ في الحلاوة والرقعة، وعمل

بطبعه وعلى سجيته، أشبه الناس، ودخل في جملة الفضلاء، وإذا تكلف الفخامة، وسلك

طريق الصنعة أضرب بنفسه وأتعب سامع شعره، ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع

في الأحايين أشياء جيدة." <sup>2</sup>

نعم إنَّ تكلفَ الفخامةِ مرهقٌ للشاعر ولجمهوره بصفة عامة وعند ابن هانئ بصفة

أخص.

من موضوعات شعر الوصف ما تعلق بوصف الهدايا، قال علي بن يوسف التونسي

يصف الهدية المجهزة من مصر إلى المعز بن باديس ملك المغرب: <sup>3</sup>

أهلاً بمكرمة الإمام ومرحباً      لله أيّ تحيةٍ ما أعجبا

أقسمتُ لو مُنحَ المفوهُ رشدهُ      ما قال إلا الشرقُ زارَ المغربياً

ضرب العجاجُ سُرَادِقاً من فوقها      ضربا بذاك الحسنُ لن يتنهباً

حتى انجلت أولاهُ عن مثلِ الظباءِ - غيد أو أشهى إليك من الطبا

لولا اختلافُ شياتها ومزيةٌ      في حسن صورتها لخيلتُ ربربا

<sup>1</sup> - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، ص 105.

<sup>2</sup> - ابن رشيق: العمدة، ج 1 ، ص 125.

<sup>3</sup> - ابن رشيق: الأنموذج، ص 299-301.

يمشيين مشي الغانيات تهادياً	فإذا اعترضن أرين قُبَا شُرْنَا
جرّد سبقن البرق غير حوافلٍ	وجرينَ أبعد شَأوهِ والأقربَا
يرفلن في حُلل العراق وحليّه	زهواً فتحسبهن رَوْضًا مُعشبا
ونجائب مثل السفائن ترى لها	تحت القباب تَعَطُّمًا* وتغضبا
بخت تهادى في الأزمة عبس	علق الكمال بأمهن فأنجبا
من كل ضامية الحجاج تسربلت	ثوبا من الوبر المضاعف أكهبا
وأمقُّ من مَحض الهجان إذا انتحى	أبصرتَ ذا لونين أغبشَ أصهبا <sup>1</sup>
أو أجردَ الوجنات صافي الهدب لو	رامَ النقابَ ببعضه لتنقبا
يحملنَ من زيِّ الملوك هوادجا	مثل القصور مُفَضِّضًا ومُذَهِّبا
كسيت على ما استَحَقَّبتُ من عَسجدٍ	حُلل النسيج مُصورًا ومُكْتَبَا
ومضبَّرات كالهضاب لواعب	مما حملن وحققها أن تلعبا
حملت أعزَّ نخائر الملك التي	بهرتُ وأعوزَ مثلها أن يكسبا
والفيل يخطر بينها وكأنه	وكأنها طود أناف على ربي
كنا نُحَدِّثُ عنه وهو مغيبٌ	فالآن أكذبَ نفسه مَنْ كَدِّبا
شرسٌ إذا أحفظته ، سهلٌ إذا	لاطفته صعب إذا ما صوعبا
يقظانٌ يفهم عنك إن كلمته	وإذا أشار بغير لفظ أعربا
أعجوبة كرم الإمام سخا بها	لا تكذبينَ الحُبُّ مقدارُ الحبا
تجدُ البنودَ ستائرًا من دونه	يهوى الحجابُ ومن له أن يُحجبا

<sup>1</sup> - فرس أمقُّ بين المقق طويل. القاموس المحيط ج 3 ص 293.  
\* تغطمًا: من الغطمطة اضطراب موج البحر، والصوت الذي فيه بَحَّحٌ وغرغرة القدر. نفس المصدر ج 2، ص 390.

وترى بها الخيلاء تحت ظلّالها      يمشي الهميم وكان يمشي الهيدبي<sup>1</sup>  
لولا تأوُّدهُ وفعلُ الريح في      عذباته ما اناد حتى يُشهباً<sup>2</sup>  
سمرٌ توشتت الحريرَ مُعضداً      وتقلّستُ شرفاً بأطرافِ الطبي  
الله جار هديّة علوية      وقف الزمان أمامها متعجباً  
سمعاً أبا الفتح المبين فإنني      لك قائل، رضي المفند أو أبي  
هذي تحية من رمى بك ثغره      فكفّيته من أمره المستصعباً  
حصنت بيضة ملكه متمكناً      ومنعت درة عزه أن تخلباً  
وغربت بالأعداء حتى لم تدع      للسيف من ضرب الجماجم مضرباً

هذا نص وصفي خالص موضوعه الهدية القادمة من الإمام الفاطمي إلى خليفته على المغرب، المعز بن باديس. صورها الشاعر ضخمة فخمة لا يحيط بها وصف، فليس أمام أهل البيان المفوهين إلا القول: إن الشرق قادم نحو المغرب. عبر عن تلك الكثرة بما أثارته من عجاج ونقيع، وهذا تصوير منتزع من الواقع، إذ على قدر كثرة أفراد القافلة تكون كثافة العجاج المثار. صورة للهدية القادمة. أما الهدية عن قرب فهي متنوعة؛ خيول عتيقة أصيلة و نوق نجيبات مع إلماع الشاعر إلى مظاهر تلك الأصالة والنجابة. مع الإشارة إلى أنهم حملن من ذخائر الإمام ونفائسه ما يحمل على التعجب. كما تضمنت الهدية فيلا ضخماً، تصوره الشاعر طوداً أناف على رُبّي، تضخيم للفيل والهدية معاً. مع التلميح إلى أن الفيل غير معروف لدى المغاربة "كنا نحدث عنه وهو مغيب". ثم عاد إلى تفخيم تلك الهدية بالتعجب ثانية من كرم الإمام، على أساس المدح، فوصف الأعلام المرفوعة على

<sup>1</sup> - الهميم : المطر الضعيف، والهموم الناقاة الحسنة المشي والبنر الكثيرة الماء. القاموس المحيط، ج 4، ص 194.

الهيدب : السحاب المتدلي أو ذيله، وخمل الثوب، وركب المرأة. القاموس المحيط ج، ص 144.

<sup>2</sup> - تأوده : من أود تعطف. اناد: قوي. المصدر نفسه، ص 284.

ذلك الكائن العجيب، الفيل وما توحى به ظلالها البادية تحته وهو يمشي الخيلاء. كما لم يفته التعريج على جبلة وطباع ذلك الفيل. ليختم القصيدة بتأكيد كرم الإمام الفاطمي، واستحقاق الأمير المغربي لتلك الهدية، فهو حامي هذا الإقليم.

هذا عن جانب المضمون، أما عن الجانب الفني فقد وصف الشاعر الهدية وصفا متجانسا رغم تعدد مكوناتها وتباينها، وصفا تراوح بين الإجمال والتفصيل، قدم ذلك بأسلوب جزل في لغته وعباراته، وفي صورته وبلاغته. فمن حيث جزالة الأسلوب تجلّى في فصاحة الألفاظ وتناسبها فيما شكلته من تراكيب وعبارات. من ذلك: أقسمت لو مُنحَ المُفَوِّهُ رُشْدُهُ، بخت تهادى في الأزمة عبس. وقوله عن الفيل: أعجوبة كرم الإمام سخّا بها. وكل عبارات النص من هذا القبيل في التلاؤم والعذوبة.

أما الصور فتتم عن خيال خصب خلاق، اعتمد الكناية كما في البيت الثاني " ما قال إلا الشرق زار المغرباً " كناية عن عظمة الهدية" وفي قوله: "أجرد الوجنات" كناية عن العنق في الخيل. ولعل التشبيه بأنواعه هو الوسيلة الفنية الأكثر حضوراً في النص. من ذلك التشبيه البليغ في: " لخيّلتُ رَبْرَباً " و " يمشين مشي الغانيات " والتشبيه المرسل في "أنجبت مثل الأطباء" و "وكأنه وكأنها طود أناف على ربي" و " يحملن مثل القصور". وهي تشبيهات موفقة مناسبة إلى حد كبير. كما حضرت في النص الاستعارة فأدت دوراً جليلاً من ذلك "يرفلن في حلل العراق" استعارة مكنية فقد شبه الخيل بالنساء في الرفل في الملابس وجرها تيتها. وكذا قوله: "وقف الزمان أمامها متعجباً" ولعلها من روائع الصور المشخصة لعظمة الهدية. وإلى جانب البيان فقد أدى البديع من طباق ومقابلة وجناس دوره في التصوير والتشخيص.

## سابعاً: الغزل

يقول إبراهيم الدسوقي جاد الرب - حين حديثه عن الغزل في الشعر المغربي خلال القرون الهجرية الأولى - في ماهية الغزل وأثره في النفوس: "... فهو زهرة الغريزة الراسخة بنجم - لا محالة - في كل زمان ومكان، ويشيع أريجاً وجمالاً سحريين يستهويان القلوب، ووجوده لا يحتاج... إلى إثبات، فهو غني عن هذه المحاولة وإن ترامى إلينا من عصر دون عصر، وبلغنا عن بيئة دون بيئة".<sup>1</sup>

ويرى أن الضياع أتى على جل ما قاله الشعراء المغاربة في تلك الفترة، ولم يبق منه إلا القليل. أما في العهد الفاطمي فإننا نجد منه نماذج كثيرة، وعلى صور متنوعة؛ قصائد، مقطوعات، أبيات. وذلك بفضل اعتماد الشعراء - في أغلب الأحيان - المقدمة الطللية أو الغزلية كما هو الحال عند الشعراء المشارقة.

من ذلك هذه الأبيات لخليل بن إسحاق بن ورد<sup>2</sup>، من قصيدة يمدح المهدي<sup>3</sup>:

قَفْ بِالْمَنَازِلِ وَاسْأَلْنِ أَطْلَالَهَا      ماذا يَضْرُكَ إنْ أَرَدْتَ سُؤْلَهَا؟  
هل أنتَ أولُ من بكىَ في دِمْرٍ؟      دَرَسْتَ وَغَيَّرْتَ الحَوَادِثُ حَالَهَا؟  
يا دارَ زَيْنَبَ هل تَرُدِّينَ البِكا      عن مُقْلَةٍ سَفَحْتَ عَلَيْكَ سِجَالَهَا؟  
بُدِّلْتَ بِالْإِنْسِ الخَرائِدِ كالدُّمَى      وَحَسَّ الفَلَاةَ ظِبَاءَها وَرِئالَهَا  
ولقدْ عَهَدْتُ لآلِ زَيْنَبَ حَبْرَةً      فيها، وَدُنْيا أَقْبَلْتُ إِقبالَهَا

<sup>1</sup> - إبراهيم الدسوقي جاد الرب: شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 229.  
<sup>2</sup> - هو من أبناء الجند بطرابلس كان أول أمره يطلب العلم والأدب ويصحب الصوفية ويبني في المساجد، إلى أن خالف أهل طرابلس سنة 299هـ، فكان هو القائم على تعذيبهم وأخذ أموالهم. خرج إلى صقلية واليا عليها فأهلك الناس تقتيلاً وتجويعاً. صرفه القائم إلى حرب أبي يزيد الخارجي. على رأس ألف فارس. فاقتحم عليه أبو يزيد القيروان فأخذه مع أصحابه وقتلهم جميعاً وصلبهم كان ذلك سنة 332هـ. أنظر: الحلة السيرة، ص 302. و إبراهيم الدسوقي شعر المغرب حتى خلافة المعز ص 238.

<sup>3</sup> - ابن الأبار: الحلة السيرة، ص 303.



بيضاء ناعمة يجولُ وشاحُها      وتهزُّ دِقَّةُ خصرِها أكفَّالَها<sup>1</sup>  
ولها قِوامٌ كالفضيبِ وفوقَهُ      جعدٌ يصافحُ كفه خَلخالَها  
وكأنَّ في فيها بُعيدَ رُقادِها      عَسلاً أصابَ من السَّماءِ زُلالَها  
لقد عَصِبتُ عَواذلي في حُبِّها      والنفسُ تعصي في الهوى عُدالَها

هذه الأبيات مقدمة لقصيدة في مدح الإمام المهدي، وهي تمثل نوعاً من التطور الذي طرأ على القصيدة الرسمية، حيث اعتمد الشعراء المقدمة الوجدانية أساساً لها. وانطلاقاً من أن المقدمة غالباً ما تكون طليية أو غزلية، فقد زاد بذلك رصيد الغزل وتنوع. فالأبيات بدأت بوقفة طليية، فقد حث الشاعر نفسه أو صحبه بالوقوف على تلك الربوع ومساءلتها، وعد ذلك أصالة "هل أنت أول من بكى في دمنة؟" استفهام أراد به تقرير الظاهرة واستساغتها، ونفي الابتداع عن نفسه في ذلك، بل هي نوع من البعث والإحياء لما اطرده في الشعر العربي الجاهلي منه والإسلامي. ثم عمد إلى وصف حال الطلل وكيف صار مرتعاً للظباء ورنالها بعد ما كان منتزهاً للغيد الحسان. بعد ذلك انتقل إلى وصف جمال وحسن التي من أجلها بكى واستبكى؛ بياض وقوام ودقة خصر وطيب أنفاس وتنعم ودلال، وغير ذلك من القيم الجمالية التي يعد شعر الغزل سجلاً لها.

والشاعر خليل بن إسحاق، من خلال هذه الأبيات يبدو متمكناً من فنه ضليعاً فيه، يصدر عن طبع أصيل، يبدو ذلك من خلال انسيابية أسلوبه وجزالته، في اللفظة والعبارة، وفي المعنى والصورة. فالأبيات كلها على جانب كبير من الروعة والحلاوة، ثم إنها على

<sup>1</sup> - الكفَّل : العَجْزُ أو الرُدْفُ أو القَطَن. القاموس المحيط ج 4، ص 46.

جانب كبير من الانسجام.

وإذا كان من المفترض في الغزل المُقَدَّم به للقوائد الرسمية أن يكون متكافئاً متصنعاً في معظمه، فإن بصمات الصدق جلية في هذه الأبيات؛ في معانيها، وصورها، و في عذوبة موسيقاها، لدرجة أن تفضيل بيت على آخر للاستشهاد به على روعة المعاني وجزالة الأسلوب أمر محير. وإن يك لا بد من اختيار بيت فليكن البيت الثاني المصور لاطراد ظاهرة بكاء الرجال للدمن والأطلال:

هل أنت أول من بكى في يمنيةٍ دَرَسَتْ و غيرتِ الخُطوبُ حالها

وكذلك هذا البيت المصور لوحشة الطلل الذي كان بالأمس أهلاً بالغواني مفعماً بالأنس إذا به يغدو ساكناً موحشاً، ومرتعا للظباء ومسرحاً للوحوش:

بُدِّلَتْ بِالْإِنْسِ الْخِرَائِدُ كَالدُّمَى وَحَشَّ الْفَلَاةُ ظِبَاءَهَا وَرئَالَهَا

هذه الأبيات من الغزل العفيف الذي لا يُتَحَرَّج من قراءته أو سماعه، وهو الأكثر شيوعاً في المغرب العربي خلال القرون الأولى.

ومن غزل ابن هاني هذه الأبيات التي قال عنها صاحب الجذوة بأنها مما استحسنت له: <sup>1</sup>

ولمَّا التقتُ الحاظنا ووشائنا وأعلنَ شيقُ الوشيِّ ما الوشيُّ كاتِمٌ

تنفَّسَ إنسيٌّ من الخدرِ ناشِرٌ فأسعدَ وحشيٌّ من السدرِ باغمٌ

وقالتُ قطاً: سارِ سَمَعْتُ حفيفهُ فقلتُ: قلوبُ العاشقينِ الحوائِمُ

عشيَّةٌ لا آوي إلى غيرِ ساجعٍ بيبيك حتى كلُّ شيءٍ حمائمٌ

<sup>1</sup> - الحميدي (ت488هـ): جذوة المقتبس، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966. ص96.

قيل عن الأبيات إنها مما استُحسِنَ من غزل الشاعر. ولكن من حق القارئ المناقد أن يتساءل عن مصدر الاستحسان الذي قال به الكاتب في لأبيات، أهو عائد إلى الصورة أم إلى المعنى؟

تبدو الأبيات لأول وهلة حسنة، غير أن متأملها سرعان ما يتبدى له ما أثقلت به من صنعة وتكلف أبعدها عن الطبع والتلقائية اللذين تأنس إليهما النفس وترتاح. فقد جمعت الأبيات بين ما يمكن اعتباره من المتناقض، بين اللحظ والوشاة، وبين الشق والكل وبين الإنس والوحش، كما أن إطلاقه وصف الحفيف على وقع خطى الساري غير مناسب، كما أن "كل شيء حمائم" مبالغة غير مستساغة. ذلك أن المبالغة كوجه من وجوه البديع منها ما يهدي إليه الطبع والفطرة السليمة، فيعلق بالنفس وتتعلق به، ومنها ما يقحم إقحاما فتتفر منه الطباع السليمة. من ذلك قول ذي الرمة:<sup>1</sup>

عشية مالي حيلة غير أنني      بلقط الحصى والخط في الترب مولع  
أخط وأمحو الخط ثم أعيده      بكفي والغربان في الدار وقع

فالصورة التي شكلها بيتا (ذو الرمة) أصيلة صادرة من أعماق النفس لا تكلف فيها ولا

تعمل. عبرت عن حزن الشاعر واكتنابه لخلاء البيت من أهله، وحلول الغربان محلهم.

فشتان ما بين الصورة المنبثقة عن النفس وبين الصورة المتكلفة.

هذا عن الغزل الطبيعي الفطري المألوف عند كل البشر، على اختلاف أديانهم ومذاهبهم.

وهو كما قال ابن قتيبة في تعليق استهلال الشعراء قصائدهم بالغزل أو النسيب: "لأن النسيب

<sup>1</sup> - د.حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار المعارف بمصر، 1974 ص 133

قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام...<sup>1</sup>

أما النوع الثاني فهو الغزل الماجن، الذي فيه من الإسرار والبوح بما تدعو الفطرة السليمة إلى التحفظ والتستر عنه الكثير. والبوح بذلك يعد نوعا من الهمجية والحيوانية. ومع ذلك فهو قديم في الشعر العربي، كنوع من الشذوذ، كان من المفروض أن ينتهي في ظل الدول الإسلامية، لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. وبدلا من أن يتهدب خلال الأعصر الإسلامية إذا به ينضاف إليه نوع آخر أشد فتكا بالقيم والأخلاق، وأكثر جلبا للمعرة. ورغم كونه يمثل حالة مرضية في المجتمع العربي الإسلامي إلا أن بعض الباحثين جعلوه نوعا ثالثا من الغزل سموه "الغزل الشاذ أو الغزل بالمذكر".

وإذا كان البحث النزيه في الأدب المغربي قد خلص إلى أنه لا وجود للغزل الماجن في أدب المغاربة خلال القرون الثلاثة الأولى. فإنه ولسوء الحظ قد تزامن النوعان (الماجن والشاذ) في الظهور. ظهرت أولى نماذجهما خلال مطلع القرن الرابع الهجري، متمثلة في التغزل بالغلما. وقد بقيت منه نماذج متعددة، تنسب إلى شعراء ذوي مكانة مرموقة في المجتمع المغربي، وفي زمن دولة قامت على أساس تخليص الدين مما علق به من بدع، وإعادة الأمة إلى السنة المثلى. وما يزيد من شناعة الظاهرة، - التي بقيت وصمة عار لا تمحي على مدى الأيام - أن

<sup>1</sup> - ابن قتيبة : الشعر والشعراء، عالم الكتب بيروت، لبنان، ط3 / 1204 هـ / 1984 م ص7.

بعض رجال الدولة قد تورطوا في ذلك.

ذكر الدسوقي أن ابن الأبار "ذكر في حوادث عام 320 هـ عزل عبد الله بن سليمان

صاحب الوثائق بسبب شنوده، كما ذكر أن لابن عامر الفزاري أرجوزة تتناول مُرد

إفريقية و تتضمن تنديدا بابن سليمان.<sup>1</sup>

ومن نماذجه هذه الأبيات المنسوبة إلى ابن هانئ، قالها في عبد الله بن سليمان، وزير

المعز:<sup>2</sup>

أغِيدُ مِثْلَ الشَّمْسِ لَمَّا بَدَا      تَاهَ عَلَى النَّاسِ بِنَحْرِ وَجِيدِ  
لَا عَبْتُهُ الشَّطْرُ نَجَّحَ فِي خَلْوَةٍ      حُكْمَ مُطَاعٍ فِي الَّذِي قَدْ يُرِيدِ  
صَفَّقْتُ خَيْلِي بِإِزَا خَيْلِهِ      ثُمَّ التَّقْتُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْجُنُودِ  
فَأَطْرَدْتُ خَيْلُ حَبِيبِي وَقَدْ      أَقْلَهَا الرِّكْضُ وَخَفَقُ الْبُنُودِ  
فَقَالَ: مَا حُكْمَكَ يَا سَيِّدِي      فَإِنِّي مِنْ بَعْدِهَا لَا أَعُودِ؟  
فَقُلْتُ حُكْمِي أَنْ أَنَالَ الْمُنَى      مِنْ ذَلِكَ الرِّدْفِ وَذَلِكَ الْبِرُودِ  
فَحَلَّ عَنْ طَوْعِ سَرَاوِيلِهِ      وَلَمْ يَكُنْ قَطُّ بِهَذَا يَجُودِ  
فَنِلْتُ مِنْهُ فَوْقَ مَا أَشْتَهِي      وَفَوْقَ مَا يُرْغَمُ أَنْفَ الْحَسُودِ

غريب كل الغرابة أن يصدر مثل هذا الشعر عن محمد بن هانئ، شاعر المغرب

والأندلس وشاعر الدولة الفاطمية التي قامت بسم آل البيت من أبناء فاطمة، عبيد الله المهدي

الذي انتظر طويلا لتخليص الأمة من الفساد والجور، اللذين غرقت فيهما الأمة حيناً من

<sup>1</sup> - إبراهيم الدسوقي جاد الرب: شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 240 .

<sup>2</sup> - محمد اليعلاوي : الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي، ص 272.

الدهر. وحين يظهر يبيح الجهر بمثل هذا الفساد، بل ويُتَنَاشَدُ في بلاطه وعلى مسمعه.

لمحمد اليعلاوي تعقيب جيد عن هذا الشعر، أرى من الموضوعية ذكره، تحقيقاً للفائدة، لأن التنويه بالفكرة الصائبة فضيلة. تعليق اليعلاوي " قد يستغرب القارئ أن يصدر مثل هذا الشعر المرذول عن ابن هانئ شاعر الفاطميين الذي خص ديوانه بمحامد أئمة بني عبيد، وقداسة الإمامة الفاطمية الإسماعيلية، وأحقية آل علي وفاطمة بإرث رسول الله - صلى عليه وسلم - وولاية أمر المسلمين. ولكن تلك الصورة التي حصلت لنا من ابن هانئ الفاطمي المغربي هي الصورة الرسمية الجدية التاريخية... وإلى جانب هذه الصورة الرسمية، قد توجد صورة خفية واقعية تترجم بصدق عن شخصية الشاعر الحقيقية وتكشف عن ميوله وعواطفه وإحساساته وانحرافاتة".<sup>1</sup>

إن خلو ديوانه من تلك الأبيات، قد يُقَوِّي فرضية انتساب الأبيات إليه فعلاً، وأن محبيه من أصحاب مذهبه قد أبعدوا الأبيات لأغراض سياسية ودينية. ويرى أن الانحراف الجنسي يستشف حتى من بعض قصائده الرسمية، كما في مقدمة قصيدته في مدح أبي الفرج الشيباني؛ إذ فيها خلط غريب بين المعاني الحربية والغزل بالمذكر. وقال إن المترجمين له قد انتبهوا إلى ذلك، ولم يستبعدوا كون ذلك سبباً في نفيه من الأندلس، ثم سبباً لقتله في برقة.<sup>2</sup>

وباعتبار هذا النوع من الغزل الشاذ نوعاً من المجاهرة بالانحلال والشذوذ يكون المغرب قد بدأ منذ فجر القرن الرابع الهجري يستقبل بعض الأمراض الاجتماعية والخلقية المنبثقة - أساساً - عن انحراف الدولة وتورطها في تهجين القيم الدينية والاجتماعية في المجتمعات

<sup>1</sup> - محمد اليعلاوي، المرجع السابق، ص 271.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 272.

الإسلامية على اختلاف بناته وأقاليمه . ثم عن تمازج الأجناس بما تضرره من معتقدات وعادات، إلى جانب كثرة الجواري والعبيد.

إن المطلع على ما أنتجه بعض الشعراء المشاركة في هذا الباب من مجاهرة واستهتار حتى بالقيم والشعائر يخلص إلى أن تورط المغاربة في ذلك أمر طبيعي، وقد يعتبر ذلك نوعا من التأثر أو التبعية الثقافية، أو نتيجة لتمازج الأجناس، فلقد أفحش قبل هؤلاء الفرزدق وجرير في هجائهما. وتبعهم في ذلك حتى المتنبي المعروف باعتزازه وترفعه عن كل ما يزري بالمروءة، فقد أفحش كثيرا في هجاء ضبة وأمه الطرطبة. قد نعتبر ذلك أمرا طبيعيا إذا ما استحضرنا أن الشعر مرآة الحياة، والحياة ليست ماثلة في السوي والجميل والمنطق، إنما هي قائمة على أساس من الثنائية<sup>1</sup> التي كانت وستظل إلى أن يشاء الله في صراع حيننا وفي تعايش أحيانا أخرى، ومن ذلك الصراع تستمد الحياة لذتها وحلاوتها فتزداد الأمور السوية نضارة وتألقا، فتلقى من الناس امتداحا وتعلقا. أما الأمور الشاذة، فتلقى من الناس نذا ونفوراً كلما انكشفت مساوئها ومخاطرها للناس أكثر. وتلك سنة الله في خلقه.

من خلال ما تقدم من نماذج شعر الشيعة المنبثق عن القرن الرابع الهجري، يمكن تقديم

الملاحظات التالية:

1 - شعراء الشيعة أكثر جرأة على تفتيق المعاني الأكثر عمقا وطرافة، تأثرا بعقيدتهم

المحتوية لكثير من الفلسفات ذات الأصول المتعددة، بما في ذلك الأساطير القديم ة.

---

<sup>1</sup> - نزعة الثنائية: وجهة نظر تجعل للعالم مبدئين متساويين هما الجوهر والمادة، على عكس النزعة الواحدة التي تدمج المادي والروحي معا. وتقوم الثنائية على الجدل الثنائي، فالزمن منه ليل ونهار، والحياة نقيضها الموت، وتفضي الثنائية إلى المثالية(فلسفة كانط وديكارت ذات نزعة ثنائية) د. عبد المنعم الحفني المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة. ص872.

وكما تأثرت معانيهم بتلك الفلسفات، تأثرت أيضا صورهم وأساليبهم.

ولعل أكبر طابع يجمع بين ذلك كله الفخامة والمبالغات والتهويل في كل أغراضهم

وبخاصة في المدح، مع جزالة الأساليب.

2- وفرة النصوص الشعرية كنتيجة لنبوغ جل أئمتهم في الشعر، و تشجيعهم الشعراء على

الإبداع ماديا ومعنويا، وبخاصة شعر المدح.

3- ندرة شعر الهجاء الموجه إلى جماعة السنة الذين واصلوا هجوهم من بدء ظهورهم

إلى أن رحلوا عن المغرب. وقد يفسر ذلك باحترام الشعراء المنضوين تحت لوائهم للعقيدة

السنية، أو أنهم سنيون دفعتهم الظروف إلى مولاة العبيديين ظاهريا، اتقاء لشرهم أو طمعا

في صلاتهم.

4- بروز مظاهر التحضر والبذخ في أشعارهم؛ كذكر الحواضر، ووصف القصور والخيول

والإبل والأساطيل والجيوش العظيمة، ووصف المجالس وما عليه أصحابها من بذخ.

كل ذلك يبين مدى الثراء الذي كان عليه المغرب في القرون الأربعة الأولى.





**الفصل الأول:**

**شعر نزعة الزهد**

الشعر الموشح بملامح الزهد كمظهر من مظاهر التدين قديم في الشعر العربي،  
تعود أولياته إلى العصر الجاهلي. فقد سجل بعض شعراء الجاهلية شيوع التدين بالحنفية،  
نسبة إلى الحنيفة شرعة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام. من ذلك أبيات أمية بن أبي  
الصلت هذه:<sup>1</sup>

الحمْدُ لله مَمْسَانَا وَمَصْبَحْنَا      بالخير صَبَحْنَا ربي وَمَسَانَا  
ربَّ الحنيفةِ لَمْ تَنْفِدْ خَزَائِنُهَا      مملوءةٌ طبق الآفاق أَشْطَانَا  
ألا نبيِّ لَنَا مَنَّا فيخبرْنَا      ما بعد غايَتِنَا من رأس مَجْرَانَا  
وقد علمْنَا لو أن العلمَ يَنفَعْنَا      أنْ سوفَ تَلْحَقْ أَخْرَانَا بأولَانَا  
وقد عجبْتُ وما بالموتِ من عجبٍ      ما بالُ أحيَانِنَا يَبْكونَ موتَانَا  
يا ربِّ لا تجعلني كافرًا أبداً      واجعلْ سريرةَ قلبي إيمانَا

هذه المقطوعة الشعرية مفعمة بالروح الدينية المسيطرة على قلب الشاعر وروحه  
دلت عليها عبارات: " الحمد لله "، و "صبحنا ربي ومسانا" و "الحنيفة"، و "نبي"،  
و "كافر" و "إيمان". أما من حيث المضمون فهناك أساليب تدل على أن الشاعر يحمل  
روحا إيمانية طامحة إلى مزيد من الإشراق والتنوير. من ذلك "ألا نبي لنا فيخبرنا"  
أسلوب دل على مدى تشوق الشاعر وتشوفه إلى نور يزيح طلاسـم الشرك المغيبة لمعالم  
الحقيقة. وقوله: "علمنا لو أن العلم ينفعنا" أسلوب يؤكد قوة إيمان الشاعر بكثير من الحقائق  
العلوية التي أكسبته روحا زهدية تائقة إلى الأفضل والأدوم اللذين لا يتحققان إلا بالإيمان،

<sup>1</sup> - د. مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، كتاب الشعر، دار الكتاب اللبناني بيروت، ط  
1974/2، ص58.

مما جعله يختم نصح بهذا الأسلوب التضرعي: " يا رب لا تجعلني كافرا ، واجعل سريرة قبيبي إيمانا". نداء لا يصدر إلا عن قلوب الوجلين الآملين في رحمة الله تعالى.

ومن الغريب أن صاحب هذه الروح المفعمة بالإيمان أدرك البعثة المحمدية ولم يسلم !  
و ليس أمية وحده المتحنف في الجاهلية ، فهناك " وكيع بن سلمة الإيادي وعمير بن جندب الجهني وأبو قيس صرمة بن أبي أنس وعلاف بن شهاب التميمي والمثلث بن أمية الكِناني وعبيد بن الأبرص الأسدي وزيد بن عمرو بن نفيل الذي استفاضت الأخبار عن تحنفه...<sup>1</sup>"

ومن شعر هذا الأخير، زيد بن عمرو يتبرأ من تلك الأصنام ، ويعبر عن مقتله لظاهرة الشرك:<sup>2</sup>

أربأً واحداً أم ألفَ ربٍّ      أدينُ إذا تقسّمتِ الأمورُ  
عزلتُ اللاتَ والعزى جميعاً      كذاك يفعل الجُدُّ الصبورُ  
فلا عزى أدينُ ولا ابنتيها      ولا صنمي بني عمرو أزورُ  
ولا غنماً أدين وكان رباً      لنا في الدهر إذ حلمي يسير  
ولكنْ أعبُدُ الرحمنَ ربِّي      ليغفرَ ذنبيَ الربُّ الغفورُ

وبمجيء الإسلام توضحت معالم الإيمان وسنت الشرائع، وقننت العبادات والطاعات وحددت الغايات منها، فأقبل الناس - وهم على بصيرة - على ما اختاروه وارتضوه من أمور الدين والدنيا. فمنهم من اختار الآخرة، ومنهم من اختار الدنيا، ومنهم اختارهما معا.

<sup>1</sup> - المرجع السابق ، ص 59.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه ، ص 60.

والزهد كموقف مشيخ عن زينة الدنيا ومتاعها، والتوق إلى نعيم الآخرة مجسد في حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته الأخيار - رضوان الله عليهم - وتبعه في ذلك جل العلماء الصالحين. وكان له حضور قوي في مختلف ربوع المغرب منذ أواخر القرن الأول وبداية القرن الثاني الهجريين إلى يوم الناس هذا.<sup>1</sup>

وللشعر المغربي حضور مبكر في تسجيل مواقف هؤلاء الزهاد وتصوير حياتهم. فكان غرض الزهد أكثر الأغراض استقطاباً للشعراء، لغلبة نزعة التدين على المجتمع المغربي في القرون الهجرية الأولى، لكون جُل شعراء تلك الفترة من العلماء والفقهاء. ولعل أول نص شعري متميز يطالعنا على صعيد المغرب كان في الزهد والوعظ، قاله الشاعر المغربي، أبو سعيد بن عبدا لله سابق البربري. الذي عاش في الشام، واتصل بالخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي ولي الخلافة عام تسعة وتسعين للهجرة فارجع إليها طابعها الإسلامي، فابتهج لذلك المسلمون في مختلف أقاليمهم فما كان من شاعر المغرب إلا أن بارك تلك العودة بقصيدة رائعة صورت نظرتة الإسلامية للإنسان وللحياة وما بعدها، وما يترتب عن ذلك من مسؤوليات خطيرة. كما صورت مدى تأثيره بالمعاني القرآنية في عملية الإبداع الشعري تأثراً وتوظيفاً توافقاً ومنهج جماعة السنة.

كما صورت أيضاً جوانب كثيرة من شخصية سابق كالجانب الديني والأدبي والاجتماعي وحتى السياسي، وهي في كل ذلك متميزة بالصدق وإخلاص النصيحة لخليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز.

---

<sup>1</sup> - د. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص 74.

بسم الذي أنزلت من عنده السور الحمد لله أما بعد يا عمر  
 إن كنت تعلم ما تأتي وما تذر فكن على حذرٍ قد ينفع الحذر  
 واصبر على القدر المجلوب وارض به وإن أتاك بما لا تشتهي القدر <sup>2</sup>  
 فما صفى لأمري عيشٌ يسر به إلا سيتبع يوماً صفوة الكدر  
 واستخبر الناس عما أنت جاهله إذا عميت فقد يجلو العمى الخبر  
 قد يرعوي المرء يوماً بعد هفوته وتحكم الجاهل الأيام والغير <sup>3</sup>  
 إن التقى خيرٌ زادٍ أنت حامله والبر أفضل شيءٍ ناله البشر  
 من يطلب الجور لا يظفر بحاجته وطالب الحق قد يهدى له الظفر  
 وفي الهدى عبرٌ تُسقى القلوب بها كالغيث ينضر من وسميه الشجر <sup>4</sup>  
 وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله ولا البصير كاعمى ما له بصر  
 لا يُشبع النفس شيءٌ حين تحرزه ولا يزال لها في غيره وطر  
 وكل شيءٍ له حالٌ تُغيره كما تغير لون اللمة الغير <sup>5</sup>  
 ولا يزال وإن كانت بها سعة لها إلى الشيء لم تظفر به نظر  
 والذكر فيه حياة للقلوب كما يحيي البلاد إذا ماتت المطر  
 العلم يجلو العمى عن قلب صاحبه كما يجلي سواد الظلمة القمر <sup>1</sup>

<sup>1</sup> - عبد الله كنون : سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج 44 ، ج 1 ، 2 / كانون الثاني 1969 ص 23-25.

<sup>2</sup> - القدر : القوة والطاقة والاستطاعة، القاموس المحيط ج 2، ص 118.

<sup>3</sup> - يرعوي: ارعوى عن الجهل كف عنه. أنظر المنجد في اللغة والأعلام، ص 268. ، الغير: أحداث الدهر، ج 2، ص 11.

<sup>4</sup> - الوسمي :مطر الربيع الأول ، وتوسم طلب كلاً الوسمي. ج 4، ص 188.

<sup>5</sup> - اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن ، ج 3 ص 732.

لا ينفع الذكّر قلباً قاسياً أبداً وهل يلينُ لقلبِ الواعظِ الحجر

والموتُ جسراً لم ن يمشي على قدمٍ إلى الأمور التي تُخشى وتنتظر  
فهمُ يمرّون أفواجاً وتجمعهم دارُ إليها يصير البدؤ والحضر  
من كان في معقلٍ للحرز أسلمه أو كان في خمير لم ينجبه الخمر<sup>2</sup>

حتى متى أنا في الدنيا أخو كلفٍ في الخدمي إلى لذاتها صعر<sup>3</sup>  
ولا أرى أثراً للذكّر في خلدي و الحبل في الحجر القاسي له أثر  
لو كان يُسهر عيني ذكرُ آخرتي كما يُورقني للعاجل السهر  
إذا لداويتُ قلباً قد أضرب به طولُ السقام و هيضُ العظم ينجبر<sup>4</sup>

ما يلبث الشيء أن يبلى إذا اختلفت يوماً على نفضه الروحات والبكر<sup>5</sup>  
والمرء يصعد ريعان الشباب به وكلُّ مصنعة يوماً ستتحدر  
بيننا يرى الغصنُ لدناً في أرومته ريان صار حطاماً جوّفه نخر<sup>6</sup>  
كم من جُموع أشتّ الدهرُ شملهم وكلّ شملٍ جميع سوف ينتشر  
وكم من أصيد سامي الطرفٍ معتصبٍ بالتاج نيرائه للحرب تستعر<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - يجلو : جلا وأجلى السيف والمرأة جلولاً صقلهما، والهم عنه أذهب، والأمر كشفه. ج 4 ص 314.

<sup>2</sup> - الحرز : العوذة والموضع الحصين. ج 2 ص 178.

<sup>3</sup> - الصعر: من التصعر ميل في الوجه أو في أحد الشقين، أوداء في البعير يلوي عنقه، وصعرّ خده أماله عن النظر إلى الناس تهاونا وتكبيرا. ج 2 ص 71.

<sup>4</sup> - هيض: هاض العظم: كسره بعد جيره فهو مهيبض، والهيضة معاودة الهم والحزن، والمرضة بعد المرضة. ج 2 ص 361.

<sup>5</sup> - الروحات: جمع مفردة روحة، من الرواح من العشي إلى الليل، ومطر العشي. والبكر: جمع بكرة الغدوج. ج 1 ص

233، 390

<sup>6</sup> - لدنا : اللدن اللين من كل شيء. ج 4 ص 268. ، أرومته: الأرومة الأصل والجمع أروم. ج 4 ص 75.

يظلُّ مُفْتَرَشَ الدِّيبَاجِ مُحْتَجِبًا عليه تُبْنَى قَبَابُ الْمَلِكِ وَالْحَجَرِ<sup>2</sup>  
قد غادرته المنايا وهو مُسْتَلَبٌ مُجَدَّلٌ تَرَبُّ الخَدَّيْنِ مُنْعَفِر

أبعدَ آدمَ ترجونَ البقاءَ وهل تبقى فروعٌ لأصلٍ حينَ يَنقَعِر  
لكم بيوتٌ بمُستَنِّ السَّيُولِ وهل يبقى على الماءِ بيتٌ أسَّهَ مَدَر  
إلى الفناءِ وإن طالَت سلا متهم مصيرُ كلِّ بني أنثى وإن كثروا  
إنَّ الأمورَ إذا استقبلتها اشتبَّهت وفي تدبُّرها التَّبيانُ والعِبر  
والمرءُ ما عاشَ في الدنيا له أملٌ إذا انقضَى سفرٌ منها أتى سفر<sup>3</sup>  
لها حلاوةٌ عيشٍ غيرُ دائمةٍ وفي العواقبِ منها المرُّ والصِّبر  
إذا قضت زمرٌ آجالها نزلت على منازلها من بعدها زمر  
وليسَ يزجرُكم ما توعظون به والبَّهْمُ يَزجُرُها الراعي فتتزعج<sup>4</sup>  
أصبحتم جزراً للموت يقبضكم كما البهائمُ في الدنيا لكم جزر

لا تَبْطُرُوا واهجروا الدنيا فإن لها غيبًا وخيمًا وكُفر النعمة البطر<sup>5</sup>  
ثم اقتدوا بالألى كانوا لكم غررا وليس من أمة إلا لها غرر<sup>6</sup>

<sup>1</sup> - الطرف : الكريم الطرفين من الأباء والأمهات ، والكريم من الخيل أو نعت للذكور خاصة ج 3 ص 172.

<sup>2</sup> - الحجر : العقل . ج 2 ص 4.

<sup>3</sup> - السفر : جمع أسفار ضد، وسفر الصبح أضاء وأشرق. يريد يوما بيوما. ج 2 ص 50.

<sup>4</sup> - البهيم : البهيمَةُ أولاد الضأن والمعز والبق. ج 4 ص 83.

<sup>5</sup> - الغيبُ : العاقبة كالمغبة وبالفتح ورد يوم وظمء آخر. وفي الزيارة أن تكون كل أسبوع ج 1 ص 113. البطر: قلة احتمال النعمة، والأشر. ج 1 ص 388.

<sup>6</sup> - الغرر: جمع غرة وغرغرة بياض في الجبهة، وفرس أغر، وتعطى وصفا للرجل الكريم الأفعال. ج 2 ص 104.



حتى تكونوا على منهاج أولكم وتصبروا عدم الدنيا كما صبروا<sup>1</sup>

هذه القصيدة جمعت بين الوعظ والنصح وبين الحكمة والزهد. فقد حذر من الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها، ورجب في الرضا بالمقدور حلوه ومره. كما حث على التبين والتثبت في الأمور مع لزوم التقوى، والإقبال على العلم والاسترشاد بأهله في ما اضطرب العقل فيه. مع تأكيد ذلك بالتمثيل الحي الشائع في الناس شيوع الأمثال. من ذلك: " وفي الهدى... كالغيث ينظر عن وسميه الشجر " وهو تمثيل أمر معنوي لا يدرك بالحواس بشيء يدرك بالجوارح من قبل العام والخاص. وكذلك قوله:

"وليس ذو العلم بالتقوى كجاهله ولا البصير كأعمى ماله بصر"

ومثل:

" لا ينفع الذكر قلبا قاسيا أبدا، وهل يلين لقلب الواعظ الحجر"

والقصيدة مفعمة بهذا التمثيل وبغيره من الصور الحية المؤثرة في النفوس، الأمر الذي يسمو بالقصيدة إلى عيون الشعر العربي وجواهره.

لعل الذي يلاحظ على القصيدة من حيث معانيها وصورها وتناسقها أنها تستحضر لدى القارئ كثيرا من معان القرآن الكريم والحديث الشريف فيما تضمنناه من تمثيل وبيان رائعين. الأمر الذي يخول لنا القول بأن هذه القصيدة نموذج للأدب الإسلامي الأصيل الذي يجمع بين الغايتين؛ النفعية و الإمتاعية.

---

<sup>1</sup> - الأبيات الأربعة الأولى ذكرها ابن قنفذ منسوبة إلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود (ت 102هـ) اعتمادا على أبي الفرج في الأغاني، وأبي تمام في الحماسة. ابن قنفذ القسنطيني: كتاب الوفيات، تح عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 1400/3هـ - 1980م، ص92.

لقد كان العرب يسمون الكلام الجيد الرائع " السحر الحلال " ، ويقولون :  
" اللفظ الجميل من إحدى النفاثات في العقد." <sup>1</sup> قال ابن الرومي علي بن العباس يصف  
حديث امرأة : <sup>2</sup>

وَحَدِيثُهَا السَّحْرُ الْحَلَالُ لَوْ أَنَّهُ لَمْ يَجُنْ قَتْلُ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ <sup>3</sup>  
إِنْ طَالَ لَمْ يُمَلَّلْ، وَإِنْ هِيَ أُوجِزَتْ وَدَّ الْمُحَدَّثُ أَنَّهَا لَمْ تَوْجِزْ  
شَرَكُ الْعُقُولِ ، وَنُزْهَةٌ مَا مِثْلُهَا لِلْمَطْمئنِ ، وَعُقْلَةٌ الْمُسْتَوْفِرِ

وهذه القصيدة زيادة على نضجها الفني المتمثل في روعة صورها وحسن صياغتها  
وصدق عواطفها، فهي قد ترجمت رؤى وأفكارا سليمة يقرها العقل السليم وتؤيدها  
التجارب الإنسانية المختلفة، فلا يسع متأملها إلا أن يقول: صدق حسان بن ثابت -  
رضي الله عنه - في قوله:

وإنَّ أحسنَ بيِّتٍ أنتَ قائلُهُ بيِّتٌ يُقالُ إذا أنشدته: صدَقَا <sup>4</sup>

فالشعر الجامع بين الفكرة الصائبة والصورة الحية المفعملة بالصدق هو الشعر  
الذي يحدث الأثر الحسن الإيجابي في المتلقي، وكذلك كانت قصيدة سابق البربري هذه.  
قلت القصيدة على جانب من النضج الفني يتمثل ذلك في قدرة الشاعر على الجمع بين  
هذا الكم الهائل من الأفكار والرؤى، مع التحكم الكامل في سياق القصيدة لغة وصورة  
وإيقاعا. فمن الجانب اللغوي يلمس ذلك في طواعية الصيغ والأبنية، وفق المعاني

<sup>1</sup> - أبو إسحاق إبراهيم الحصري: زهر الآداب وثمر الألباب ، بشرح الدكتور زكي مبارك ، دار الجيل - بيروت - لبنان

- ط 4 / 1972 ص 40.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه ص 42.

<sup>3</sup> - المتحرز: المتحفظ.

<sup>4</sup> - حسان بن ثابت: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر / 1974، ص 169.

التي أرادها الشاعر. مثل : المجلوب ، والقدر ، واستخبر ، والروحات والبكر ، وهيض ،  
وينقر وغيرها من الصيغ التي زادت من تكثيف المعنى. أما الأبنية فهي شاعرية  
إيقاعية مثل : "وطالب الحق قد يُهدى له الظفر" و " كالغيث ينضر من وسميه  
الشجر" و "يحي البلاد إذا ماتت المطر" و " إذا لداويت قلباً قد أضر به طول السقام  
وهيض العظم ينجر". والحق أن كل عبارات القصيدة رائعة بفضل ما تضمنته من  
فنون التقديم والتأخير والحذف والذكر المتميزة بالعفوية والتلقائية.

يمكن القول أن القصيدة تشخص ظاهرة غلبة التشبيه التمثيلي على ملكة  
الشاعر التصويرية، فقد اطردها هذا التشبيه في القصيدة بشكل ملفت، وبتلقائية  
واضحة، ورد في أكثر من سبعة أبيات بكقوله:

وفي الهدى عبر تُسقى القلوبُ بها كالغيث ينضر عن وسميه الشجرُ

وكذا الأبيات: 10، 15، 16، 17، 25، 28.

وإلى جانب التشبيه التمثيلي هناك التشبيه الضمني في البيت 18، 25.

لا ينفع الذكر قلباً قاسياً أبداً وهل يلين لقلب الواعظ الحجرُ

إذا لداويت قلباً قد أضر به طول السقام وهيض العظم ينجر

فتشبيه القلب القاسي بالحجر مستشف من البيت، وإن لم تظهر وسائله. وكذلك

الأمل في شفاء قلبه العليل بالدنيا مأمول كأمل انجبار العظم الكسير المهيض.

وكما شاع التشبيه بأنواعه في أسلوب سابق شاعت كذلك المقابلة بشكل

ملفت، وقد أدت دوراً تصويرياً رائعاً على مستوى القصيدة، من ذلك البيت:

لو كان يسهر عيني ذكر آخرتي كما يؤرقني للعاجل السهر

هذه المقابلة تكشف حضور الدنيا في قلب الشاعر مقابل غياب الآخرة عنه.  
إن قصيدة سابق البربري هذه حافلة بكثير من ألوان البيان والبديع الموظفة توظيفا  
موفقا بعيدا عن التكلف.

ومن الزهد المأثور عن القرن الثالث قصيدة بكر بن حماد التاهرتي (200- 296 هـ  
816-909م) ، يدعو فيها إلى زيارة المقابر للتأمل واستحضار المصير المنتظر،  
الصَّيْرُورَةَ إلى التراب. اعتمد ذلك كوسيلة لكبح النفس وحملها على الزهد في متاع  
الدنيا الغرور. الأبيات: <sup>1</sup>

قف بالقبور فنادِ الهامدين بها      منْ أعظمِ بليتٍ فيها وأجساد  
قوم تقطعت الأسباب بينهم      من الوصول وصاروا تحت أطواد  
راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا      فلن يروحوا ولن يغدوا لهم غاد  
والله لو رُدُّوا ولو نطقوا      إذا لقالوا : التقى من أفضل الزاد  
فبرَز القوم وامتدت عساكرُهم      كما يُوافوا لميقاتٍ وميعاد  
ما بالقلوبِ حياةٌ بعد غفلتها      والله سبحانه منها بمرصاد  
أين البقاء وهذا الموت يطلبنا      هيهات، هيهات يا بكرين حماد  
بيننا نرى المرء في لهو وفي لعب      حتى نراه على نعش وأعواد  
هذا يباكر دنياه منغصة      فيها حزازات أحشاء وأكباد  
وكلنا واقف منها على سفر      وكلنا ظاعن يحدو به الحادي

<sup>1</sup> - محمد بن رمضان شاوش، والغوثي بن حمدان: إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، طبع وإشهار هـ. داود  
بريكسي، تلمسان، ط1/1422 هـ - 2001م، ص30.

في كل يوم نرى نعشا نشيعه فرائح فارق الأحباب أو غاد  
الموت يهدم ما نبنيه من بذخ فما انتظارك يا بكر بن حماد؟!

استهل الشاعر قصيدته بطلبين: (قف، وناذ) موجهين إلى من قد يستبعد  
المصير الحتمي أو يتناساه، وهو استهلال يستحضر نهاية الإنسان بشكل فجائي،  
إذ الموت غالبا ما يفاجئ الناس. وهو لاشك استهلال فعال ينم عن خبرة الشاعر  
بدلالات الكلمتين وتجذرهما في الخطاب الشعري العربي، فهما مرتبطتان بما  
تحبه النفس وتهواه؛ من وقوف بربوع الأحبة واستقراء ما بقي من ذكرياتهم،  
ومنه بادر الشاعر إلى عرض تفاصيل المصير المنتظر؛ من ثواء في القبر يستتبع  
البلى، مع انقطاع كلي لأسباب التواصل بين أصحاب تلك القبور. إلى الأحوال  
التي تلازمهم من نعيم أبدي أو شقاء دائم.

اعتمد الشاعر في عرض تلك الأفكار أسلوبا بليغ التأثير، أسلوب عتاب النفس  
أو الذات مع الإقرار بالذنب؛ ذنب التعلق بالدنيا والتراخي عن المبادرة بالطاعات.  
"هيهات البقاء يا بكر بن حماد!" و" فم انتظارك يا بكر بن حماد!".

يبدو أن مثل هذا الأسلوب، أسلوب عتاب الذات، بدلا من عتاب الآخر أجدى  
وأنفع، إذ فيه منح المخاطب أو القارئ فرصة استكشاف الذات ومراجعتها على  
غرار نقد الشاعر لنفسه.

رغم استسلام الشاعر للطبع واعتماده التلقائية في التعبير عن تلك الأفكار  
والرؤى، فقد تضمنت القصيدة بعض الصور الممثلة لبعض وسائل التصوير

الفني، من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز وبديع. وهو ما منح القصيدة قوة تأثيرية هائلة. كما يمكن اعتبار هذا الاعتراف والعتاب عاملين يحملان القارئ على تبني موقف الشاعر.

من الصور البيانية الحية في النص هتان الاستعارتان: "الموت يطلبنا" و"الموت يهدم ما نبني من بذخ" صوتان جسدتا أن الموت يراقبنا عن كثب، وأنه فظيع في فتكه بنا وبأمانينا. وكذا التصوير عن طريق الكناية في قوله: "هذا يباكر دنياه منغصة فيها حزازات أحشاء وأكباد" كناية عن ظاهرة الشحناء حتى بين الأقارب من ذوي الأرحام. من تلك الصور هذا التشبيه التمثيلي الذي يصور حتمية الرحيل شئنا أم أبينا: "وكلنا ظاعن يحدو به الحادي". وكلها صور موفقة إلى حد بعيد.

ومن الزهد المأثور عن القرن الرابع الهجري اخترت قصيدة يوسف بن عبيد

الله القفصي التميمي (ت 332 هـ)<sup>1</sup>. يقول:<sup>2</sup>

ومَا الدهرُ إِلَّا لَيْلَةٌ بَعْدَ يَوْمِهَا      وَنَجْمٌ تَرَاهُ طَالِعًا ثَمَّ أَفْلا  
وَقَرْنٌ جَدِيدٌ خَلَفَ قَرْنَ وَدَوْلَةٌ      تَعَاقِبُ أُخْرَى لَا يَزَلْنَ شَوَامِلا  
فَلَوْ صَحَّ لِي عَقْلٌ بِمَا أَنَا وَاصِفٌ      لَبَيْتٌ وَجَنَّبِي لَا يَمَلُّ قَلَاقِلا  
وَلَوْ صَحَّ لِي عَقْلٌ لَحُزْتُ خَلَائِقًا      أَبَارِي بِهِنَّ الصَّالِحِينَ الْأَفَاضِلا  
وَلَوْ كُنْتُ مِنْ دَارِي عَلَى كُنْهِ عِلْمِهَا      وَقَدْ ذَوَّقْتُ مِنْي اللِّهَاءَ حَنَاظِلا  
لَأَعْرَضْتُ عَنْهَا حَيْثُ أَوْلَتْ إِسَاءَةً      وَجَازِيئُهَا بِالصَّاعِ صَاعًا مُكَايِلا

<sup>1</sup> - وصفه المالكي بأنه أحد أعلم أهل زمانه وأفقههم مع أدب بارع وعقل رصين وزهد في كل

ما يتنافس فيه الناس من الدنيا وأسبابها.

<sup>2</sup> - المالكي: رياض النفوس، ج2، ص278-280.

ولو أن لي قلباً يعي لتقطعتُ      علائقُ دنيايَ فبنتنَ زوائلا  
ولو أن لي سمعاً لقد أسمعَ البلى      للبيبتُ منه المُنذراتِ العوادلا  
ولو أن لي عينا ترى ما بدا لها      لأجرتُ بنحري من دموعي جداولا  
ولو أن لي نفساً عليّ عزيزة      لكسبتُها تلكَ الكسوبَ الأمثلا  
ولو أن لي إلفاً حمياً لحادّ بي      عن الرقِّ للدنيا إلى العتق مائلا  
ولو أن لي رأياً يُعاش بمثله      تخيرتُ أحوالاً به ومنازلا  
ولو أن لي سعياً جميلاً لمال بي      إلى الكدِّ حتى يتركَ الجسمَ ناحلا  
ولو أن لي أدنى حياةٍ تهديني      وداعي أتراباً وخدناً مُواصلا  
وفقدتُ ثقةً من حميمٍ وجيرةٍ      تولوا فما عاجوا عليّ الرواحلا  
وفقوا لي أيامَ الحياةِ ولم أفِ      وأصبحتُ عنهم لاهيَ القلبِ ذاهلا  
إذا ذكروا ريعَ الفؤادِ لذكرهم      وهيجَ أشجاناً له وبلايلا  
ولو لم يكن بالوجه مئي صلابةً      لوقرتُ شيباً بالعدارين مائلا  
ولو أن لي حساً لأحسنتُ للبلى      دبيباً بجسمي قد أحلا الشمائلا  
ولو أن لي حزمًا لأعددتُ جنةً      بها أتوقى الحادثاتِ النوازلا  
وما جنةٌ للمُستجنِّ يُعدّها      بأحصنَ أركانٍ وأزكى نوافلا  
من البرِّ إنَّ البرَّ للمرءِ معقلٌ      بعيدٌ من الآفاتِ فاقَ المعاقلا

استهل الشاعر قصيدته بحصر حقيقة الدهر المتمثلة في توالي وتعاقب  
الظواهر الكونية، ليلة إلى ليلة وسنة إلى سنة وقرن إلى قرن، طلوع فأفول،

وأمة تعقب أخرى. وهي أمور تلهم العاقل عبداً وحكماً. ثم انتقل إلى عتاب نفسه لعدم اعتبارها بذلك وإغفالها لكثير من أسباب النجاة، عدد منها خمسة عشر سبباً تشكّل بمجموعها حقيقة الزهد والتقوى. صدرها بحرف "لو" التي هي حرف امتناع لامتناع، أي امتناع الجزاء أو الجواب لامتناع الشرط منها: لو صح عقلي لقلت ليلي، ولنافست الصالحين في خلالهم، ولا عتبرت من كثرة ما سقاني الدهر من حنظله، ولو كان لي قلباً لبكى لهول ما يُنتظر. إن الشاعر إذ يوجه إلى نفسه كل هذا النقد الزاجر فليس من باب الحقيقة والواقع، - إذ الشاعر تقي ورعٌ زاهد - إنما الموجه إليه هو المجتمع المليء بمن فتنتهم الدنيا فوقعوا في أسرها.

ومما تميزت به هذه القصيدة استرسال الشاعر في تكرار صيغة "لو أن لي..." كنوع من الاستجابة لعاطفة الندم، كما أنه استرسال معبر عن صدق الشاعر في عرض تجربته، كما استرسال دال على ثراء فكر الشاعر وسخاء شاعريته في تفتيق المعاني من صيغة بعينها. وهو أسلوب لا يتاح إلا للمطبوعين من الشعراء.

يقول عبد الحميد جيدة عن ظاهرة التكرار: "التكرار دلالات فنية ونفسية يدل على الاهتمام بموضع ما، يشغل البال سلماً كان أم إيجاباً، خيراً أم شراً، جميلاً أم قبيحاً، ويستحوذ هذا الاهتمام على حواس الإنسان وملكاتة... [ثم قال عن العبارة المكررة] وتحمل دفعة شعورية معينة، متناغمة في وقع موسيقي مقسم ومتساو مع لا حقاتها وسابقاتها." <sup>1</sup>

<sup>1</sup> - د. عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل بيروت، ط 1 / 1980 ص 67.



إن أسلوب الاعتراف بالذنب ومعاتبة النفس مطرد في الشعر الديني المغربي، فقد

رأيناه عند سابق البربري، وعند بكر بن حماد، وعند يوسف القفصي وغيرهم.

هذه القصيدة من الزهديات المغربية الراقية معنى وأسلوباً، وجديرة بأن يعرف بها

دراسة وإنشادا.

إن هذه القصائد الثلاثة قد التقت في نقاط واختلفت في أخرى؛ التقت في موضوع

الزهد واختلفت في الزمن المنبثقة عنه؛ فقصيدة سابق صدرت عن رأس القرن الأول. أما

قصيدة بكر بن حماد فتعود إلى العقد التاسع من القرن الثالث. وتعود قصيدة يوسف القفصي

إلى العقد الثالث من القرن الرابع الهجري. كما اختلفت في طريقة العرض والأسلوب وكم

الأفكار التي تضمنتها كل قصيدة. واختلفت كذلك في المستوى الفني.

من الملاحظات التي يمكن تسجيلها عن شعر الزهد في المغرب ما يلي:

1 - شعر الزهد من الأغراض التي استقطبت عدداً من شعراء السنة، سجلوا فيه رصيذاً

معتبراً، تميز بالصدق، لأنه لا يقال إلا استجابة للوازع الديني الهادف إلى رسم

التجارب المتعلقة بحقيقة الإنسان ومصيره، والنفس وأهواءها، أملاً في إنقاذ الإنسان.

فهو شعر ديني مفعم بالإنسانية، يبطل فكرة خلو الشعر العربي القديم من نزعة الإنسانية.<sup>1</sup>

2- الوضوح إحدى أهم سمات شعر الزهد، فهو دعوة إلى العزوف عن متاع الدنيا

ومغرياتها والتمسك بالصالحات، وإقناع النفوس بأن لا شيء باق سوى الحق سبحانه.

3- قوة التأثير، يتجلى ذلك من خلال في سيطرة نزعة الزهد على نفوس كثير من المغاربة،

<sup>1</sup> - د. عيسى الناعوري: مجلة الحياة الثقافية، وزارة الشؤون الثقافية التونسية، عدد 37/36، 1985، ص 30. قال: إن الأكثرية الساحقة من الأدب العربي القديم، والمقلد للقديم، قد خلت من اللمسات الإنسانية..."

وبخاصة في فئة العلماء، وطلاب العلم. يشهد على ذلك كتاب المالكي ، رياض النفوس،  
وكذا كتاب أبي العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس، كما أن استمرار النزعة بقوة عبر  
العصور اللاحقة في المغرب دليل قوة بدايتها. يبين تلك الاستمرارية كتاب أبي القاسم  
محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، وغيره.

الفصل الثاني:

شعر نزع التصوف

التصوف ميل روحي إلى محبة الله عز وجل، محبة مطلقة مجردة من المنافع باستثناء التلذذ بالعبادات التي تتولد عن تلك المحبة، واستشراف الآئه وأنعمه، وكل ما يشعر بالقرب منه عز وجل. وهو درجة بعد الزهد. أو هو الزهد كما أثر عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحابته وتابعيه بإخلاص - رضوان الله عليهم جميعا - فهم القدوة في الورع والتقوى والتقشف في المأكل والمشرب والملبس. يقول محمد مجيد السعيد: "التصوف والزهد متلازمان متداخلان، وليس الزهد سوى مرتبة أولى ومرحلة مبدئية تؤهل للتصوف. [ثم ذكر أن الفرق بينهما كما رآه ابن عربي] " إن الحياة الروحية تتضمن نوعين من المعرفة؛ أحدهما يتألف من الحقائق العقائدية وقواعد الأخلاق الدينية التي تبين للنفس معايير ما يجب عليها اعتقاده وعمله لعبادة الله، وبلوغ السعادة القصوى، والثاني يتألف من مجموع التجارب التي تصل إليها النفس بنور الإيمان تبعا لمقاماتها في المعرفة، وهما سبيل عبادة الله ولهذا فإنه يسمى أولهما - أي الزهد - باسم العلم الرسمي والثاني - أي التصوف - باسم العلم الذوقي."<sup>1</sup>

والنوع الأول مطردا في حياة المسلمين منذ بزوغ فجر الدعوة الإسلامية. ذكر العميد عبد الرزاق نقلا عن المسعودي " أن عمر بن الخطاب كان يلبس جبة الصوف المرقعة بالأديم ويشتمل العباءة. وكان سلمان الفارسي يلبس الصوف. ويقال هذا أيضا عن أبي عبيدة الجراح الذي كان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي."<sup>2</sup>

---

1 - محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، مطابع الرسالة، الكويت (د.ت)، ص 277.

2 - العميد عبد الرزاق محمد أسود: الأديان والمذاهب، مج 3، ص 8.

أما النوع الثاني فلم يظهر في المجتمع الإسلامي إلا خلال القرن الثاني الهجري.  
ذكر العميد عبد الرحمن أسود نقلا عن عبد الرحمن جامي، الشاعر الفارسي أن أول من  
تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الذي ولد في الكوفة وأمضى حياته في الشام وتوفي عام  
160هـ. وأن أول من حدد نظريات التصوف وشرحها ه و ذو النون المصري تلميذ الإمام  
مالك. وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو جنيد البغدادي. والذي دعا إليها من فوق  
المنابر هو الشبلي. ولعل أحسن مثل للتصوف الخالص هي رابعة بنت إسماعيل العدوية<sup>1</sup>.  
من شعرها في محبة الله عز وجل:<sup>2</sup>

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فالجسم مني للجليليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ومن شعرها الذائع الصيت في الناس:

أحبك حبين : حب الهوى وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

إن الباحث عن الشعر الصوفي المتضمن لبعض الفلسفات، والقائم على أساس من

الرمزية قد لا يقف على شيء منه ذي أهمية في المغرب العربي خلال القرون الثلاثة

<sup>1</sup> - هي أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية نسبة إلى (عدي) من بطون (قيس) ولدت في البصرة عام 95هـ وكانت مولاة  
- (لعتيك القيسي) ثم أعتقت. أقامت بالبادية حينما تم استقرت في البصرة. كانت أول أمرها عازفة ثم صدفت عن الزواج  
وانقطعت إلى العبادة بعد مرض برأت منه. كانت تصلي الليل كله. ولا تلبس سوى الصوف وثياب الشعر. توفيت عام  
135هـ. أنظر المرجع السابق (العميد عبد الرزاق الأديان والمذاهب) ص 31.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه ص 9.

الأولى، رغم وجود كم كبير من شعر الزهد الذي عبر فيه شعراء المغرب عن مواقفهم تجاه كثير من قضايا الدين والعقيدة والمصير، والخوف والمحبة والتشوق وغيرها من القضايا ذات العلاقة الوثقى بالتصوف. ولعل ما تضمنه كتاب المالكي (رياض النفوس) من أعلام الزهد والتصوف وما أخبر به عن كراماتهم، وأقوالهم المعبرة عن أشواقهم و مواجدهم إربانية، لخير دليل على غلبة الزهد والتصوف على كثير من علماء المغرب وأدبائه وشيوخه. من ذلك أبو حفص عمر بن عبد الله الفتال، ذكره المالكي ضمن الطبقة الثانية من أهل العبادة والنسك. وقال عنه: "كان من فضلاء المؤمنين ومن الأصفياء المجتبيين ... قد جعل على نفسه ألا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل سميئا، فما رئي ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكلا سميئا، حتى مات رحمه الله تعالى " <sup>1</sup>.

من مناجاته التي تعد من صميم الصوفية، بما تحمله من وجد وانبهار بعظمة الله تعالى: "إلهي، أسألك مسألة مذهوش بهره وقار جلالك، وأسألك حيرة لبيب حصرتة رؤية أفضالك، وأسألك إطراق مفكر لا يدري ما الجواب وقد تقدم إليه إعدارك، وأسألك إخبات خاشع قد ملك عقله إعظامك، وأسألك فلق الوجلين وروعة الخائفين وخلوة المستكين، وأسألك دمة مشربها من ماء معين، لا يفنى مددها، ولا تنفد مجاريها الأحزان، كمثل شجرة (أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها) <sup>2</sup> <sup>3</sup>

لقد وقف إبراهيم الدسوقي جاد الرب على تلك النماذج من شعر الزهد فوصفها بأنها من الشعر الروحي البسيط الذي لا يمكن أن يدرج ضمن الشعر الصوفي. وخص بالذكر من

<sup>1</sup> - المالكي: رياض النفوس. ج 1. ص 197.

<sup>2</sup> - اقتباس من الآيتين 24، 25 من سورة إبراهيم.

<sup>3</sup> - المالكي: رياض النفوس، ج 1، ص 198.

أصحاب تلك النماذج، محل التعليق والتعقيب محمد بن زرزور (ت 291هـ)، وأحمد بن أبي سليمان (ت 291هـ)، وبكر بن حماد التيهرتي (297هـ). فقال في ذلك: " ورأينا ما تيسر لنا من أشعار هؤلاء فإذا هو يدور في دائرة الزهد. إنه شعر ديني ليس فيه مسحة تصوف فلا رمز ولا مصطلح ولا شطح."<sup>1</sup>

لا يمكن لشعر الزهد أن يخلو تماما من بعض المعاني والقضايا الفنية التي يتضمنها الشعر الصوفي، انطلاقا من أن الزهد مرحلة تمهيدية للتصوف، أو لنقل التصوف تفرع عن الزهد الذي هو الأصل. فإذا كان لشعر التصوف سمات وخصائص معلومة لدى ذوي الخبرة في عالم التصوف، فإن تلك السمات قد يتوفر عليها شعر الزهد بكيفية أو أخرى. بل قد نجد تشابها كبيرا بين الفنين، وبخاصة في النصوص الجيدة الأصيلة. إن قولي هذا لا يعني أنني أنفي ما يتميز به التصوف من خصائص، كالرمز وبعض المصطلحات الشائعة والتي لا يمكن أن تحدد معانيها بدقة عند كل الدارسين.

وإذ يستبعد الكاتب التصوف عن الأعلام الثلاثة المتعاصرين، فإنه يقره لأبي عقال ابن غلبون المعاصر لهم والمتوفى في نفس السنة التي توفوا فيها 291هـ. يقول عنه: " ولقد عاصر الثلاثة صوفي مغربي يشبه إبراهيم بن أدهم من ناحية ورابعة العدوية من ناحية أخرى. بدأ حياته مترقا منعما ، وانغمس في اللهو والعبث ثم ارعوى ، وزهد وتصوف فعلا وقولا، وخلف من ورائه أخبارا ذات طرافة، وأشعارا بين أيدينا منها عدة مقطوعات وقصائد تصور أحواله. ذلك الصوفي هو أبو عقال المتوفى 291هـ."<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - د. إبراهيم الدسوقي جاد الرب: شعر المغرب حتى خلافة المعز، ص 153.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 153.

توفي هذا الزاهد بمكة المكرمة، لائذا بها من ذنوبه التي أرقته. فمات بها ساجدا  
خلف المقام في صلاة التراويح.

صورت أخته حقيقة زهده وتبئله ببيتين من أربعة أبيات رثته بها.

البيتان هما:<sup>1</sup>

ليت شعري ما الذي عاينته      بعدَ دَوْمِ الصومِ معَ نَفِي الوَسَنِ  
معَ نزوحِ النفسِ عنِ أوطانِها      منَ نعيمِ وحميمٍ وسكنٍ

زهدٌ وتصوفٌ قاما على أساس مداومة الصوم وهجر المضجع، مع الهجرة  
والاغتراب. من يطلب الزهد أو التصوف من غير هذه الوسائل فقد ضل السبيل  
وأخطأ الهدف. ومنه فإن زهد الأوائل زهد قائم على مجاهدة النفس وقهر الأهواء  
لا على فلسفات كما قد يتبدى للبعض. البيتان مقتطعان من مرثية الزاهدة  
المغربية "مهريّة" لأخيها.

من موضوعات الشعر الصوفي عتاب النفس والتحسر على ما فرطت في جنب الله  
أو عمّا ارتكبته من غوايات، عبّرت عن ذلك أبيات غلبون هذه والتي هي وصف دقيق  
لحياته قبل التزهد والتصوف:<sup>2</sup>

أيا من يرى الرشد في غيه      ويخبط في الداجيات القتادا  
أجب داعي الله لا تعصيه      وخذ لأمانك منك القيادا

<sup>1</sup> - المالكي: رياض النفوس. ج1 ص538.  
<sup>2</sup> - المصدر نفسه، ص539.



ولا تله بالموبقات التي      أبادت بوائقها من تمارى  
وأفرت الربع من أهله      وأبقت حلوف الندامى فرادى  
بلوت الزمان ودست البلاد      ونافست في كل شيء عنادا  
شربت المدام وُسست القيان      ورُضت الجياد، ورُعت الشدادا  
أصيد الغزال وأم الرئال      بطرف أراه يجيد الطرادا  
أسوم البعاد وأهوى اللذاذ      وأظهر في الأرض مبي الفسادا  
إلى أن تناهت حدود القضاء      وأنفذ سُلطانه ما أرادا  
فجلى من القلب إظلامه      وأنور ما كان منه سوادا  
وبأينت ما كنت ألهو به      فأمسى وأصبح عندي سُهادا

هكذا كان حال أبي عقاب يقتنص اللذات بنوع من المعاندة أو الشراهة إلى أن استنير

قلبه ففاء إلى الرشد والصلاح وخلاصة تجربته ينطق به البيت التالي :

فلم أر عيشًا كعيش القنوع      ولم أر مثل التقى لي مرادا

وعن عزمه وجده في توبته ذكر أبو الربيع سليمان بن محمد: " أخبرني محمد بن الكاتب

الرجل الصالح [الفاضل]، قال دخلت المسجد الحرام فإذا أنا بابن غلبون في "الحطيم" قاعدا

فسلم عليّ وعانقني ثم قال لي: " يا ابن الكاتب،

أما والأكفّ الهاديات سلامها      إلى مُذنبٍ لم يستطع أن يُسلما

وتلك الخدودُ البيضُ والأعينُ التي      قضينَ لدعبي أن يفيضَ ويسجما "

ثم قال لي: "يا ابن الكاتب، استمع قولِي في تكفيره " ثم قال: <sup>1</sup>

لأح المشيبُ بِلَمَّتِي فنَعَانِي      ونَفَى الصَّبَا عَنِّي وزَمَّ عَنَانِي  
ونَأَتْ خُطوبُ الحَادِثَاتِ بِأَسْرَتِي      فَبَقَيْتُ مَنفَرِدًا مِنَ الأَقْرَانِ  
فلَنْ مَضَى صَدْرُ الزَّمَانِ بِصَفْوِهِ      فَلأخْذُمَنَّ لِسَيِّدِي المَنَانِ  
ولأقْطَعَنَّ عَلائِقِي مِنْ غَيْرِهِ      حَتَّى أَحَلَّ بِسَاحَةِ المِيدَانِ  
ولأُنْفِيَنَّ مَطَاعِمِي وَمَلاَبِسِي      ولأَمْنَعَنَّ مِنَ الكَلَامِ لِسَانِي  
ولأهْجِرَنَّ أَحِبَّتِي وَمَعَارِفِي      ولأقْطَعَنَّ عِصَابَةَ المُجَانِ  
ولأُبْكِيَنَّ عَلَى الصَّبَا وَلِمَا مَضَى      مِنْ عُرَّتِي فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ  
يَا مَنْ إِلَيْهِ حُسْنُ ظَنِّي قَادِنِي      أَنْتَ المُوَمَّلُ عِنْدَ كُلِّ أَوَانِ  
فَامْنُنْ عَلَيَّ بِمَا أُوَمَّلُ مِنْكَ يَا      مُعْطِي [الجَمِيلِ] وَمُسْدي الإِحْسَانِ

تندرج هذه المقطوعة فيما يعرف بـ " المُمَحَّصَات " <sup>2</sup> لما صدر عن الشاعر أيام الغواية

من أشعار إباحية أو ماجنة. هذه الممحصات تعبير عن الندم، وتصميم على سلوك الدرب القويم، درب مجاهدة النفس وحملها على ما تكره، أملا في الفوز بالمأمول؛ النجاة والفوز.

وهو بهذا في بداية الطريق وفي حال القبض والبسط أو التلوين <sup>3</sup>. جاء في الرسالة

<sup>1</sup> - المالكي: رياض النفوس ج1، ص541.  
<sup>2</sup> - د، إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، دار الثقافة بيروت لبنان، ط7، 1985م ص195. أطلق مصطلح الممحصات على زهديات ابن عبد ربه التي قالها في شيخوخته معارضة أو نقضا لما قاله من غزليات أيام شبابه توبة منه.  
<sup>3</sup> - القبض والبسط: " حالتان، بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف

القشيرية: " التلوين صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، فمادام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف ويخرج من مَرَحَلٍ\* ويحصُلُ في مَرَبَعٍ\*، فإذا وصل تمكن." <sup>1</sup> وفي كل ذلك يصح نعتة بالزيادة أو النقصان.

وقالوا عن التلوين والتمكين: " والتلوين لأرباب القلوب لأنهم بحسب حجب القلوب. وللقلوب تخلص مع ذلك إلى الصفاء، والصفاء يتعدد بتعدد درجاته فيظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد الصفات تلوينا إلى أن يتم الصفاء، ولا تجاوز للقلوب وأربابها عن عالم الصفات. وأما أرباب التمكين فقد خرجوا عن الأحوال، واخترقوا حجب القلوب وباشرت أرواحهم سطوع نور الذات فارتفعت لعدم التغير في الذات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث المتغيرات." <sup>2</sup>

لقد تبين للشاعر من خلال هذه الفلسفة التي انتهجها من أجل تحقيق المؤمل أن ما سوى الطاعات باطل بما في ذلك مواصلة الإخوان. يوضح ذلك قوله السابق:

ولأهجرنّ أحبتي ومعارفي      ولأقطعنّ عصابة المجان

ويؤكد ذلك قوله:

فما ألفة الألاف إلا تشاغل      عن الجد والتشمير في النهي والأمر

هذه رؤية مجرب أضع في مؤانسة الخلان وقتنا ثمينا وخيرا كثيرا، لذلك قرر الاعتزال.

والاعتزال بمعنى الوحدة أو الخلوة مرحلة من مراحل التصوف، وفيها تتحقق للمتصوف

---

( المبتدئ خوفه، وهو المرید) والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف" الرسالة القشيرية، ج1 ص156.

<sup>1</sup> - الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، ج1 ص189. \*مرحل: مكان الرحيل، والمربع: محل الربيع.

<sup>2</sup> - السيد محمود أبو الفيض المنوفي: التصوف الإسلامي الخالص، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة (د.ت) ص170 .

لذة الأُنس بالله تعالى، ويمثل درجة من درجات التصوف.

سئل ذوالنون المصري: ما علامة الأُنس بالله؟ قال: " إذا رأيتهُ يُؤنِسُكَ بخلقه، فإنه

هو ذا يوحِثُكَ من نفسه، وإذا رأيتهُ يوحِثُكَ من خَلْقِهِ فهو ذا يؤنِسُكَ من نفسه." <sup>1</sup>

كل الصالحين من علماء الأمة يؤثرون الوحدة، لأنها أدعى إلى التأمل والتفكير في

ملكوت الله واستحضار عظمته ونعمه.

وعظ العالمُ الزاهدُ، يحيى بنُ عمر (ت 284هـ) بسوسة، وعظ الحسن بن نصر، قاضي

سوسة بقوله: " أكتب عندك: لا ترغب في مصاحبة الإخوان، فكفى بك من ابتليت

بمعرفته أن تحترس منه، انفردوا يا أهل العلم انفردوا." <sup>2</sup> أدرك أبو عقاب دور الغربة

في تحضير الشخص وتهيئته لروحانية الصوفية، فجعلها مبدأ من مبادئ تصوفه.

من شعره المعبر عن لواعجه الصوفية وتشواقه إلى محبوبه، هذه الأبيات: <sup>3</sup>

دعاهُ مِنَ الأوطانِ شوقٌ مُبرِّحٌ      فجادَ عَلَيْهِ دمعُهُ وَهُوَ قاطِرٌ  
عَلَيْهِ لِكِتمانِ المودَّةِ شاهدٌ      من الوجدِ يُبدي ما تجنُّ الضمائر  
عزوفٌ عن الآمالِ بينَ ضلوعه      وبيِّنَ الحشا من لوعَةِ الحُبِّ باتِر  
ألا فعلى الدنيا عفاءً يشوبُهُ      طلاقِي لها ما ساعدتني البصائر  
فإنْ أقبلتْ عليَّ يوماً بوُدِّها      فإني لِمَا تُولي مِنَ اليرِّ كافر  
لعمركَ ما في الدنيا شيءٌ أريدُهُ      سوى أنَّها نزلٌ وأني مُسافر

<sup>1</sup> - د. عامر النجار: التصوف النفسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002، ص 326.

<sup>2</sup> - المالكي: رياض النفوس، ج 1، ص 497.

<sup>3</sup> - المصدر نفسه، ج 1، ص 544.

هذه المقطوعة مفعمة بالحب الصوفي ، عبّر عنه الشاعر بمعان وألفاظ مطردة عند الصوفية، كالشوق والدمع، والكتمان والمشاهدة، والوجد وبين الضلوع، والحشا ولوعة الحب. ولهذه الألفاظ إichاءاتها لدى الصوفية، مع أنها تختلف في مفهومها الدقيق من صوفي لآخر، حسب درجته العلمية، وطبقته الصوفية. كما أن للعصر دوره في تحديد تلك الدلالات. يقول ابن خلدون عن ذلك: "...ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم، إذ الأوضاع اللغوية إنما هي للمعاني المتعارفة. فإذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف، اصطالحنا على التعبير عنه بلفظ يتيسر فهمه منه."<sup>1</sup>

من النصوص المشحونة بالمعاني الصوفية، مقدمة قصيدة سعدون الورجيني في رثاء العالم الصالح يحيى بن عمر (ت 289هـ)، ورغم عدم شيوع الزهد عن سعدون الورجيني ، إذ هو شاعر مداح للملوك ، كان يمدح الأغلبة فلما أفلوا ولّى وجهه نحو العبيديين يمدحهم، فكان أول شاعر مغربي يمدح عبيد الله المهدي أول نزوله القيروان سنة 297هـ. مقدمة قصيدته في رثاء يحيى بن عمر:<sup>2</sup>

عينٌ ألمَّ بها وجدٌ فلم تنم      تبكي بدمع كنظم الدرّ منسجم  
مدامع الصبّ أقلامٌ تحطُّ بها      أيدي الصبابة ما بالقلب من سدَم  
لفظ الضمير لسانُ الدمع ترجمه      حتّى بدا كلُّ سرٍّ فيه منكم

<sup>1</sup> - ابن خلدون: المقدمة ج ص 586.  
<sup>2</sup> - المالكي: رياض النفوس، ج 1 ص 501.

لولا المَدَامِغُ لَمْ يُعَلِّمْ بِلُوعَتِهِ      يُخْفِي تَبَارِيحَ وَجَدٍ غَيْرِ مُنْصَرَمٍ  
وهل تَلَدُّ بَطْعَمِ النُّوْمِ مُقْلَةً مَنْ      كَسَتْهُ كَفُّ الرِّزَايَا حَلَةَ السَّقْمِ  
وكلَّ جَارِحَةٍ مِنْ جِسْمِهِ قَدَحَتْ      فِيهَا يَدُ الْبَثِّ نِيرَانًا مِنَ الْأَلْمِ  
لَمْ يَعْدَمَ الْحُزْنَ إِلَّا أَنْ مُهَجَّتَهُ      قَدْ أَبْدَلَتْ مِنْ سُرُورِ الْعَيْشِ بِالْعَدَمِ  
لا لَوْمَ إِنْ كُنْتُ بَعْدَ الثَّكْلِ لَمْ أَنْمِ      لَوْ ذَاقَ مَنْ لَامَنِي مَا دُقْتُ لَمْ يَنْمِ

ما مصدر هذا التصوف الذي تصدر قصيدة سعدون الورجيني هذه؟ هل استمد من هول فجيعة موت هذا العالم الجليل؟ أم من تقدم سن هذا الشاعر؟ أم أن كلَّ شاعر مهياً للتصوف في أي لحظة؟ كل هذه الاحتمالات صالحة لأن تكون تفسيراً، وبخاصة الاحتمال الأخير، إذ بين الشاعرية والتصوف تداخل بل تكامل؛ يتجلى ذلك في رهافة الحس ويقظة العاطفة، وحدة الذكاء، ونزعة التسامي. ثم أن كليهما موهبة تنم عن طاقات نادرة في مجال الخلق والإبداع أوفي مجال التسامي والتطهر.

قال أبو الوفاء الغنيمي التفتازاني: "التصوف حالات وجدانية خاصة يصعب التعبير عنها بألفاظ اللغة، وليست شيئاً مشتركاً بين الناس جميعاً، ولكل صوفي طريقة معينة في التعبير عن حالاته، فالتصوف إذن خبرة ذاتية، وهذا يجعل منه شيئاً قريباً من الفن. خصوصاً وأن أصحابه يعتمدون في وصف أحوالهم على الاستنباط الذاتي أساساً." <sup>1</sup>

هذا التعريف يصدق على الشعر الحديث كلَّ الصدق، وبإضافة عنصر الوزن يصدق - أيضاً - على الشعر القديم.

<sup>1</sup> - د. سحر سامي: شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب/2005. ص 56.

وقد رأى الدكتور مصطفى هدارة أن العلاقة بين الشعر والتصوف تتمثل في كونهما "استنباطا منظما لتجربة روحية ومحاولة الكشف عن الحقيقة والتجاوز عن الوجود الفعلي للأشياء".<sup>1</sup>

بناء على ما تقدم فإن صدور مثل هذه الفلتات الصوفية عن أي شاعر أمر متوقع خاضع لطبيعة الظروف والتجارب التي يعيشها الشاعر.

ونظرا لهذا التقارب القائم بين التصوف والشعر بل لنقل التكامل، اعتمد الصوفية الشعر وسيلة للحديث عن حالاتهم. يقول د. سحر سامي: "فقد رأت الصوفية في الكتابة الشعرية الوسيلة الأولى للإفصاح عن أسرارها،...وفي هذا استعادة للعلاقة الوثيقة بين الشعر والغيب. لقد استخدم الصوفيون في كلامهم عن الله والوجود والإنسان الفن: الشكل، الأسلوب والرمز، والمجاز، الصورة، الوزن والقافية، والقارئ يتذوق تجاربهم..."<sup>2</sup>

من خلال ما تقدم يمكن تفسير هذه الطفرة التصوفية في قصيدة الوريثيني. بأنها طبيعية، عبرت عن المكمون في نفس الشاعر بالفطرة.

من الشعر المفعم بالروح الصوفية ومعانيها قصيدة ربيع القطان (ت 334هـ) وعمره ست وأربعون سنة. قال عنه المالكي: "كان حافظا لكتاب الله عز وجل، قارئاً له بالروايات عالماً بتفسيره ومعانيه وغريبه، حافظاً لحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عالماً بمعانيه وعلله وغريبه وأسماء رجاله وكناهم وقويهم من ضعيفهم. سمع ممن صحب

<sup>1</sup> - المرجع السابق، ص 58. عن مجلة فصول. الهيئة المصرية للكتاب. مج 1. العدد 4. يوليو. 1981. ص 107.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه ص 57.

سحنون ومن غيره. وسمع بمصر ومكة... و كان [قد] جعل على نفسه ألا يشبع من طعام  
ولا نوم حتى يقطع الله عز وجل دولة بني عبيد. فختم الله تعالى له بالشهادة في  
قتالهم.<sup>1</sup> قال هذه القصيدة في وصف الناسكين:<sup>2</sup>

طورا يصولُ وطورا يألفُ الكمدا صبُّ مشوقٌ يعاني القربَ والبعدا  
ويحي لما حلَّ بالمشتاق من كمدٍ يُبكي الرسومَ فيا ويحي له كمدا  
يا حسنه وسوادُ الليل منسدلٌ فردٌ يلوذُ بمولاهُ وقد سهدا  
يتلو الكتاب بترجيع الخطاب متى مرَّ الشفاءُ على هذا الهوى ركدا  
لو إذ تراه إذا ما الوجدُ خامره أو قد تراه إذا ما حنَّ أو سجدا  
خلت الشمس دياجي عند زهرته أو خلت كل الضياء من نوره صعدا  
يجني الثمار لدى الروضات عرفهم يبيري السقام ويدعو ماجدا صمدا  
حتى إذا حلَّ في صفو الصفاء بدا بادٍ من الحق يُديه إذا شردا<sup>3</sup>  
للعلم أوقفه وقفا بلا جزع ذاق الأمانَ وللإجال قد رعدا  
لما صفا في الوفا غابت حساسية وغاب عنه الذي لولاه ما شهدا  
فالقرب معدنه والغيب مشهده والصحو منهجه للحق منفردا  
صبُّ تراه إذا ما حلَّ ذو لدد يُبدي البيانَ بياناً شافياً مددا<sup>4</sup>  
نطاقٌ بالحق تياءً بلا صلفٍ ثباتٌ نورٍ يرى في لحظه رشدا  
يكفيك وصفهم يا لائمي ديماً لا صبرَ لا صبرَ عن حبي لهم أبدا

<sup>1</sup> - المالكي : مصدر سبق ذكره، ج 2، ص 324.

<sup>2</sup> - المصدر نفسه ، ص 335-336.

<sup>3</sup> - الحلول : مذهب القائلين بأن الله تعالى يحل في الأشخاص الحسية، وهو أيضا الحضورية من القائلين به الحلاج، والبسطامي

د، عبد المنعم الحفني، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 318.

<sup>4</sup> - اللدد: الصبر أو التلبث ، وكذا الحيرة والتلفت . القاموس المحيط، ج 1، ص 374.



مني عليهم سلامُ الله متصلاً ما ناح طَيْرُ السَّما أَوْحَنَ أَوْغردا

في هذه القصيدة وصف لبعض أحوال الصوفي ومعاناته ، فمن هيجان المواجد والمصابرة في مجاهدة النفس إلى مؤالفة الكمد والحزن، وفي الحالين معاناة في القرب وفي البعد، خلافا لما تواضع عليه العشاق من الطرب إلى القرب الذي فيه جَنِّي الوصال. والتفجع والتأوه من البعد الذي فيه تجرغُ مر الفراق. إن دوام معاناة المواجد قد أحال هذا الصوفي إلى أطلال تبكيه أطلال وترثي لحاله الأنام .

فليس التصوف الموصل إلى الأُنس بالله - سهلا بل هو شاق عسير، يتدرج فيه المرید عبر مراحل، أو مقامات يسلم بعضها إلى بعض. ذكر الطوسي منها سبعا هي: <sup>1</sup> مقام التوبة. مقام الورع. مقام الزهد. مقام الفقر. مقام الصبر. مقام التوكل. مقام الرضا. وهذه المقامات تؤدي بدورها إلى أحوال هي: (التأمل - القرب - المحبة - الخوف - الرجاء - الشوق - الأُنس - الطمأنينة - المشاهدة - اليقين" <sup>2</sup>

لقد تضمن النص - ولأول مرة حسب ما وقفت عليه من نصوص القرون الأربعة الأولى - الإشارة إلى جل هذه الأحوال، مضيفا إليها حال المشاهدة الذي هو حصيلة كل المجاهدات التي يتجشمها المتصوفة عبر مختلف المقامات. تضمن ذلك هذا البيت:

حتى إذا حل في صفو الصفاء بدا باد من الحق يدينه إذا شردا

بهذا يكون ربيع القطان - ربما - أول مغربي يعبر عن الأحوال الصوفية بكل أبعادها. من غير أن يبالغ في استعمال معاني الغزل العادي الشائعة بيت الشعراء العشاق، كما عند

<sup>1</sup> - العميد عبد الرزاق محمد أسود: الأديان والمذاهب مج 3، ص 23.  
<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 23.

كثير من الصوفية.

وهذا نص آخر من الشعر المعبر عن مواجد وأشواق الزاهدين لأبي علي

النحوي المكفوف (ت 342هـ) قال:<sup>1</sup>

مراضٌ من الأشواق تحيا قلوبهم    بذكركَ بلُ كادتُ إليكَ تطيرُ  
يُضيءُ ظلامَ الليلِ نورُ قلوبهم    فهمُ للأيالي المظلماتِ بدورُ  
لهمُ طرقٌ كانتُ إلى الله سهلةً    وهيَ على من لا يُحبُّ وُورُ  
يُناجيكَ بالشكوى دُخيلُ ضميرهم    وأنتَ بشكواهمُ لُديكَ خبيرُ  
هُمُ القومُ لا يُلهيهمُ عن مَليكَهم    أعاليلُ دُنيا لِلفناءِ تصيرُ

لقد سلك أبو علي النحوي مسلك ربيع القطان، في التعبير عن مواجد الصوفية مباشرة

من غير اعتماد على بعض ما تواضع عليه المحبون والعشاق، من معاني الغزل الشائعة بين الشعراء العشاق، كما هو عند أغلب الصوفية، وهي معانٍ مطردة في الشعر العربي، جاهليه وإسلاميه.

هذه المقطوعة توفرت على بعض المعاني الصوفية مثل: "يضيء ظلام الليل نور قلوبهم،

لهم طرق إلى الله سهلة، يناجيك دُخيل ضميرهم". الأمر الذي جعلها تتميز عن الغزل

العادي الذي كثيرا ما يلتبس به الغزل الصوفي عند كثير من الشعراء.

من خلال ما تقدم من شعر التصوف، يمكن ملاحظة ما يلي:

1 - ظهرت نزعة التصوف البريئة من الفلسفات الدخيلة عن الإسلام مبكرا في المغرب،

متزامنة مع ظهورها في بقية البئات الإسلامية الأخرى، غير أن الشعر المُحمَلُ بنفحاتها

<sup>1</sup> - المالكي : رياض النفوس، ج2، ص410.

تأخر بعض الشيء، ويمكن اعتبار أشعار أبي عقاب من طلائعه في المغرب.

2 - للقصيد الصوفية ملامحها التي تميزها عن غيرها من فنون الشعر، من أهم ذلك شيوع

المصطلحات الصوفية بكثرة مثل الشوق، الكتمان، المشاهدة، الحول، الصفاء، وغيرها،

وهي اصطلاحات دالة على مواجدهم وأشواقهم للخالق عز وجل .

3- لم تشع بعد في القصيدة الصوفية المغربية - خلال تلك الفترة - مصطلحات المدامة،

والكأس، والساقية والسكر، مما هو شائع في بعض البيئات الأخرى - فيما بعد - وأعتقد أن

البيئة كانت وراء ذلك، فقد سبقت الإشارة إلى سلطة الفقهاء في المغرب وحرصهم على قطع

الشبهات أيا كان مصدرها. وتاريخ الصوفية حافل بانتقادات الفقهاء لهم، انتهى بالبعض منهم

إلى التجريح والاستتابة أو الحد. قال د. عاطف جودة نصر عن طعن الفقهاء على الصوفية: <sup>1</sup>

" وما ذاك عندي إلا لأنهم لم يتذوقوا أحوالهم، ولم يفهموا إشاراتهم ولم ينزلوا في منازل

مواجيد ه م".

- القصيدة الصوفية ممتعة للعامة والخاصة بفضل ما تحتويه من أسمى معاني الحب

والأشواق، يتذوقها العامة بإحائها اللامحدودة. وقد يسقطونها على تجاربهم الخاصة

العادية. أما الخاصة فيستمتعون بها، لأنها تجسيد "لتلك الحالة التي تلتف عن العبارة.

[والتي حملته على تعظيمه]، وإيثار رضاه وقلة الصبر عنه. والاهتياج إليه، وعدم القرار

من دونه. ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه." <sup>2</sup>

هذا بعض ما يمكن استخلاصه عن الشعر الصوفي المغربي خلال تلك الحقبة الزمنية،

(من ق2- ق4ه).

<sup>1</sup> - د. عاطف جودة نصر: شعر عمر بن الفارض، ص 61.

<sup>2</sup> - أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية ج2 ص486.

## الفصل الثالث:

شعر نزع المجون والزندقة

المجون من حيث اللغة: جاء في القاموس المحيط: "مَجَنَ مُجُونًا: صَلَّبَ وَغَلَّظَ وَمَنَّهُ

الماجِنَ لَمَن لَّا يَبَالِي قَوْلًا وَفِعْلًا، كَأَنَّهُ صَلَّبَ الْوَجْهَ، وَقَدْ مَجَّنَ مُجُونًا وَ مَجَانَّةً وَمُجْنًا،

وَطَرِيقٌ مُمَجَّنٌ مَمْدُودٌ."<sup>1</sup>

ومن حيث المدلول الاصطلاحي لكلمة المجون، لم أقف على تعريف محدد لها، ولكن من خلال ما قيل عن الزهد والتعبد يستشف أن المجون نقيضهما، ويرتبط بالفئات المنحرفة عن القيم الدينية، والاجتماعية فاتخذت من إدمان الخمر وسماع القيان ومجالستهن ديننا ومنهاجا. وهو ظاهرة اجتماعية سلبية عرفها المجتمع العربي - كغيره من المجتمعات - منذ القديم. ولها في الشعر العربي جاهليه وإسلاميه نماذج تشهد أن فئة المجان قد غلبت على أمرها فانقادت لهوى النفس، فأضاعت أعمارها بين الزق والعود. لا يزرها عن ذلك زاجر.

لقد ازداد المجون انتشارا في المشرق الإسلامي بشكل ملفت مع بداية الحكم العباسي

إن لم يكن قبله بقليل، كحتمية فرضتها مجموعة من العوامل لعل أهمها:<sup>2</sup>

- وفرة المال وانتشار البذخ نتيجة اتساع رقعة الخلافة وكثرة الروافد المادية.

- ضعف الوازع الديني وبخاصة لدى الخلفاء وحاشيتهم.

- كثرة الرقيق والجواري من مختلف الأصناف والأجناس.

- انتشار الغناء وكلفُ الناس به، وإقبالهم على تعلمه بما في ذلك بعض أبناء الخلفاء.

- امتزاج الأجناس مع وفرة الحريات وبخاصة للفرس منهم .

<sup>1</sup> - الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ج4، ص272.

<sup>2</sup> - شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف مصر، ط6 (د.ت) ص56-64.

كل هذه العوامل تعاونت مجتمعة على إشاعة المجون في المجتمع الإسلامي. ولعل العامل المباشر والأخطر هو إفتاء بعض علماء الأحناف بإباحة بعض الأنبذة ورفع الحرمة عنها والحرص. يقول في ذلك شوقي ضيف: " اجتهد بعض فقهاء العراق الأحناف أدهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة ، كنبذ التمر والعسل والتين والبر وكالزبيب المطبخ أدنى طبخ. فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء، وتجاوزوا ما حله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها."<sup>1</sup>

وقد أشار إلى هذا التساهل في قضايا الدين أحد الشعراء الخوارج بأبياته السابقة<sup>2</sup>. ومن الشعر المعبر عن تلك الفتوى التي أوقعت الناس في المحذور من الأمر، أبيات ابن الرومي هذه:<sup>3</sup>

أَبَاحَ الْعِرَاقِيِّ النَّبِيذَ وَشَرِبَهُ      وَقَالَ حَرَامَانَ: الْمَدَامَةُ وَالسَّكْرُ  
وَقَالَ الْحَجَازِيِّ: الشَّرَابَانِ وَاحِدٌ      فَحُلٌّ لَنَا مِنْ بَيْنِ قَوْلَيْهَا الْخَمْرُ<sup>4</sup>  
سَأَخَذُ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرْفَيْهِمَا      وَأَشْرَبُهَا لَا فَارَقَ الْوَأَزَرَ الْوَزْرُ

هكذا يكون الاجتهاد في المتشابه من أمور الدين خطرا على المجتمعات في كل عصر ومصر، فقد كان التسامح في شرب بعض الأنبذة ذريعة للمجان في شربهم الخمر.

وعن تلك الموجة العارمة من الفساد العلني التي أصيب بها المجتمع الإسلامي.

<sup>1</sup> - د. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمصر، ط 2 (د.ت) ص 91.  
<sup>2</sup> - الأبيات تعرض بتسامح الأئمة الأربعة في أمور الدين. الأبيات في صفحة 200 من هذا البحث.  
<sup>3</sup> - شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، ص 91.  
<sup>4</sup> - يقصد الشاعر بالعراقي أبا حنيفة وبالحجازي الإمام الشافعي.

يقول شوقي ضيف: " ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في بغداد ولا في الكوفة ولا في البصرة سري إلا عمل على أن يقتني قينة أوقيانا يُشعِنُ المرح في داره...، وكان الشعراء وغيرهم من فتيان بغداد يزورونهن في دور أصحابهن من المقينين، وكانت أشبه بنواد كبيرة للغناء والموسيقى، فالناس يذهبون إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وعلى كل لون، وكثيراً ما كان يقع الشعراء في حب بعض الجواري المكتملات الخلق الجميلات الجسد..."<sup>1</sup>

هذه بعض العوامل التي كانت وراء انتشار ظاهرة المجون في المجتمع الإسلامي، والتي شكلت مع تيار الزهد ثنائية من ثنائيات الحياة التي اقتضتها حكمة الله جل جلاله. إن الباحث عن ظاهرة المجون في الشعر المغربي سيفاجأ بندرته وبخاصة في القرون الثلاثة الأولى، مما يعني أن المجون لم يشع بعد في المجتمع المغربي، وأن القلة التي تبنته لم تجرؤ على البوح به كما في بعض الأقاليم الإسلامية حيث استطار شره. ولندرة المجون في المغرب الإسلامي أسبابٌ لعل من أهمها:

- طبيعة المجتمع المغربي الميل إلى الجد ونبذ كل مظاهر الفساد ومحاربتة وإن بدر من سريّ أو أمير.

- حرص العلماء على تطبيق مبادئ الشريعة وتفعيل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسرفي تمكنهم من ذلك وقوف عامة الناس إلى جانبهم. وقد اعتبرت كل شعر يتجرأ على القيم الدينية والاجتماعية مجوناً، كالمجاهرة بالفسق والترغيب فيه، أو القول بما يخالف العقيدة الإسلامية الصحيحة.

---

<sup>1</sup> - د شوقي ضيف : العصر العباسي الأول، ص 62.

ومن الشعر الذي يتغنى بالخمرة ويستهتر بشعيرة الأذان هذه الأبيات لابن القيني<sup>1</sup>،

علي بن سعيد:<sup>2</sup>

شربنا والقناني مُتر عاتٍ      وشمسُ الأفق تطلبُ العشيَّ<sup>3</sup>  
أعاطي باليمين شُمولَ راح      أراحتني وقد غلبتُ عليَّ  
إلى أن راعني صوتُ المُنادي      بحيَّ على الصلَاة ففمْتُ حيَّا  
ولو لا "الصَّادُ" لم أعها ولكن      تخيلتُ الصَّبوحَ بمسمَعِيَّا

الأبيات تعبير عن نزعة المجون والاستهتار بالقيم الإجتماعية والدينية، من ذلك الإفراط في الشرب، عبر عن ذلك بطول المدة المستغرقة في الشرب، من المساء إلى الصباح، كله سكر في سكر، إلى أن نادى المؤذن للصلاة. ومن المعاني ذات الطابع الاستهتاري بالدين، قراءته لكلمة الصلاة الواردة في شعيرة الأذان صَبُوحًا، لاشتراكهما في حرف الصاد. الذي لولاه لما استفاق من سكره، وهي قراءة تكشف عن مجون الرجل وأسلوبه الشيطاني الذي لاشك تارك في النفوس المريضة صداها. بفضل ما توفرت عليه الأبيات من قيم فنية رائعة تتمثل في جزالة أسلوب الشاعر مبنى ومعنى وصورة. من ذلك: "وشمس الأفق تطلب العشيًا" وقوله "أعاطي باليمين شمول راح أراحتني" و "إلى أن راعني صوت المنادي بحي... ففمْتُ حيًا".

<sup>1</sup> - وصف ابن رشيق الشاعر بالشهرة والطف والفكاهة واختلاق الحكايات وظرف النادرة، وقتل مع الراضة في باغاية سنة 409 هـ. الذين يناقشهم ويزرى بهم. نسبت إليه قصيدة في هجاء السنة وفيها كفر صريح وسب شنيع في النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأزواجه - رضي الله عنهم. مطلعها:  
الجهاد الجهاد قوموا حمية      قد تمادت في هرما المالكية ،هَرَّ: الكُرهُ وصوت الكلب دون نباحه.

أنظر ابن رشيق: الأنموذج ص 287.

<sup>2</sup> - ابن رشيق: المصدر نفسه، ص 288.

<sup>3</sup> - القناني، جمع قنينة، إناء من زجاج للشراب. القاموس المحيط، ج 4 ص 263.  
مترعات: ممثلات أو ملأى. القاموس المحيط ج 3، ص 9



عبقرية نادرة تمثلت في حسن المواءمة بين أشطر كل الأبيات، ببديع نسيجها وهو ما دل على قدرة شاعرية ابن القيني وقدرته على الابتكار. من ذلك المجانسة في العبارة: شمول راح أراحتني، بين الاسم والفعل. وفي العبارة: بحي على الصلاة ففقت حيا، بين اسم الفعل حيّ والحال، حيّا. ورد ذلك بتلقائية تامة.

ومن الشعر المتعلق بوصف الخمر وساقبها وصفا بارعا هذه الأبيات لعبد الملك بن محمد التميمي الملقب بالدركّادو. وصفه ابن رشيق شعره بالمطبوع.

الأبيات:<sup>1</sup>

من قهوةٍ كانواها لهبٌ      في حين يخبو النورُ ما تخبو  
تأتيك وسطُ القعبِ مائلةً      وكأنما في وسطها القعب  
نهكتُ فأعيتُ من ضآلتها      بحبابها فلهُ بها رسب  
يسعى بها مَنْ ملءُ وجنته      سلمٌ وملءُ جفونه حرُب  
أردأفه خفضٌ بوجهٍ إضافه      للخصرِ الدقيقِ وقدّه نصب<sup>2</sup>

قدم ابن رشيق لهذا الشعر الوصفي بقوله: " وهو من أبدع ما قيل في رقة الخمر "

وبالفعل فالوصف رائع بفضل ما تضمنته من معان باهرة كدوام شعاعها وإن خبت

الأنوار. وهي وإن احتواها القعب فمن إشعاعها تبدو كأنما هي التي احتوته، وهي غلابة

<sup>1</sup> - المرجع السابق ص 223.

<sup>2</sup> - القعب: القدح الضخم يروي الرجل، نهكت: غلبت وأضنت. القاموس المحيط ج 3، ص 332. رسب: في الماء ذهب سفلا، والرّسوب الكمرّة والسيوف يغيّب في الضريبة، والرّسب وكصرّد سيف وسيف رسول الله (صلى الله عليه وسلم أو هو من السيوف السبعة التي أهدت بلقيس لسليمان عليه السلام، والرجل الحليم، وجبل راسب ثابت، وفي البيت تعني رسوب الحباب أسفل القدح. القاموس المحيط ج 1، ص 75.

لصاحبها وإن قلت أو خفت.

وأما عن ساقبها فقد صوره آية في الجمال، وحسبه الجمعُ بين نقيضين، السلم والحرب؛ فالسلم يرمز إليه خده الوردِي، والورد شعار السلام. وأما الحرب فترمز إليه أهدابه التي تفعل في قلوب رواده فعل السهام. وتشبيهه أهداب العيون بالسهام مطرد في الشعر العربي جاهليه وإسلاميه، وهو من التشبيهات المستساغة لدى خاصة الناس وعامتهم. أما عن القوام والأرداف والخصر فهو آية في التناسق.

من الشعر المجاهر بالمجانة والتهتك هذه الأبيات لعلي بن عطاء، أبي الحسن التمدجاني، وصفه ابن رشيقي بقوله: "كان شاعرا مشتهرا بالمجانة سكيلا لا يكاد يرى صاحبا البتة سلك طريق أبي الرقعمق<sup>1</sup> في التهتك والتهكم والتحامق، وصحبه بمصر مدة طويلة ثم رجع فاستحسن الإقامة بجزيرة صقلية لما فيها من شراب حتى توفي سنة ثمانية عشرة وأربعمائة وقد أسن وشاخ. وكان أعرج وفي نفسه يقول"<sup>2</sup>:

تبديتُ إلى الناس فقالوا: أنتَ إبليسُ

رأوا شيخاً قبيحَ الوجهِ هـ في طمرٍه تدنيس<sup>3</sup>

ورجلٌ فعلها في الأر ض مالا تفعل الفوس

فلما استنبتوا أمري وأمري فيه تلبيس

رموني بالذي في وقالوا: إنه بيس<sup>4</sup>

فقلتُ: الحسنُ محمودٌ هَبَّوا أنِّي طاووس

<sup>1</sup> - هو أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي شاعر فكه تصرف بالشعر جدا وهزلا، أقام بمصر ومدح ملوكها .

توفي سنة 399 هـ (التعريف من هامش انموذجص 292).

<sup>2</sup> - ابن رشيقي: المصدر السابق ص 292.

<sup>3</sup> - الطمر: الثوب الخلق أو الكساء البالي. القاموس المحيط، ج 2، ص 81.

<sup>4</sup> - بيس: المتكبر، المعجم السابق ج 2، ص 209.

وصف الشاعر لبعض المستبشع في خلّقه أو خلّقه على سبيل التندر والفكاهة وورد في الشعر العربي ، وهو مستظرف إلى حد ما كالذي قاله الحطيئة في نفسه<sup>1</sup> . أما المجاهرة بالفسق وفساد العقيدة وتعمد الفساد في الأرض، فذلك المجون والزندقة. كالذي تضمنته أبيات بن عطاء، والذي هو عبارة عن اعترافات سلوكية وعقائدية خطيرة، فهو شيخ دنس كإبليس في أفعاله، فاسد العقيدة.

إن الأبيات كشفت عن شخصية شذت في سلوكها عن المؤلف في مثل هذا السن، كما كشفت عن مدى ضعف سلطة القضاء في جزيرة صقلية، ومدى ما فيها من حريات في السلوك والمعتقد. وهو ما أشار إليه ابن رشيق في سراختيار الشاعر العيش في تلك الجزيرة. إذ التصريح بالزندقة يستوجب الحد في البئات التي يتمتع فيها القضاء بالصحة. والأبيات مع تفاهة مضمونها الفكري فهي تفتقر إلى عناصر الشعر؛ من لغة راقية وصور حية وفنون بديعية خلابة، لذلك فهي نظم مستثقل مستكره. وما أوردها ابن رشيق - وهو الناقد البصير بالشعر - إلا لتكون نموذجا للشعر الذي تأخر لفضا ومعنى ، على رأي ابن قتيبة<sup>2</sup> وإن لم يشر إلى ذلك، أو أنه أوردها ليبين مدى انتشار المجون في بعض البئات.

ومن الشعر الذي قيل في وصف الخمرة وصفا بديعا يبين مدى تمكنها من نفس الشاعر. ومن بعض الطبقات الأرستقراطية في المغرب خلال القرن الرابع، فصار لها كما في

المشرق أندية وسقاة وندماء، هذه الأبيات لابن قاضي ميلة:<sup>1</sup> (كامل)

<sup>1</sup> - مما هجا به نفسه : أبت شفتاي اليوم إلا تكلمنا بشر فما أدري لمن أنا قائله  
أرى لي وجهها قبح الله خلقه فقبح من وجهه وقبح حامله

جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة بيروت، ط 2 / 1978. مج 1 ص 148.

<sup>2</sup> - قسم ابن قتيبة الشعر إلى أربعة أضرب ؛ ضرب حسن لفظه وجاد معناه، وضرب حسن لفظه وتأخر معناه، وضرب حسن معناه وتأخر لفظه، وضرب تأخر لفظه وتأخر معناه. الشعر والشعراء ص 3.

ومدامة عني الرضابُ بمزجها      فأطابها وأدارها التقبيلُ  
ذهبية ذهبَ الزمانُ بجسمها      قدماً فليسَ لوصفها تحصيلُ  
بتنا ونحنُ على الفرات نديرُها      وهناً فأشرقَ من سناها النيلُ  
فكانها شمسٌ وكفُ مديرها      فينا ضحَى وفمُ النديم أصيلُ

الأبيات غاية في الروعة تعكس مدى التطور الذي مسَّ فن الشعر في المغرب خلال القرن الرابع، وهو تطور يبين أن شعراء المغرب واكبوا الحركات الفكرية والفنية التي تولدت عن المد الإسلامي شرقاً وغرباً، وقدرته على تفعيل مختلف الثقافات والحضارات تفعيلًا منتجًا لحضارة إسلامية جديدة، تحمل في أغلب الأحيان بصماته، وتخضع لمبادئه إلا ما كان من بعض الفلتات، كظاهرة المجون التي عبرت عن بعض الفئات التي غلب عليها الهوى فباحت بالمحذور، والبوح بالمحذور من قبل الشعراء مطرد، ومتجاوز عن حد ما، بنسب متفاوتة من عصر إلى آخر ومن بيئة إلى بيئة. لذلك فكثير من الأشعار التي قيلت في الخمر والغزل والهجاء، رُويت أو دُوِّنت من قبل علماء أجراء ورجال دين ورعين. رغم كونها مما قد يتحرج منه.

إن مظاهر روعة هذه الأبيات تتمثل في جزالة أسلوبها وتناسق معانيها، فقد استحضرت نكهة الخمرة وطيبها في ذهن الشاعر طيب الرضاب، بل لقد قال بامتزاجها به، وعن رقتها وعتقها قال: إنها عزت عن الوصف. عبر عن ذلك بهذا

<sup>1</sup> - ابن رشيق: انموذج، ص 214.

التجنيس الرائع "ذهبية ذهب الزمان بجسمها"، كما أبدع الشاعر في البيت الأخير من المقطوعة بتضمينه ثلاث تشبيهات متجانسة تجانسا رائعا فقد شبه صفاء الخمرة بالشمس، وشبه كفّ ساقها بالضحى لبياضه، ومبسم النديم بالأصيل. وتحس أنها أي التشبيهات وليدة التلقائية والطبع الأصيل، فهو - حقا - في مستوى الوصف الذي وصفه به ابن رشيق، فقد قال عنه: "شاعر لسن مقتدر، يؤثر الاستعارة، ويكثر الزجر والعيافة، ويسلك طريق ابن أبي ربيعة وأصحابه في نظم الأقوال والحكايات. وله في الشعر قدم سابقة ومجال متسع وربما بلغ الإغراق والتعمق إلى فوق الواجب..."<sup>1</sup>

ولابن قاضي ميلة أشعار مثبتة في كثير من المصادر تدل على أنه شاعر من شعراء المغرب الكبار المطبوعين. الأمر الذي يؤكد مصداقية الأحكام النقدية التي أطلقها ابن رشيق على الشعراء الذين أورد لهم في كتابه: أنموذج الزمان في شعراء القيروان. وهو كتاب على جانب من الأهمية. لما فيه من إمام بشعراء القيروان ومن حل بها من شعراء مختلف مناطق المغرب، وابن رشيق واحد من الحاليين بها، فمنهم من أقام بها حتى الممات، ومنهم من غادرها إلى حواضر أخرى من حواضر العالم الإسلامي غربا وشرقا.

من موضوعات شعر المجون التغزل بالمذكر وإن لم ينتشر انتشاره في البئات الأخرى. وأكثر المتهمين في التضلع فيه الحسن بن هانئ.

أما عن الزندقة التي هي اختلاق دين أو ادعاء نبوة أو الابتداع في الإسلام بالنقص أو الزيادة فلم أقف على شيء من الشعر المعبر عن ذلك عدا ما قيل في هجاء بعض من اتهم

---

<sup>1</sup> - المصدر السابق، ص 209.

بالزندقة كصالح بن طريف البرغواطي الذي اتهم بادعاء النبوة في قبيلته. ذكر البكري في المسالك أن طريفا والد صالح كان من أصحاب ميسرة المدغري وأنه صار بعد مقتل ميسرة ملكا لزناتة وزواغة وقد مات على الإسلام، فخلفه في الزعامة من أبنائه الأربعة ابنه صالح، "وكان من أهل العلم والخير فيهم ثم انسلخ من آيات الله، وانتحل دعوى النبوة، وشرع لهم الديانة التي كانوا عليها من بعده."<sup>1</sup>

وقد شهد هذا المتنبى مع والده حرب ميسرة المدغري لأمرأ بني أمية في المغرب، مما يعني أنه كا من الخوارج الصفرية.

قال البكري إن صالح لم يعلن نبوءته ودينه في الناس، وإنما عهد بهما إلى ولده إلياس، وخرج إلى المشرق موصيا أياه بإظهارهما حين يقوى أمره وأن يقاتل كل من خالفه. مات إلياس بعد خمسين سنة من الحكم، ولم يعلن عن نبوة أبيه ودينه، فعهد بهما لولده يونس، فأعلنهما في الناس، وقتل كل من خالفه، حتى قيل أنه أخلى ثلاثمائة وسبعا وثمانين مدينة من أهلها قتلا. دام حكمه أربعاً وأربعين سنة. ارتكب فيها من المجازر ما يرهب ذكره.<sup>2</sup>

تولى أمر هذه الديانة بعد يونس بن إلياس أبو غفيرة يحمى بن معاذ، أحد أبناء عمومته، وكانت له هو الآخر مجازر فظيعة في الناس.<sup>3</sup> منها وقعة (بَهْت) التي ورد ذكرها في قصيدة سعيد بن هشام المصمودي التالية:<sup>4</sup>

<sup>1</sup> - الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، ص 173 نقلا عن ابن خلدون تاريخ البربر ج 1 ص 275.

انظر البكري : المسالك والممالك ، ج 2، ص 319.

<sup>2</sup> - البكري : المسالك والممالك ، ص 20، 19 بتصرف.

<sup>3</sup> - قال البكري : "كانت له وقائع كثيرة في البربر مشهورة لا تنسى مع الأيام منها وقعة تيمغيسن، وكانت مدينة عظيمة

، أقام القتل في أهلها ثمانية أيام من الخميس إلى الخميس حتى شرقت دورهم ورحابهم وسككهم بدمائهم، ومنها وقعة

بموضع، يقال له بهت عجز الإحصاء عن عدد من قتل فيها". المسالك ص 320.

<sup>4</sup> - البكري : المسالك والممالك، ص 322.

قفي قبل التفرق فاخبرينا      وقولي واخبري خبرا مبينا  
 هُمومُ برابِرَ خسروا وضلوا      وخابوا لا سُقوا ماءً مَعينا  
 الأيْمُ أمةٌ هَلَكْتُ وضَلتُ      وزاغتُ عن سبيلِ المسلمينا  
 يقولون النبي أبو غَفير<sup>1</sup>      فأخزى الله أم الكاذبينا  
 ألم تسمع ولم ترَ يومَ بهتِ      على أثارِ خيلهم رَينا  
 رَنينَ الباكياتِ فَبِينَ ثَكلِي      وعَاويَةَ ومُسقطَةَ جَينَا  
 سيعلمُ قومُ تامسَني<sup>2</sup> إذا ما      أتوا يومَ النَّشورِ مُهَيِّمينا  
 هناكِ يونسُ وبنو أبيه      يقودون البرابِرَ مُهطِعينَا  
 إذا وريا ورَى زَمَّتْ عليهم      جهنُّمُ قائدَ المُستكبرينا  
 فليسَ اليومَ رَدَّتْكمُ ولكنْ      لياليَ كُنْتُمْ مُتَمَيِّسرينَا<sup>3</sup>

هذه أبيات مختارة من قصيدة طويلة كما أخبر بذلك البكري. وتعد وثيقة مهمة في تاريخ المغرب الإسلامي خلال القرن الثالث والرابع من الهجرة، وما طرأ عليه من محن وأحداث لم تسلم خلالها حتى العقيدة. فهي هجاء لمدعي النبوة من البرغواطيين وأتباعهم. وممالا شك فيه أن كثيرا مما نسب إلى صالح بن طريف ومن خلفه في زعامة برغواطيه مختلق، أو على الأقل مبالغ فيه من قبل بعض المغرضين، إما لأسباب سياسية أو دينية

<sup>1</sup> - هو محمد بن معاد بن اليسع بن صالح بن طريف، استولى على الملك ودان بدين آبائه.  
<sup>2</sup> - تامسنا: كما ذكر الإدريسي قبيلة بربرية كبيرة من فروعها برغواطيه ومطماطة وبنوتسلت وبنو ويغمران وزقارة وبعض من زناتة. انظر: الإدريسي: المغرب العربي ص 87.  
<sup>3</sup> - متميسرين: أي من أتباع ميسرة المدغري.

مذهبية. كما أن للشعبوية دورها في ذلك، وبخاصة في المناطق التي احتدم الصراع فيها بين العصبية من أجل السلطة.

ذكر محقق كتاب المسالك والممالك، الدكتور جمال طلبة: أن الدكتور حسين مؤنس استبعد الكثير مما يُدعى على صالح بن طريف، ويرى أن خروجه إلى المشرق كان لأجل الحج، وأنه اختلف بطريقة ما، وأن ابنه أشاع تلك الشائعات<sup>1</sup> ليتمكن من الحكم والسيطرة على عقول أتباعه.<sup>2</sup>

إن فكرة الإشاعة المغرضة هي الأرجح والأقرب إلى المنطق، كما أن تغليب حسين مؤنس غياب صالح لأمر ما، أكثر معقولة وواقعية؛ فعيون العباسيين في كل مكان وما جرى لإدريس الأول والثاني، وهما بالمغرب لا يستبعد تكراره مع أي كان، وبخاصة في الأقاليم القريبة من مركز سلطانهم. كما أن المساس بقدسية الدين من أكبر التهم التي تنفر الأتباع عن متبوعهم.

وعليه فالتحري واجب في مثل هذه القضايا المتعلقة بتاريخ بعض الشعوب، وبخاصة حين يتعلق الأمر بالمناهضين للسلطة القائمة، أو الطامحين إلى تأسيس إمارات أو دول، وكذلك بالنسبة إلى الراغبين في تأصيل مذهب مغاير لما عليه جمهور الناس في إقليم ما. من ذلك موقف المالكية في المغرب من الأحناف، ومن المعتزلة.

إن البيت الأخير ينطق بالدافع الأساسي لهذا الهجاء، وهو دعم تلك القبائل لثورة ميسرة

---

<sup>1</sup> - من تلك الشائعات أنهم يصومون رجب بدلا من رمضان، والتضحية يوم الحادي عشر من المحرم، وفي الوضوء غسل الصرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والرقفا وغسل الرجلين من الركبتين، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود وبعضها كصلاة المسلمين. ويجمعون يوم الخميس ضحى ويتزوجون من النساء ما استطاعوا مباعلتهم، وهم يقتلون السارق إن أقر، ويرجمون الزاني وينفى الكاذب، والدية مائة بقرة، والبيض حرام والدجاج مكروه، وليس عندهم آذان ولا إقامة، وقرآنهم ثمانون سورة أكثرها منسوب إلى أنبياء أولها أيوب وآخرها يونس. المسالك والممالك ص 322-323.

<sup>2</sup> - البكري: المسالك والممالك، هامش ص 319.



التي رآها الشاعر ردة. في حين يراها البعض ثورة على ظلم أمراء بني أمية للمغاربة عامة والبربر خاصة. قال الطبري: " وما زال أهل المغرب من أسمح أهل البلدان، وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك. فلما دب إليهم أهل العراق واستثاروهم، قالوا:

إننا لا نخالف الأئمة بما تجني العمال، ولا نحمل ذلك عليهم. قالوا إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك. قالوا: لا نقبل حتى نخبرهم. فخرج ميسرة المدغري في بضعة عشر إنسانا حتى قدم على هشام. فطلبوا الإذن، فصعب عليهم. فأتوا الأبرش (وزير هشام)، فقالوا: أبلغ أمير المؤمنين بأن أميرنا يغزوا بنا وبجنده، فإذا أصابنا نفلهم (أعطاهم الأنفال) دوننا وقال: هم أحق به، فقلنا: هو أخلص لجهادنا. وإذا حاصرنا مدينة قال: تقدموا، وأخر جنده. فقلنا: تقدموا فإنه ازدياد للجهاد، ومثلكم كفى إخوانه، فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم.

ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا، فجعلوا يبقرونها عن السخال يطلبون الفراء الأبيض لأمير المؤمنين، فيقتلون ألف شاة في جلد! فقلنا ما أيسر هذا لأمير المؤمنين، فاحتملنا ذلك، وخليناهم وذلك. ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا، فقلنا: لم نجد هذا في كتاب ولا سنة فنحن مسلمون. فأحببنا أن نعم، أعن رأي أمير المؤمنين ذلك أم لا. قال

الأبرش: نفعل. فلما طال عليهم، ونفدت نفقاتهم، كتبوا أسماءهم في رقاع، ورفعوها إلى الوزراء، وقالوا هذه أسماؤنا، وأنسابنا، فإن سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه.<sup>1</sup>

إن قراءة الأحداث يجب أن تكون بمثل هذه الموضوعية المتزنة لا بالعاطفة المتأججة، وكم يسعد القارئ حين يصادف مثل هذه القراءات المنصفة من قبل بعض العلماء وإن كانت قليلة.

<sup>1</sup> - د، إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع المغربي، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة (دت) ص 169. عن

إن موازنة بسيطة بين كلام الطبري، وبين ما كتبه البكري، يدرك مدى تحمس هذا الأخير لتصديق كل ما قيل عن زندقة قبائل برغواطه.<sup>1</sup>

وعلى أي فالقصيدة وثيقة مهمة في تاريخ المغرب الإسلامي، سجلت ظاهرة الزندقة بالافتراء على الله بادعاء النبوة وتحريف الدين، والتي حدثت في أغلب الأقاليم الإسلامية منذ عهد أبي بكر الصديق. فلا غرابة إن تكررت في المغرب.

والقصيدة عبارة عن هجاء لأولئك المدعين، خاصة والبربر عامة: "هموم براير..."

البيت الثاني، وهو تعميم يؤكد تكرر العصبية العرقية في بعض الفترات رغم نبذ الإسلام لها.

---

<sup>1</sup> - وهذه فقرة تكشف انسياق البكري وراء كل ما قيل "... وأن الكلام الذي ألف لهم وحيا من الله تعالى لا يشكون فيه، تعالى الله عن ذلك، وصوم رجب وأكل شهر رمضان وخمس صلوات في اليوم وخمس في الليلة والتضحية في اليوم الحادي عشر من المحرم، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين ثم الاستنجاء ثم المضمضة وغسل الوجه ومسح العنق والقفا وغسل الرجلين من الركبتين، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وهم يسجدون ثلاث سجدة متصلة ويرفعون جباههم وأيديهم عن الأرض مقدار نصف شبر..."

المسالك والممالك ج2 ص322.

إن العقل يرفض كل هذا، لأن غاية المبتدعين التخفيف من بعض العبادات إرضاء لهوى النفس، كما رأينا عند العبيديين الفاطميين في المغرب. حيث هونوا من شأن العبادات، كالصيام والصلاة. أما ما أثبتته البكري في شأن برغواطه ففيه تعسير للميسور من الأمور. الشيء يسوغ كونه من باب المختلق لغرض الإساءة.

## الخاتمة

لقد استغرق البحث خمس سنوات كاملة وأشرف على السادسة . عانيت خلالها مشكلة ندرة المصادر والمراجع التي لا يتوصل إليها إلا بعد لأي. لذلك فاعتباط النفس بمجالسة مصدر هام لا يقل عن اغتباطها بمجالسة عزيز أ و حميم . وكم تكون الحسرة شديدة حين يسفر البحث عن مصدر ثم لا يحقق شيئاً مما قد طمح إليه الباحث. ورغم ذلك فقد استمتعت - صدقا - بمعايشة الأدب المغربي - أدب الآباء والأجداد البعيدين القريبين - خلال هذه المدة. عايشت ذلك بالعقل والعاطفة، يغمرني الرضا لإحساسي أنني أسدي بعض ما عليّ من حق الوطن وحق الآباء والأجداد، ببعث جزء من تراثهم إكراماً لهم. ورحم الله أبا العلاء القائل :

وقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد

فإن رأى أبو العلاء في مشي الخيلاء على الأرض هواناً للآباء، فلعمري لأفزع من ذلك السكوت عن مآثرهم وآدابهم .

بما أن أي بحث يهدف إلى تحقيق مجموعة من الأهداف والنتائج. فإن من أهم نتائج هذا البحث هي :

1 - إن فكرة الإقليمية في الأدب عامة والشعر خاصة حقيقة ملموسة، حتى وإن تعلق الأمر بالشعر المكتوب بلغة واحدة، والمُغترف قِيمَةُ التعبيرية والجمالية من نبع واحدٍ مشتركٍ ، ذلك لأن اللغة وإن كانت واحدة فإنها تتلون - إلى حد ما - من إقليم إلى إقليم ، ومن مجتمع إلى مجتمع، وما اللهجات - سواء في المغرب أو في المشرق - إلا صورة لذلك التلون. فالبنات والأقاليم بالنسبة إلى الشعر أو غيره من الفنون بمثابة الأوعية التي يصب

فيها مشروب معين فيأخذ شكل ولون وعائه. وذلك بتأثير مجموعة من العوامل لا سبيل إلى إبطال مفعولها. كالعوامل الطبيعية والسياسية والدينية والاقتصادية والثقافية. ولعل من أوائل الباحثين المدركين لأثر هذه العوامل على الشعر ابن سلام الجمحي، في كتابه طبقات الشعراء فقد تحدث عن شعر البادية وعن شعر القرى ورأى أن العصبية والحروب يعملان على إنكفاء جذوة الشعر، فيكثر ويقوى في البئات المتوترة كما في المدينة، ويضعف حيث الاستقرار والأمن كما في الطائف ومكة وعمان.<sup>1</sup> هذه الرؤية وغيرها تكشف عن قيمة الأفكار التي تضمنها كتاب ابن سلام، المتعلقة بتفسير كثير من الظواهر الأدبية تفسيراً علمياً<sup>2</sup>

كذلك الأمر بالنسبة إلى المغرب، فقد نشطت حركة الشعر الحماسي في منطقة القيروان إلى الزاب من المغرب الأوسط، في فترات التوتر والثورات خلال القرن الثاني أو قبله بقليل في زمن الولاة إلى قيام الدول والإمارات. وكذلك كان حال الأندلس - كما امتداد للمغرب من وجوه كثيرة - أيام ما يسمى بملوك الطوائف. قبل خضوعه للدول ذات القوة والسطوة في القرن الرابع والخامس.

2 - إن الشعراء المغاربة لم يفتنوا خطى المشاركة في كل الأغراض والمواضيع الشعرية، بل اختاروا من فنونها وموضوعاتها ما وافق أمزجتهم وظروفهم، كمجتمع قائم بذاته مستقل بإماراته في أغلب الأحيان. فاطرد الاتجاه الديني عند كثير من شعرائه،

---

<sup>1</sup> - محمد بن سلام الجمحي: طبقات الشعراء تمهيد ( جوزف هل ) ودراسة عن المؤلف للأستاذ طه إبراهيم ،دار الكتب العلمية، بيروت ، ط 1402/1 هـ - 1982م، ص 100.

<sup>2</sup> - د محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، ومنهج البحث البحث في الأدب واللغة مترجم عن ( لانسون وماييه) دار نهضة مصر، الفجالة - القاهرة (د،ت) ص 20.

مراعاة للقيم الإسلامية السمحة، وخضوعاً لسلطان الفقهاء والقضاة الذين كانوا حريصين على تطبيق أحكام الشريعة على أي كان.

كما تحاشى المغاربة شعر المجون والزندقة خلال القرون الثلاثة الأولى، وكذا الغزل الفاحش الذي يחדش كرامة المرأة، ويصيرها سلعة مبتذلة. ولم يقولوا فيه إلا بعد أن هبت عليهم تيارات الأهواء من الشرق والغرب، قالوا فيه بكثير من التحفظ، وبحدة أقل مما كان عليه في المشرق والأندلس. ذلك لأن للدين حرمة وقدسيتها في ظل كل الدول والإمارات التي تعاقبت على المغرب، بدءاً بالدولة الرستمية وانتهاءً بالدولة الحفصية، ولا غرابة في ذلك فجميع تلك الدول قامت على أسس دينية، باستثناء الإمارة الأغلبية التي عُينت من قبل الخلافة العباسية.

أما فيما يتعلق بشعر النزعات المذهبية والروحية فإن النتائج يمكن تصنيفها صنفين؛ صنف يتعلق بالجانب الموضوعي، وصنف يتعلق بالجانب الفني. فمن حيث الجانب الموضوعي يمكن تسجيل ما يلي:

1- غلبة الموضوعات ذات الطابع الديني على شعراء جميع المذاهب، وبخاصة لدى

شعراء جماعة السنة تمثل ذلك في :

أ - كثرة أشعار الزهد كثرة ملحوظة.

ب - كثرة شعر رثاء العلماء والصالحين. رثوهم بقصائد طويلة بلغ بعضها الثلاثمائة

بيت،<sup>1</sup> انقادت لهم فيها المعاني واتسقت، وطاوعتهم خلالها القوافي والأوزان. وهو ما

يبين الطبع الأصيل الذي كان عليه أولئك الشعراء.

---

<sup>1</sup> - مثل مثرية أحمد بن أبي سليمان لمحمد بن سحنون المشار إليها في مرآة جماعة السنة والتي بلغ عدد أبياتها 300 بيت .

2- ندر شعر التهاجي القبلي، وهو ما يبين تمكن العقيدة الإسلامية من النفوس.

3- ظهور التهاجي بالعقيدة : أكثر شعراء جماعة السنة وبالغوا في هجاء أصحاب

المذاهب الأخرى، وبخاصة الشيعة العبيديين منهم، وغايتهم من وراء ذلك الدفاع عن

العقيدة السنية، بعد أن تبين لهم ما في عقيدة الشيعة من زيغ وضلال.

3- قُتِرَ إقبالُ شعراء السنة على مدح الأمراء والولاة، وبخاصة من لم يحظ منهم بمحبة

الجمهور، أو شاع عنه الظلم أو عدم التقى. لذلك قل شعر المدح في القرون الثلاثة الأولى.

وما كان منه فهو من باب التقية ليس أكثر. وهو ما يعبر عن نزعة الزهد المتأصلة في

الشعوب المغربية. لذلك لم يشع المدح في المغرب إلا بعد أن تأسست ممالك ودول

مغربية كان لها فضل حماية الإنسان والدين والوطن من الفساد المطرد في كثير من

البنات الإسلامية الأخرى.

4 - قابلَ زهد شعراء السنة في مدح الأمراء وحاشيتهم أفرط شعراء الشيعة في مدح

أمرائهم وسلطينهم. يتقدمهم في ذلك الحسن بن هانئ الملقب بشاعر الشيعة الفاطميين

في المغرب وعلي الإيادي.

5- إن كثرة ما قيل في أمراء الشيعة من مدائح، فيها من الغلو ما فيها تقابلُهُ ندرَةٌ ملحوظة

فيما قيل فيهم من مرثي. وهو أمر يبدو- إلى حد ما - غريباً، قد يفسر بعدم صدق من

مدحهم من الشعراء.

6- إن زهد شعراء السنة في مدح الأمراء والسلطين، ورغبتهم في رثاء العلماء

والصالحين يقابله إفراط شعراء الشيعة في مدح أمرائهم ، وزهدهم في رثاء أمرائهم.

وهذا بطبيعة الحال مظهر من مظاهر تأثير المذهب كعقيدة على سلوك الشخص وتوجهه

حتى في الفنون التي يتعاطاها. فإذا علمنا أن جل شعراء السنة من العلماء سهل علينا تفسير الظاهرة، فجماعة السنة حياتهم قائمة على الصدق والزهد، فلا تنافس في امتداح الأمراء، ولا تزاحم على أبوابهم للفوز؛ صيانة لدينهم وكرامتهم. ولقد اعتذر بعضهم عن قبول وظائف، واعتذر البعض الآخر حضور مجالس نوي السلطان والجاه اتقاء للفتنة ودرءاً للشبهات. لذلك فالصدق في أشعارهم - غالباً - أوفر من شعر غيرهم. وقديماً قدم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه زهير بن أبي سلمى وأثنى عليه فلما سئل عن السر قال: " لأنه كان لا يعاظم في الكلام... ولم يمدح أحداً إلا بما فيه."<sup>1</sup>

7- أجاد شعراء المذهبين في الوصف، كل بطريقته فوصف شعراء السنة أقرب إلى الواقعية، في حين غلب على وصف الشيعة إضفاء طوابع التهويل والقداسة على الموصوفات المتعلقة بأئمتهم وأمرائهم. قصيدة ابن هانئ في قصر الأمير جعفر بن حمدون صورة لذلك التقديس.

8 - أما في موضوعات الشعر الأخرى كالحماسة والفخر والغزل فالتقارب بين شعراء المذهبين أوضح من تباينهم.

9- أما فيما يتعلق بشعر الخوارج فهو أقل وفرة وجودة من شعر السنة والشيعة، وهي قلة نتجت - فيما أرى - عن مجموعة من العوامل منها:

أ - صرامة الخوارج في تطبيق الشريعة وعدم التسامح مع المتجرئين عليها. والشعر يحتاج إلى قليل من الحرية وقليل من التحفيز.

<sup>1</sup> - أدونيس: الثابت والمتحول، دار العودة بيروت، ط1980، 3، 1- الأصول ص150

ب - اعتناء الدولة الرستمية بالعلوم على اختلافها، الأمر الذي صير عاصمتهم قبلة للعلماء فتوافدوا عليها من مختلف أمصار العالم الإسلامي. وقد تأثر شعرهم بذلك الاتجاه العلمي للدولة فغلبت عليه الموضوعية والالتزام، وتعد قصيدة أفلح بن عبد الوهاب - في مدح العلم والعلماء - نموذجاً لتلك الموضوعية. أمّا الغنائي منه فقد غلب عليه التصنع والتكلف وقصيدة يعقوب الصدراتي الرثائية نموذج لذلك.

ج - وهناك سبب آخر أراه على جانب من الأهمية لتفسير قلة شعر الخوارج وضعفه في ظل إماراتهم يعود إلى ظهوره المبكر ( منتصف القرن الثاني أو قبله بقليل) وهو زمن يمثل مرحلة النشأة بالنسبة للأدب المغربي. ويعد شعر بكر بن حمادي من أرقى نماذج شعر الخوارج.

9- إن الموازنة بين ما أفرزته تلك المذاهب من شعر في المغرب، تبين أن شعر جماعة السنة أوفر من شعر الشيعة، ويرجع ذلك إلى كون المذهب الشيعي طارئ على المغرب، في حين يعد المذهب السني الأصل والثابت الأدم. أما شعر الخوارج فهو قليل قياساً بشعر المذهبيين السني والشيعة .

أما الجانب الفني فيمكن تسجيل الملاحظات التالية:

1- إذا كانت الكلمة المفردة لا تشكل وحدها الأسلوب الشعري، فإن حسن اختيارها يعد الأساس في تشكيل العبارات الجيدة التي من مجموعها يتشكل الأسلوب الشعري؛ بما فيه من بيان وبديع وعاطفة وفكر وقدرة على توظيف الدين والتراث. وما إلى ذلك من عناصر الشعر. وقد ينبهر الباحث من توفيق المغاربة في زمن قياسي من التمكن من



كل ذلك؛ فاللفظة تميزت بالفصاحة والخفة والعذوبة وقوة الإيحاء عند جل من استشهدنا بشعرهم.

2- أما العبارات فتميزت هي الأخرى بحسن تجانس كلماتها وبصحة بنائها، تفنن في بنائها الشعراء وفق ما يقتضيه السياق معنى كان أو نغما؛ من تقديم وتأخير، وحذف وذكر، وإجمال وتفصيل وما إلى ذلك. يستثنى من هذه الخصوصية بعض أشعار الخوارج، كبعض أبيات قصيدة يوسف بن إبراهيم الصدراتي .

3- الصورة : خلال العبارات تتشكل الصور التي يهندي إليها الشاعر، وهي تختلف في تعبيريتها وحيويتها من شاعر لآخر تبعا لثقافته وأصالته ملكته. والشعراء المغاربة متفاوتون في ذلك. بل الشاعر الواحد قد يبدع في صورة ويخفق في أخرى.

وقد تعددت وسائل تشكيل الصورة عند المغاربة كتعددتها في روافد الشعر العربي عامة.

4- الشعر السني - إلا القليل منه - أكثر تمثيلا للشخصية المشبعة بالقيم العربية ذات

الطابع البسيط في أنماط التفكير والرؤية والتخييل، فتأثرت بذلك فنونها (أي جماعة

السنة) ومنها الشعر فابتعد عن التعقيد و الغلو فجاءت معانيهم وصورهم أكثر وضوحا

وقربا من الجمهور العربي الذي لم يخض بعد في الفلسفات الدخيلة والمتداخلة.

فكان شعرهم أكثر محافظة على القيم الفنية والجمالية للشعر العربي المتأثر بالإسلام.

5- تبنى الشعر الشيعي أول أمره فكرة بريئة، نشأت عن ولاء صادق لآل البيت، فدافع

بالحجة والبرهان والعاطفة عن حقهم المغتصب، ثم ما لبثت - تلك الفكرة - أن صبغت

بصبغة التيارات الفكرية الدخيلة على المجتمع العربي، من فلسفات الإغريق والهند

والفرس وغيرها، كالحلول والتناسخ والتأويل والوصاية والرجعة، وغيرها من اعتقادات

الشيعية، والشعر المغربي الشيعي أقل تمثيلا لتلك العقائد والفلسفات، إلا ما كان من شعر ابن هانئ ومحمد البديل، ففي شعرهما شيء من ذلك.

3- حاول الشعراء المغاربة على اختلاف مذاهبهم التجديد في بنية القصيدة العربية وذلك بإهمال المقدمة الطللية أو الغزلية في أغلب قصائدهم، إما بالدخول المباشر في موضوع القصيدة أو باستبدالها بالبسملة والحمد، كما في قصيدة سابق البربري، أو بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو مدحه كما في بعض قصائد الزهد والتصوف.

4 - الشعر المغربي تراوح بين القصيدة والمقطوعة، والموضوع هو المتحكم في ذلك، فموضوعات المدح والثناء والفخر والزهد، غالبا ما تأخذ شكل القصائد. أما المساجلات الحماسية والغزليات فيغلب عليها قالب المقطوعات.

5- لقد تأثرت بتلك التيارات أساليب الشعر، من لفظ وتركيب ومعنى وصورة، وبخاصة لدى شعراء الشيعة، فظهر التعقيد والمبالغة والغلو في المعنى والخيال، والإفراط في توظيف البيان والبدیع. فصار المتلقي في حاجة إلى من يأخذ بيده لإدراك تلك المعاني والظلال. كما في شعر ابن هانئ وكأبيات محمد البديل في المهدي حين حلولة برفادة.

6- تميزت القصيدة المغربية - في أغلب الأحيان - بالوحدة الموضوعية والعضوية. وأشعار بكر بن حماد، والقاسم بن إدريس، وأبي القاسم الفزاري صورة لذلك.

7- القصيدة المغربية باستثناء الشيعية منها لا تحفل كثيرا بتفخيم ألقاب الممدوحين، فهي أقرب إلى الواقع. وقصيدة سابق البربري نموذج لذلك، فقد خاطب الخليفة عمر بن عبد

العزیز باسمه مجردا من كل ألقاب الفخامة. وكذلك قصائد بكر بن حماد فقد خاطب أمير مدينة كرت المغربية باستعمال الضمير " إني لمشتاق إليك " كخطابه لسائر الناس.

8- مما تميز به الشعراء المغاربة القدرة على توظيف التراث توظيفا رائعا؛ تضمينا حيناً واقتباساً أحياناً أخرى وحيناً معارضة.

9- لقد أفرزت عملية احتكاك المذاهب الثلاثة (السني والشيعي والخارجي) ببعضها في المغرب حركة شعرية حثيثة، دفعت بالشعر المغربي إلى التطور والازدهار فكرياً وفنياً، فهي بذلك عامل خير على الأدب المغربي شعره ونثره. وما تلك المساجلات والأهاجي والمناظرات، وهي كثيرة إلا نتيجة ذلك التفاعل.

10- إذا عد الكميّ بن زيد الأسدي، والسيد الحميري أكثر شعراء المشاركة انتصاراً لفكرة التشيع كسياسة وعقيدة، فإن علي الإيادي التونسي والحسن بن هانئ أكثر شعراء المغرب مدحاً وولاءاً للشيعية الفاطميين في المغرب.

لا يسع المنتهي من رحلة البحث إلا أن يحمّد الله الذي أمدّه بالعون على إنجازهِ، بعد أن كان بالأمس مجرد فكرة، يخيل إلى صاحبها قبل البدء أن بين نقطة البدء ونقطة الإنهاء ما يكمل العزائم .

فله الحمد من قبل ومن بعد.

## قائمة المصادر والمراجع

### أولاً : المصادر:

- القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع.
1. الموطأ للإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى، دار الكتب، الجزائر، 1987م.
  2. صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، ط 2 / 1392هـ-1972م.
  3. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، (د.ت).
  4. ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين، تح: د. محمد ناصر ، والأستاذ إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي 1986م.
  5. ابن خلدون: المقدمة، مطبعة دار القلم، تونس، ط 1 / 1949م.
  6. ابن عبد الحكم: فتوح مصر و المغرب، تح، د، علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1425هـ-2004م.
  7. ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تح و مراجعة ج.س كولان و إ.ل.في بوفونسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 2، 1400هـ-1980م.
  8. ابن فرحون المالكي : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تح: محمد الأحمد أبو النور، مكتبة دار التراث ، القاهرة ط 2 / 1426 هـ، 2005م.

9. ابن قتيبة: طبقات الشعر والشعراء، عالم الكتب، بيروت لبنان، ط3 / 1404هـ -- .  
1984م .

10. ابن قنفذ القسنطيني: كتاب الوفيات، تح، عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة  
بيروت، ط3، 1400هـ-1980م.

11. أبو إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني: زهر الآداب و ثمر الألباب، شرح  
و ضبط: د، زكي مبارك، دار الجبل، بيروت، ط4 / 1972م.

12. أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم: طبقات علماء إفريقية و تونس تح: علي  
الشابي ونعيم حسن اليافي، الدار التونسية للنشر. والمؤسسة الوطنية للكتاب، ط2  
1985م.

13. أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، صححه واعتنى به محمد بن مسعود  
الأحمدي، علم الكتب بيروت، ط1 / 1426هـ - 2005م .

14. أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة و أخبارهم، تح  
وتعليق: إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية 1979م.

15. أبو عبيد عبد الله البكري: المسالك والممالك، حققه ووضع فهارسه: د، جمال  
طلبة، دار الكتب الـغـهية ببيروت، ط1/ 1424-2003هـ، مج1.

16. أبو نصر عبد الله علي السراج الطوسي: اللمع في تاريخ التصوف

الإسلامي، تح، عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، (د.ت).

17. أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري : كتاب الصناعتين الكتابة و الشعر،تح، علي محمد البجاوي ،و محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت،1406هـ-1986م.
18. أبو تمام: ديوان الحماسة، شرح الخطيب التبريزي،عالم الكتب بيروت(د.ت)
19. أميرة الشيخ رضا فرحات:المختار في عيون المعارف والأخبار،دار الكتب العلمية،بيروت.ط1، 2003م 1424هـ.
20. الإدريسي: المغرب العربي،حقيقه ونقله إلى الفرنسية،محمد حاج صادق ، المنشورات الجامعية،الجزائر.
21. الإمام القشيري: الرسالة القشيرية، تحقيق: د، عبد الحليم محمود، د، محمود بن الشريف، دار المعارف القاهرة ( د ت ).
22. الحسن ابن رشيق: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع و تح محمد العروسي،المطوي و بشير البكوش، الدار التونسية للنشر، 1406هـ-1986م.
23. الحسن ابن رشيق:العمدة، تح محمد محي الدين عبد الحميد، ط3/ 1383هـ-1964م، مطبعة السعادة،مصر.
24. الحسن بن رشيق: قرأضة الذهب في نقد أشعار العرب،تح،الشاذلي بويحيى،الشركة التونسية للنشر والتوزيع،تونس1972.
25. الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر: جذوة المقتبس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966م .

26. الخطيب التبريزي: شرح القصائد العشر، تح: فخر الدين قباوه، دار الأفاق الجديدة بيروت، ط3/ 1399هـ-1979م.
27. الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقيا والمغرب، تح: د، محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني، القاهرة ط1 / 1414هـ -- 1994م .
28. العماد الأصفهاني: خريدة القصر و جريدة العصر، تح، محمد المرزوقي، محمد العروسي المطوي، الجيلاني بن الحاج يحيى، ط2، الدار التونسية للنشر، 1973م.
29. ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي.
30. القاضي أبو الفضل عياض: تراجم أغلبية، تح محمد الطالبي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، 1968م .
31. القاضي النعمان: كتاب افتتاح الدعوة، تح : فرحات الدشراوي ط2، الشركة التونسية للتوزيع، ديوان المطبوعات الجمعية الجزائر، (د.ت).
32. النابغة الذبياني: الديوان، جمع وتحقيق وشرح : محمد الطاهر بن عاشور، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1976م .
33. جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2/1978م.
34. حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء تقديم و تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م

35. حسان بن ثابت: الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1974م
36. زاهد علي: تبیین المعاني في شرح ديوان بن هاني، مطبعة المعارف و  
مكتبتها بمصر، 1352هـ.
37. سليمان بن الشيخ عبد الله الباروني النفوسي: الأزهار الرياضية في أئمة  
وملوك الإباضية، دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع - تونس (د.ت).
38. شكري فيصل: تطور الغزل بين الجاهلية و الإسلام، دار العلم للملايين،  
بيروت، ط6، 1982م.
39. عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، تحقيق مجدي فتحي السيد، المكتبة  
التوفيقية، القاهرة، مصر.
40. عبد الله بن محمد المالكي: رياض النفوس، تح، بشير البكوش، مراجعة،  
محمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان، 1401هـ-  
1981م .
41. عبد الله كنون: سابق البربري شاعر من المغرب عاش في الشام، مجلة اللغة  
العربية بدمشق، مج44 شوال 1388هـ - كانون 1969/2.
42. لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، تح و تعليق: أحمد مختار العبادي  
و محمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م.
43. عبد الملك بن سعيد: المغرب في حلى المغرب، تح، شوقي ضيف، ط2، دار  
المعارف، مصر، 1964م.



44. عبد الواحد المراكشي: المُعجَب في تلخيص أخبار المغرب، تقديم و تح، د، محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر و التوزيع، القاهرة، 1994م.
45. عنتر بن شداد: الديوان، شرح محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت ط3/1423هـ 2002م.
46. محمد بن رمضان شاوش: الدر الوقاد في شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية، مستغانم - الجزائر، ط1/1385هـ 1966م.
47. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق أبي محمد، محمد بن فريد، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر.
48. محمد بن عبد الله بن ابي بكر القضاعي المعروف بابن الآبار، الحلة السираء، تح: د، حسين مؤنس، دار المعارف مصر، ط2 / 1963م .
49. محمد باشا الكتبي: فوات الوفيات والذيل عليها، تح، د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1973.

#### ثانيا: المراجع:

50. إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع المغربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1970م.
51. إبراهيم الدسوقي جاد الرب: شعر المغرب حتى خلافة المعز، تقديم عبد العزيز الأهواني، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة 1973م.
52. أحمد أمين: فجر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ط11 / 1975م.
53. أدونيس: الثابت والمتحول، 1 الأصول، دار العودة بيروت، ط3/1980

54. إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي، دار الثقافة بيروت، ط7/1985م
55. السيد محمود أبو الفيض المنوفي: التصوف الإسلامي الخالص، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة، (د.ت).
56. العميد عبد الرزاق محمد أسود: المدخل إلى دراسة الأديان و المذاهب،  
الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1440هـ-1980م، مج1.
57. بشير خلدون: الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر، 1981م.
58. جابر عصفور: مفهوم الشعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2005م.
59. جودة محمد أبو اليزيد المهدي: أعلام الصوفية، دار غريب، القاهرة، ط1،  
1418هـ-1998م.
60. جودة محمد المهدي: أعلام التصوف، دار غريب، القاهرة، ط1: 1418هـ  
1998م.
61. حسن البنداري: تجليات الإبداع الأدبي، مكتبة الآداب القاهرة، ط1، 2002م.
62. حسين عطوان: مقدمة القصيدة العربية في العصر الأموي، دار المعارف  
، مصر، 1974.
63. رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، دار الهدى عين مليلة،  
الجزائر ط3، (د.ت).
64. سحر سامي: شعرية النص الصوفي في الفتوحات المكية لمحي الدين بن  
عربي، الهيئة المصرية للكتاب، 2005م.

65. سلطان الحريري: أدب الدعاء في صدر الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، 1996م، إشراف د، عمر موسى باشا.
66. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف بمصر، ط6 (د.ت).
67. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، دار المعارف بمصر، ط2، (د.ت).
68. شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، دار المعارف، ط1، (د.ت).
69. صالح باجية الإباضية بالجريد، في العصور الإسلامية الأولى، دار بوسلامة للطباعة والنشر، تونس ط1، 1976م.
70. صلاح رزق: أدبية النص، دار غريب، القاهرة، ط2، 2001م.
71. صهوي المتولي: منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم، عالم الكتب، القاهرة، 1401هـ-1981م.
72. عاطف جودة نصر: شعر عمر بن الفارض، دراسة في فن الشعر الصوفي، دار الأندلس، بيروت، لبنان ط1/1402هـ-1982م.
73. عامر النجار: التصوف النفسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م.
74. عبادة كحيلية: المغرب في تاريخ الأندلسي والمغرب، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، ط1، 1418هـ-1997م.
75. عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، ج1 مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب، 1979م.
76. عبد الحسيب طه حميد: أدب الشيعة إلى نهاية القرن الثاني الهجري، مطبعة السعادة بمصر، ط2، 1388هـ-1968م.

77. عبد الحميد جيدة: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت لبنان، ط1/1980.
78. عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، مكتبة الفكر الجامعي، بيروت، لبنان، ط1، 1970م.
79. عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية، الدار التونسية للنشر، ط2، 1985م.
80. عبد العزيز نبوي: محاضرات في الشعر المغربي القديم، جامعة عنابة، قسم اللغة العربية و آدابها، ديوان المطبوعات الجمعية، 1983م.
81. عبد السلام شقور: الشعر المغربي في العصر المريني قضاياه و ظواهره، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية بتطوان، المغرب، ط1، 1996م.
82. عبد العزيز المجدوب: الصراع المذهبي بإفريقية، الدار التونسية للنشر، ط2، 1985م.
83. عبد القادر القبط: في الشعر الإسلامي و الأموي، دار النهضة العربية، بيروت، 1979م.
84. عبد الله اشريط: تاريخ الثقافة و الأدب في المشرق و المغرب، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط3، 1983م.
85. عبد الله التطاوي: حركة الشعر في ظلال المؤثرات الإسلامية، دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع، القاهرة، 1998م.

86. عبد الله حمادي: دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1406هـ-1986م.
87. عبده العزيز قلقية: من التراث الأدبي للمغرب العربي، عالم الكتب، القاهرة، 1979م.
88. عثمان الكعك: موجز تاريخ الجزائر العام، من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 2003م.
89. عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر، دار العودة بيروت، لبنان، ط3، 1981م.
90. مبارك الميلبي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مكتبة النهضة الجزائرية، 1350.
91. محمد أحمد أبو زهرة: المذاهب الإسلامية، مكتبة الآداب و مطبعتها بالجماميز ، القاهرة، (دبت)
92. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1981م.
93. محمد اليعلاوي: أبين هانئ المغربي الأندلسي ، شاعر الدولة الفاطمية، دار الغرب الإسلامي بيروت - لبنان، 1985م.
94. محمد اليعلاوي: الأدب بإفريقية في العهد الفاطمي ، دار المغرب الإسلامي بيروت، لبنان ط1/1986م.

95. محمد أمين أبو جوهر : الإسماعليون بين الإعتزال والتشيع ، التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط2، 2006.
96. محمد بن تاويت ، ومحمد الصادق عفيفي : الأدب المغربي ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت - لبنان ط1969، 2م.
97. محمد بن رمضان شاوش، والغوثي بن حمدان: إرشاد الحائر إلى آثار الجزائر، هـ . داود بريكسي، تلمسان، ط1422/1 هـ 2001.
98. محمد زغلول سلام: الأدب في العصر الفاطمي، منشأة المعارف بالإسكندرية مصر. (د.ت).
99. محمد شبل الكومي: المذاهب النقدية الحديثة مدخل فلسفي، تقديم د، محمد عناني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2004م.
100. محمد طه الحاجري: دراسات و صور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1403 هـ-1983م.
101. محمد مجيد السعيد: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس، مطابع الرسالة، الكويت (د.ت).
102. محمد مندور: النقد المنهجي عند العرب، دار نهضة مصر الفجالة، القاهرة، 1972م.
103. مصطفى الشكعة: الأدب في موكب الحضارة الإسلامية، دار الكتاب اللبناني ، بيروت، ط2، 1974 م، كتاب الشعر.

104. مصطفى الشكعة: الإسلام بلا مذاهب، الدار النصرية اللبنانية، ط8،

1411هـ-1991م.

105. مصطفى غلوش: التصوف في الميزان، دار النهضة للطبع والنشر، الفجالة

القاهرة (د.ت).

106. موسى لقبال: تاريخ المغرب الإسلامي، دار هومة، الجزائر، ط4، 2001م.

107. نبيلة حسن محمد: في تاريخ المغرب و الأندلس، دار المعرفة الجامعية

للطب، الإسكندرية، مصر، 2004م.

### ثالثا : المعاجم:

100. عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، مكتبة مدبولي،

القاهرة، ط3، 1420هـ-2000م.

101. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي : القاموس المحيط، مطبعة

مصطفى البابي الحلبي و أولاده، مصر، ط2، 1371هـ-1952م.

102. المنجد في اللغة و الأعلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط22، 1973م.

### رابعا: المجلات:

103. مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، مج 44، شوال 1388هـ-كانون الثاني

1969م.

104. الحياة الثقافية، وزارة الشؤون الثقافية تونس، العدد 37/36، 1985م.

105. مجلة الفكر لإسلامي، وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر،

المجلد 1، جمادى الثانية 1392هـ-يوليو 1972م.

## فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة البحث.....	أ،ب،ت،ث،ج،ح
الباب الأول	
الفصل الأول:	
التعريف بالأرض والسكان.....	3-17
الفصل الثاني:	
نشأة المذاهب والفرق	
المذهب السني.....	19-28
المذهب الشيعي وأهم فرقه.....	29-46
المذهب الخارجي وأهم فرقه.....	47-57
فرقة المرجئة.....	58-63
فرقة المعتزلة وأهم فرقتها.....	64-72
نزعة الزهد والتصوف.....	73-90
الفصل الثالث:	
مظاهر التواصل.....	92-98
انتقال المذاهب إلى المغرب.....	99-114
الباب الثاني: أغراض الشعر المغربي وملامح تمذهبها.	
الفصل الأول: أغراض الشعر السني وملامح تمذهبها.....	117-182
الرتاء.....	118-124
التعزي في تولي الشباب.....	125-128
المدح.....	129-138
الحماسة.....	139-143
الهجاء.....	144-160
التشوق.....	161-166
الغزل.....	167-173
مسالمة ذوي القربى.....	174-178
الوصف.....	179-182
الفصل الثاني: شعر الخوارج وملامح تمذهبه.....	183-219



185-184.....	تمهيد
190-186.....	التبرم من متاعب الشيخوخة والتشوق
196-191.....	الثناء
209-197.....	التعريض والهجاء
219-210.....	المدح
	الفصل الثالث: أغراض الشعر الشيعي وملامح تميزه.
225-221.....	تمهيد
231-226.....	الشعر المتعلق بالنشأة
242-232.....	المدح
248-243.....	الحماسة والفخر
255-249.....	الهجاء
259-256.....	الثناء
271-260.....	الوصف
280-272.....	الغزل
	الباب الثالث: شعر النزعات الروحية والمجون.
297-282.....	الفصل الأول: نزعة الزهد
315-298.....	الفصل الثاني : نزعة التصوف
330-316.....	الفصل الثالث : نزعة المجون
339-331.....	الخاتمة
353-340.....	قائمة المصادر والمراجع